



محاضرات
في
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور
الوسطى
إعداد
دكتور

محمد عبد الشافي المغربي
أستاذ تاريخ العصور الوسطى



| | |
|---------------------------|--------------------|
| الآداب بقنا | الكلية |
| الرابعة | الفرقة |
| التاريخ | التخصص |
| ٢٣٧ | عدد الصفحات |
| أ.د محمد عبدالشافى | إعداد |



مقدمة :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، أو بمعنى أدق حلقة من حلقات النضال بين الغرب المستعمر والشرق المتحرر ، بين الغرب المعتدى والشرق المدافع ، فهي لم تكن حرباً دينية بمقدار ما كانت حرباً استعمارية ، وربما لم يعرف التاريخ الإنساني ظاهرة تاريخية حملت مصطلحاً مخالفاً لحقيقتها مثل " الحروب الصليبية " .

ويسعدني أن أقدم لطلابي بجامعة جنوب الوادي مجموعة محاضرات في تاريخ الحروب الصليبية ، اعتمدنا فيها على ما قدمه أساتذتي في هذا المجال من معلومات نتيجة لدراساتهم المختلفة ،

أرجو أن تعم الفائدة من هذه المحاضرات

والله الموفق

د / محمد عبد الشافي المغربي

كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادي

فهرس الموضوعات

| رقم الصفحة | الموضوعات |
|------------|--|
| ٦ | المقدمة |
| ٢١-٨ | الفصل الأول ماهية الحروب الصليبية |
| ٦٠-٢٢ | الفصل الثاني أسباب ودوافع الحروب الصليبية |
| ١٨٠-٦١ | الفصل الثالث النشاط الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي الحملة الأولى والثانية والثالثة |
| ١٩٨-١٨١ | الفصل الرابع الجهة الإسلامية ودرها في التصدي للصليبيين |
| ٢١٨-١٩٩ | الفصل الخامس الحملة الصليبية من الرابعة إلى السابعة |
| ٢٣٧-٢١٩ | الفصل السادس الجوانب الحضرية بين المسلمين والصليبيين |

الفصل الأول ماهية الحروب الصليبية



أهداف الفصل الأول

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً
بمعنى الحروب الصليبية ومفهومها ومصطلحاتها

الفصل الأول

ماهية الحروب الصليبية

معنى الحروب الصليبية :

الحروب الصليبية حملات حربية وجهها البابوات وملوك وأمراء أوروبا المسيحيون ضد المسلمين في الشرق فيمت بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ، وسميت بذلك لأن المحاربين الأوروبيين اتخذوا من الصليب شعاراً رسموه على ملابسهم وعلى دروعهم وأعلامهم دلالة على مغزاهم الديني ، واتخذت الحركة الصليبية من المسيحية ستاراً كاذباً لها ، وشنت هجوماً استعماريًا على ديار الإسلام والمسلمين وحملت معها العداوة والحقد الديني .

والحروب الصليبية حلقة من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور منذ حروب الإسكندر المقدوني ضد الفرس ، والرومان من بعده ضد الفينيقيين في قرطاج في شمال أفريقيا والبطالة في مصر ، ثم أخذت بُعداً دينياً عندما بدأ المسلمون يطرقون جنوب أوروبا ووسطها ولذلك مجد المؤرخون الأوروبيون انتصار شال مارتل على المسلمين في " تور - بواتيه " ، ومن أهم نتائج تلك المعركة أن الأندلس أصبحت هدف حركة الاسترداد المسيحي لطرد المسلمين من أوروبا وأبلغ دليل على ذلك أن المؤرخ المسلم ابن الأثير بدأ حديثه عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى خروج الفرنج إلى بلاد الإسلام والاستيلاء على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس سنة ١٠٨٥م ثم استيلائهم على صقلية سنة ١٠٩١ م . (١)

وليس من قبيل الصدفة التوافق الزمني بين فترة الحروب الصليبية في المشرق وفترة ازدياد الضغط المسيحي على مسلمي أسبانيا ، والحروب الصليبية في المشرق ظلت ما يقرب من مائتي عام من (١٠٩٦ - ١٢٩١ م) جاءت خلالها الحملات للسيطرة على ساحل الشام والاستيلاء على بيت المقدس ، ثم وجه الصليبيون من المشرق ومن أوروبا حملاتهم ضد مصر لأنهم وجدوا أنه لا سبيل إلى بقائهم واستمرارهم في الشرق إلا بالاستيلاء على مصر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل وانتهت بطردهم نهائياً من عكا آخر معاقلهم سنة ١٢٩١ م على يد السلطان المملوكي خليل بن قلاوون .

وليس أبعد عن الحقيقة والتاريخ من القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروباً دينية إذ لم يكن لها من المسيحية إلا اسمها وأنهم ظلوا دائماً أبعد ما يكونون عن روح المسيحية وهي الديانة السماوية الكريمة التي حرص القرآن الكريم على تكريم نبيها تكريماً لم يحظى به أحد من الأنبياء . (٢)

وأى وازع ديني عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس في أيديهم ؟ بل أى وازع ديني كان عند أولئك الصليبيين عندما اقتحموا القسطنطينية وهو البلد الآمن المسيحي ولم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتداء على أهلها المسيحيين وهم إخوانهم في الدين . (٣)

الحركة الصليبية - المصطلح ومدلولاته المختلفة :

أولى مشكلات البحث في تاريخ الحركة الصليبية تتمثل في المصطلح ومدلولاته المختلفة التي تؤدي بالضرورة إلى حال من الفوضى والارتباك ، لا سيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضاً بين دلالاته اللغوية

، وحقيقته التاريخية ، لقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالي قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها ، والناظر في مجريات وقائعها يجد مزيجاً من القسوة والوحشة والتدين العاطفى الذى يشويه التعصب ، ويكتشف فى ذلك كله تناقضاً مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل الآخرين ، ولم يكن الصليب أبداً رمزاً للحرب والقتل والعدوان .

ومن المهم هنا ، نشير إلى الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح " الحملة الصليبية " أو " الصليبيين " إذا لم يحدث سوى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى أن ظهرت الكلمة اللاتينية *Crusesignati* ومعناها " المرسوم بالصليب " لكى تعبر عن الصليبيين ، لأنهم كانوا يخطون صلبان القماش على ستراتهم ولم يحدث حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى أن كانت هناك كلمة لاتينية تعنى " الحركة الصليبية " ، وفى بداية المر كان من يشاركون فى الحملة الصليبية يوصفون بأهمهم " حجاج " *Preregrini* وغالباً ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة *Peregrinorio* ومعناها " رحلة الحج " التى كانت شائعة تماماً فى الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية ، كذلك استخدمت كلمة *Expeditio* التى تعنى " الحملة " وعبارة " الرحالة إلى الأرض المقدسة " *Iter in Terramsanctam* واصطلاح " الحرب المقدسة " *Gueree Saint ، Bellum Sacrum* ، كما استخدمت عبارات ومصطلحات مثل " الحملة العامة " *Passgim* *General* أو " حملة الصليب " *Expeditio Curxis* ، أو " مشروع يسوع المسيح " *Negotium Jhesus Christi* ، وفى وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة المستقاة من كتابات المؤرخون اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية ولاسيما فى أطوارها الأولى ، بل إنه مما يلفت النظر حقاً أن عناوين مؤلفاتهم جميعاً خلت من ذكر كلمة " الصليبيين " أو " الحملة

الصليبية " وإنما درارت حول " الحملة " و " حجاج بيت المقدس " ، و " الفرنج " ... وما إلى ذلك .

ومن المهم أن نشير إلى أن الكلمة الإنجليزية *Grusade* والكلمة الألمانية *Kreuzzag* قد ابتكرتا في القرن الثامن عشر فقط ، وبعد أن كان البحث التاريخي في الحروب الصليبية قد مضى شوطاً منذ بدأ توماس فوللر *Thomas Fuller* الإنجليزي في القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الإنجليزية حول الحركة الصليبية في كتابه باللغة الإنجليزية القديمة وأسماءه (*Historie of the Holy Warre*) والملاحظ أنه استخدم عبارة " الحرب المقدسة " أيضاً .

وعلى الرغم من الفشل النهائي الذي منيت به الحركة الصليبية إلا أن المثال الصليبي تحول بمرور الوقت - تحت تأثير وسائل الإعلام التي عملت في خدمة الأهداف الاستعمارية الأوروبية - إلى مثال براق يوحى بالشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل المثل الأعلى . واستقر في الوجدان الشعبي الأوروبي (والأمريكي) أن الحملة الصليبية *Crusade* لابد من أن تكون بالضرورة حملة خيرة نبيلة القصد والهدف منزهة الغرض مثل : رعاية المرضى ، أو مساعدة المنكوبين ، أو جمع التبرعات .. وما إلى ذلك . وربما يكون الموروث الشعبي المتداول حولها في " أغنيات الحروب الصليبية *Les Chanson des Groisades* " التي راجت في ذلك العصر ، واستمرت موجودة بعد ذلك تحكى قصة الحروب الصليبية شعراء وغناء للجماهير الأوروبية الجاهلة باعتبار ذلك بديلاً من كتب التاريخ التي سجلت قصة الحروب الصليبية ، نقول : أن هذا الموروث الشعبي الذي حملته الأغنيات الشعبية عن الحروب الصليبية ربما كان وراء هذه الصورة الأخاذة التي ترسم في أذهان عامة الناس في أوروبا والولايات المتحدة

الأمريكية حين ترن في آذانهم عبارة " الحروب الصليبية " فقد تخلت الأغنيات / الحكايات عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسى والتفسير الشعبى لتلك الظاهرة التى كانت تمثل فى حينها حلماً من أحلام الفقراء .

ماهية الحركة الصليبية :

أما فى شأن ماهية الحركة الصليبية فيتسأل شيخ المؤرخين فى العالم العربى الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قائلاً : ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون على الموضوع ، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم الفرس والروم ، ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دىنى حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبيين فى الحياة متباعدين ، ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه وعندئذ وجد منقسماً فى الحرب الصليبية وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المرة أنه وجد سبباً جديداً قوياً للخلاف بين الشرق والغرب هو الخلاف الدينى بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية .

وهنا فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن الإسلامى - وبخاصة فى الشرق الأدنى - ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية سنة ٤٧٦ م صحبته موجات من الهجرات التى قام بها أهالى بلاد الإمبراطورية الغربية وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الإمبراطورية ودخول عناصر جديدة من البرابرة داخل أراضيها وكان الناس فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها لا حياة لهم بدونها لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة ، وفى ضوء هذا التصور يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية الغرب إذ رأوا فى ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه وظنوا أن الساعة لا بد وأن اقتربت وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء مصحوباً بتدفق جموع البرابرة وبخاصة من الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية المر الذى ترتبت عليه زعزعة أركان المجتمع الرومانى القدم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان ولم يلبث الجرمان أن اعتنقوا المسيحية تدريجياً فأمدوا العالم الرومانى بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها فى كثير من الهجرات التى اتجهت إلى شمال إفريقية وإنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية فى حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة الهجرات التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا انطلاقة كبرى *Decumanus Fluctus* نتجت عن عملية الإحياء الدينى

التي بدأت في غرب أوروبا في القرن العاشر والتي بلغت أشدها في القرن الحادى عشر كما سبق أن أشرنا ، ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت في حقيقة أمرها حركة إحياء دينى بكل معانى الكلمة ترتبت عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كافة الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسى ودعمه وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوروبى ومهما يكن من أسباب الحروب بين البابوية والإمبراطورية ، وعنف تلك الحرب فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بالأخيارب الأخ أخاه ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر وإذا كان الغربيون عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة *En Masse* فكان يخرج للحج بعض مئات تحت زاعمة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياً من غرب أوروبا فى صورة مظاهر دينية سليمة قاصدين الأراضى المقدسة بالشام ، ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩ .

.....يرى فريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلى استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد

الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا بعض الأسلحة للدفاع عن أرواحهم في الطريق فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى في الأسلوب الذي اتبعه كل فريق في بلاد الشام؟ أما ذلك التطور في الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوروبي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين المسيحيين منها مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام .

وأخيرا فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ورأى في الحروب الصليبية الوسيلة التي تحايل بها الغرب الأوروبى للفكك من قيود العصور الوسطى والإنطلاق إلى حياة أوسع أفقاَ ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحدياً ضيقاً ، وكان كل من يحاول الخروج عن هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها ويئس المصير ، على أن الاتصالات التي تمت بين الغرب الأوروبى والمسلمين - سواء المسلمين فى الأندلس أو فى المشرق - أظهرت للأوروبيين أن الحياة أوسع أفقاَ مما يظنون فأخذت نسبة كبيرة من الناس فى غرب أوروبا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوروبية الوسيطة فى القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس فى التخلص من القيود المفروضة عليهم وتطلعهم إلى حياة أفضل وكان من المتعذر فى الظروف التي أحاطت بالناس فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة فى حركة ضخمة - مثل الحركة الصليبية - تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفى الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل

وبعبارة أخرى فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتاحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة .

هذه هي أم النوافذ التي أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية ونستطيع نحن في ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة الصليبية بأنها : " حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى واتخذت شكل هجوم حربي استيطاني على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق " .^(٥)

المدى الزمني للحروب الصليبية :

هذا وإذا كانت الحروب الصليبية قد شغلت الفترة من سنة ١٠٩٥ م حين أعلن البابا أوربان الثاني بدء الحركة الصليبية وحتى عام ١٢٩١م حين خرج آخر صليبي من مدينة عكا فإن الحروب الصليبية امتدت في مفهومها حتى القرن الرابع عشر ، وقد تميزت ثمانى حملات لأسباب تخص كل منها ، فالحملة الأولى : كانت أشهر هذه الحملات لما حققته من نجاحات عسكرية على حساب المسلمين لانقسام الصف الإسلامى وضعف المقاومة الإسلامية التى واجهت هذه الحملة . أما الحملة الثانية : فبرغم فشلها فقد تميزت بأنها أول حملة يشارك فيها ملوك وأباطرة أوروبا مثل لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد إمبراطور ألمانيا . والحملة الثالثة : جاءت كرد فعل لأوروبا فى مواجهة كارثة حطين ونجاحات صلاح

الدين والأيوبي ، وشارك فيها إمبراطور ألمانيا فردريك الأول ببروسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفليب أوغسطس ملك فرنسا . أما الحملة الرابعة : فقد تميزت بانحرافها عن هدفها الذي حددته لها البابوية وهو مصر إلى بيزنطة لتستولى على القسطنطينية ويقوم بها اللاتين إمارة لاتينية استمرت من عام ١٢٠٤م إلى عام ١٢٦١ . أما الحملة الخامسة : على مصر فقد فشلت فشلاً تاماً بعد إخفاقها عند دمياط ولم يشارك فيها أى من ملوك أو أباطرة أوروبا وكانت أول حمل تمثل السياسة الصليبية فى القرن ١٣ م / ٧ هـ وهى أن تكون مصر هدف الحملات الصليبية .

وجاءت الحملة السادسة غريبة فى هدفها وإنجازاتها وقيادتها فقد قادها الإمبراطور فردريك الثانى المحروم من الكنيسة وحقق دون قتال ما فشلت فيه الحملات الثانية والثالثة والرابعة رغم أن عدد قواته لم يتعد ٥٠٠ مقاتل ، واستطاع استرداد بيت المقدس ، وجاءت الحملة السابعة كآخر الحملات على مصر وقادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا وتحمل مسئوليتها وحده وكانت ذات طابع فرنسى بحت وفشلت هى الأخرى فى تحقيق هدفها ، ثم قام لويس نفسه بحملة (الثامنة) أخرى على تونس و فشل أيضاً فى الاستيلاء عليها ، ولم تنته أوروبا من محاولاتها الصليبية وجاءت بعد ذلك إرهابات أخرى فاشلة ضد العالم الإسلامى مثل حملة بطرس لوزجنيان ملك قبرص على الإسكندرية ولم كونها غزاة للسب والنهب وتلتها حملة نيقوبوليس ضد العثمانيين .

أما الحملات الثمان التي فازت بأرقام عديدة ميزتها في التاريخ فقد اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت بشمال إفريقية (الثامنة) ، ولا يعرف على وجه التحديد السبب في تميز هذه الحملات بإعطائها أرقاماً عديدة دون غيرها من الحملات وإن كان يبدو أن السر في هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح في الأراضي المقدسة (مثل الحملة الأولى) أو ما منيت به من فشل ذريع استرعى الانتباه (الثانية) ، أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف في غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) أو لخروجها تحت زعامة بعض كبار ملوك الغرب (الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

هوامش الفصل الأول

ماهية الحروب الصليبية

- (١) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، (القاهرة : ١٩٩٣) ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- (٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ١٠ .
- (٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٠ .
- (٤) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، (الكويت : ١٩٩٠) ، ص ١١ - ١٣ .
- جوناثان ريلى سميث : ما هى الحروب الصليبية ؟ ترجمة محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة : ١٩٩١) ، ص ٢ - ١١ .
- (٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، (القاهرة : ٢٠٠٢) ، ج ١ ، ص ٢٢ - ٢٦ .
- عزيز وريال عطية : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فليب صابر سيف ، مراجعة أحمد خاكي ، (القاهرة : ١٩٩٠) ، ص ٧ - ١٢ .

تدريبات على الفصل الأول



السؤال الأول : اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن



(أ) تطور مصطلح الحروب الصليبية.

(أ) مفهوم الحروب الصليبية

الفصل الثاني

أسباب دوافع الحروب الصليبية



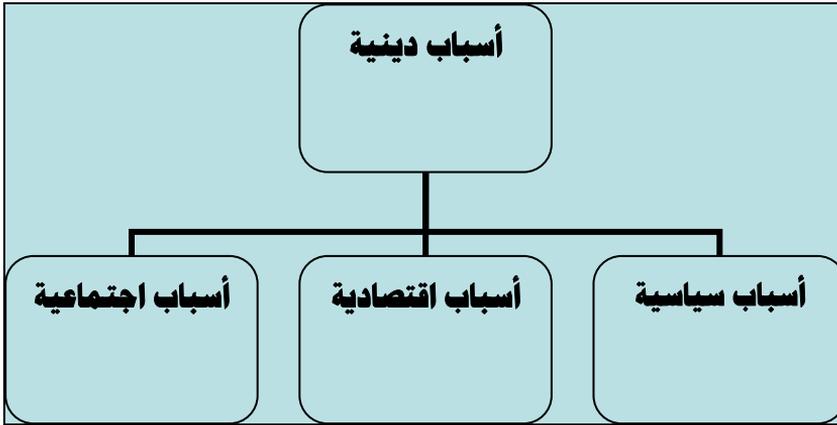
أهداف الفصل الثاني

يهدف هذا الفصل إلى :

- ١- التعرف على الأسباب الرئيسة للحروب الصليبية
- ٢- نظرة الغرب إلى الشرق والاتصال الروحي بينهما
- ٣- التعرف على أوضاع المجتمع الأوروبي قبيل الحروب الصليبية
- ٤- التعرف على أوضاع المجتمع الإسلامي قبيل الحروب الصليبية

الفصل الثاني

أسباب ودوافع الحروب الصليبية



أولاً : الباعث الديني :

ويضعها بعض المؤرخون في المقام الأول حتى أنهم يعودون بجذورها إلى معركة اليرموك وإذا كانت هناك دوافع أخرى إلا أن ذلك بدافع الحماس الديني ، ويرجع ذلك إلى الأديرة التي نشأت منذ القرن العاشر الميلادي لتقوية الجانب الروحي في الحياة الإنسانية وتقوية المسيحية ضد أعدائها حتى أصبحت تلك الدعوة منهجاً للإصلاح الكنسي عامة واعتبر المؤرخون الأوروبيون المعاصرون الحروب الصليبية حروباً مقدسة نظراً للحماس الديني الذي غلب عليها .

كانت الحركة الصليبية انعطافاً في تاريخ الغرب الأوروبي ، إذ كانت الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع سواء من حيث مجالها الجغرافي أو إظهارها الزمني أو أعداد الذين شاركوا فيها ، أول حرب يخوضها الأوروبيون تحت راية أيديولوجية بعينها ، وعلى الرغم من الإفلاس الأيديولوجي الذي تجلى منذ البداية في خضم أحداث الحملة

الصليبية الأولى إلا أن القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي قد اعتنقت هذه الأيديولوجية الصليبية وفق تفسيرها الخاص الذي يناسب مصالحها .

ولما كانت الحركة الصليبية في التحليل الأخير إفرازاً للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية وهي أهداف كانت تتركز أساساً حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي .^(١)

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجاً مبتوراً في ضوء العامل الديني وحده متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية ، من ذلك أن " ريان " *Riant* عرف الحروب الصليبية بأنها حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر للاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام .

حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي كلفت كثيراً من أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها ، ولكن ليس معنى هذا أن التيار الديني هو المسئول الوحيد عن إثارة تلك الحركة والقوة الموجهة لها ، وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها ، وأن الباعث الديني كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص .

وللوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك حتى لا ننزلق في الطريق نفسه الذى انزلق فيه كثير من المؤرخين

السابقين ، وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف أن كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت ... فضلاً عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات ، وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التي مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة ، بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمي كفيلاً بأن يصرف الباحث عن رؤية المدخل الحقيقي للموضوع . فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون الشرقيون والغربيون في البلدان الإسلامية ، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد) .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة ، تشهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة ، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : "

إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت ، حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط والاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوروبيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، ففعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريتين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وخدمهم فى مذبحه فردن الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة ، وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللثوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطى . وهذا كله فضلاً عما أتاه المبشرون الجرويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند .

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوروبيين أن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى ، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضاً بتشديد كنائس وأديرة جديدة جمعوا

فى مكتباتها كتباً دينية متنوعة فى اللاهوت . ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه - مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى - من تصرفات تجاه أهل الذمة . ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين ، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية ، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورن الأماكن المقدسة فى أمن وسلام

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوروبا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ، وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين . (٢)

ولكن هل يعنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامنا السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماماً عند معالجة القوة التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننا لم نقصد ذلك مطلقاً وإنما أردنا أن نصح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية ،

أما الاعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقاً القول بأن هناك اضطهاداً فريداً في نوعه حل بالمسيحيين في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لاستثارة الغرب الأوروبى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى - وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه - قد استغلوا فكره الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا ، فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الاوروبى لم تكن يهتمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين فى البلدان الإسلامية ، والاعتبار الثانى هو انه لا صحة إطلاقاً للفكرة الخيالية التى ظلت سائدة أمداً طويلاً والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوروبا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين ، الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجره الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة أن العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى عرفت فى التاريخ باسم عصور الإيمان ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور ، وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ ، وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجاً فى شكل حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى الشرق الأدنى ، ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس - من أمراء وعامة - إلى تلبية نداء

البابا في سهولة ويسر ، والخروج أفواجاً من غرب أوروبا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت في القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقاً واسعة لتجعل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا - بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس - الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب والمعروف أن البابوية ظل دائماً ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى ، جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وإزالة ما بينهما من شقاق . وأخيراً جاء استنجد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوروبى ضد السلاجقة فى القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة فى صراعه ضد المسلمين ، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية المسيحيين الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تكروا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وأما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيرنوها فى بلادهم فى ظل النظام الإقطاعى ، وإما للتهرب من

ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق . وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية - وهى البلد المسيحى الآمن - لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ، وهم جميعاً إخوانهم فى الدين ؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر

(٣)

أما الدكتور الحويرى يرى أن :

من بين الدوافع التى شجعت الغرب الأوروبى على القيام بحملته الصليبية الأولى هو الدعوة الشاملة لتأمين طريق الحجاج المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة بيت المقدس فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى حيث أصبح هذا الطريق مليئاً أمام الحجاج المسيحيين بسبب سوء معاملة حكام البلدان الإسلامية التى مروا بها الأمر الذى دعا ألك الحجاج إلى أن يسيروا فى جماعات التماساً للأمن ، وأن يمضوا فى طريقهم مسلحين ويقال أن قافلة الحجاج الألمان التى قادها رئيس أساقفة ماينز فى سنة ١٠٦٤ م بلغ عددها ما يزيد على عشرة آلاف من الرجال والنساء ولكن معظم الحجاج كانوا يسرون غير مسلحين ، والحقيقة أنه منذ أن فتح المسلمون مدينة بيت المقدس فى القرن السابع الميلادى وظلت فى يد الحكام المسلمين لم تتعرض حياة الحجاج المسيحيين لأية أخطار فالطرق كانت آمنة والماء والطعام متوفران دائماً ولقى الحجاج الترحيب من قبل السلطات الإسلامية فى بيت المقدس وما حدث من الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس وبين المسيحيين فى الغرب الأوروبى

وبقاء هذا الاتصال نشيطاً قرناً عديدة إنما يرجع إلى تسامح المسلمين وحرصهم على مراعاة المشاعر الدينية للمسيحيين .

وجدير بالذكر هنا أن كثيراً من المسيحيين في الشرق الأدنى كانوا يفضلون حكم المسلمين على حكم الرومان أو البيزنطيين ، ذلك أن أولئك المسيحيين كانوا ينتمون إلى فرق مذهبية مختلفة مثل النساطرة والمونوفيزيين ، ومن ثم كانوا يتعرضون للاضطهاد من قبل الكنيسة الشرقية التي تخالفهم في المذهب ، بل إن المسيحيين الذين كانوا ينتمون إلى تلك الكنيسة كانوا يرتاحون لحكم المسلمين بدليل أنه في القرن التاسع الميلادي كتب بطريرك بيت المقدس يصف المسلمين بقوله : " إنهم عادلون ، لا يرتكبون خطأ في حقنا ، ولا يستخدمون العنف معنا " ، وفيما عدا ما قام به الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١ م) من اضطهاد لأهل الذمة ومنع الحجاج المسيحيين من الوصول إلى بيت المقدس سنة ١٠٠٩ وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس في أنحاء الدولة الفاطمية فقد عاش المسيحيون في كنف الدولة الإسلامية بياشرون حياتهم وعيشتهم في هدوء . (٤)

أما الدكتور جوزيف نسيم يوسف فيرى :

والأمر الذي لا خلاف بشأنه أن تلك الحروب تعبر عن روح العصور الوسطى في أوروبا أصدق تعبير في ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب . وليس أدل على ذلك من تسميتها ، فهي حرب و صليب . والحرب ترتبط بالعناصر الجرمانية التي نزلت في غرب أوروبا في أخريات التاريخ القديم ، وقضت على الإمبراطورية الرومانية وأقامت لها على أنقاضها دولاً وممالك جديدة ذات أنظمة وأوضاع مغايرة لما كان سائداً من قبل ، وهذه العناصر هي في الأصل عناصر محاربة ، وقد وجدت في

الحركة الصليبية متنفساً لها لإشباع رغبتها القديمة الدفينة ، ولإظهار مقدرتها في فنون القتال في وقت أصبحت فيه الحرب هي صناعة الفارس الأولى .

هذا عن الحرب ، أما الدين - وهو الذى يهمنى هنا - فيرتبط بالمسيحية وكنيستها التى أصبح لها مع الزمن سلطة واسعة ، وغدت من ألصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة فى ذلك الحين . إذ هيمنت على مصائرهم ومقدراتهم ، لها الأمر والنهى ، وعلى الجميع السمع والطاعة . وليس أدل على ذلك من قول مؤرخ عاصر بداية الحركة الصليبية ، هو

روبرت الراهب ، ومن أنها من عمل الله وليس من عمل الإنسان . بينما رددى هذا القول وأكده أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، هو الكونت بول ريان ، عندما ذكر أنها حروب دينية خالصة ، وان دوافعها وأهدافها دينية بحتة ، وان هدفها الأول والأخير هو تحرير قبر المسيح وتخليص بيت المقدس من قبضة المسلمين .

وليس مستغرباً فى مثل هذا العصر السحيق عندما كان الغرب يشكل وحدة واحدة فى مجموعة على رأسه الجهاز الكنسى البابوى يمسك بزمام الأمور بيد من حديد ، وقد نمت وازدادت سلطته نتيجة ظروف عديدة متشابهة معقدة ، بينما لم تكن القوميات قد ظهرت بعد - ليس مستغرباً أن يمسك هذا الجهاز بزمام الحركة الصليبية بعد أن أمسك بزمام الحرب المسيحية الغربية المقدسة ضد المسلمين فى الجنوب الإيبانى .

فقد عرف هذا العصر فى الغرب باسم " عصر الإيمان " وبلغ من أشرف البابوية على الحركة الصليبية أنها هى التى أعلنت قيامها ، وهى التى دعت إليها وباركتها وشجعت المقاتلين على الاشتراك فيها . وهى التى

منحتهم مختلف الامتيازات والإعفاءات الروحية والمادية أغراء لهم وترغيباً ،
وهي التي كان لها مندوب بابوي يمثلها في كل حملة من الحملات الصليبية
ومع كل ما تقدم يجب أن نعرف أن العامل الديني وحده لم يكن
ليكفي لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية تركت آثارها على مجريات
الأحداث وقتها ولقرون عديدة تالية . لقد استغله الجهاز الكنسي البابوي
بهدف إثارة الحماسة الدينية لدى أهل الغرب تحقيقاً لأغراض عديدة من
بينها سعى الكنيسة الغربية الكاثوليكية لبطس نفوذها الديني على العالم
المسيحي المعروف وقتها بأجمعه وكذلك القضاء على النفوذ الإسلامي في
الأراضي المقدسة والتخلص من كبار رجال الإقطاع في الغرب الذين كانوا
مصدر متاعب ومضايقات بالنسبة لها في وقت كانت تسعى فيه لفرض
سلطانها الديني والدينيوي على الغرب الأوروبي بأكمله ، ويكفي لتعزيز ذلك
والتدليل عليه أنه عندما انغمست البابوية في الصراع العلماني ضد الأباطرة
والملوك في الغرب قل حماسها للحرب الصليبية ضد المسلمين ، بينما دعت
إلى حملات صليبية من نوع آخر لاستئصال شأفة آل هونشتاوفن الألمان
الذين سعوا إلى سلبها نفوذها وسلطانها في الغرب مثال ذلك حملاتها
الصليبية ضد الإمبراطور فريديريك الثاني وابنه كونراد الرابع .

لقد كشف عن ذلك عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين واضعين
النقاط فوق الحروف من هؤلاء رينيه جروسيه ولويس هالفن الفرنسيان
وجورج تريفيليان وبرنارد لويس الإنجليزيان ، ويكفي هنا اقتباسي ما قاله
برنارد لويس بهذا الخصوص يقو في كتابه " العرب في التاريخ " إن الحروب
الصليبية كانت أول محاولة مبكرة في التوسع الاستعماري للغرب الأوروبي
تحركها اعتبارا مادية ودينيوية ويغلفها الدين كعامل نفساني " وهذا القول
غنى عن أي تعليق .

كل هذه الظروف والعوامل مجتمعة متكاتفه أدت إلى إقبال الناس في الغرب الأوروبي من مختلف الأجناس ومن مختلف الفئات والطوائف والطبقات على الاشتراك في الحركة الصليبية عندما دعا إليها البابا أربان الثاني في مؤتمر كليرمون في ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وعندما صاح أولئك الذين سمعوا خطبته صيحتهم المشهورة " هذه هي إرادة الله " . (٥)

ثانياً : الباعث الاقتصادي :

كانت الحروب الصليبية إحدى مظاهر الاستعمار عن طريق التوسع وامتلاك البلاد الإسلامية في المشرق والسيطرة الاقتصادية على أسواق المشرق في العصور الوسطى ، ومما يفسر لنا ذلك الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي عاشها أهل الغرب المسيحي وقتذاك وخاصة بعد أن أصيبت أوروبا بالطاعون الذي انتشر سنة ١٠٩٤ م ، ثم المجاعة التي حدثت في العام التالي سنة ١٠٩٥ م .

وهنا نلاحظ أن سوء الأحوال الاقتصادية التي نكب بها غربي أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي قد دفعت الأهالي إلى الاشتراك في الحروب الصليبية فقد خلت غالبية الأراضي من الزراعة وتعرضت القرى للنهب والسلب على أيدي قطاع الطرق وحلت الكوارث الطبيعية وانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة لدرجة أن الموت كان يتحرك بسرعة في كل اتجاه من سنة ١٠٨٩م وحدثت الفيضانات التي تلتها المجاعات ومن ذلك الفيضانات التي نكبت بها فرنسا سنة ١٠٩٤م والتي اجتاحت كثيراً من نواحيها وأهلكت الزرع والمحاصيل ، وفي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٧٠ و ١١٠٠ م لن تقل سنوات المجاعة بفرنسا عن ستين مجاعة ، أما عن الفلاحين في الغرب الأوروبي فقد عاشوا في القرن الحادي عشر في وضع يتسم بالذل والهوان

ويتضح ما عاناه الفلاحون من ظروف مادية قاسية لا تكفل لهم الحد الأدنى من الراحة ولا توفر احتياجاتهم الفعلية في أنهم عاشوا في أكواخ حقيرة مسقوفة بالقش مؤثثة تأثيثاً هزياً وتتخللها فتحة في السقف لتسمح بخروج الدخان من النار المشتعلة ، وكانت ملابس الفلاحين مصنوعة من جلود الماشية وصوف الأغنام والكتان الخشن ويكفى ما ذكره أحد الأخلاقيين في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من أن الفلاح لم يشرب قط نبيذاً من عنبه ولم يتناول فضلة صغيرة من طعام طيب وغاية سعادته لو أمكنه الحفاظ على خبره الأود وبعضاً من الزيت والجبن ، وكانت القرية مجتمعاً مغلقاً على نفسه فهي الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية حيث يقوم بتأدية شعائر الدين قس يغلب عليه الجهل واشتهرت القرية بالميل إلى الخرافات والأساطير .

وقد ترتب على وضع الفلاحين الاجتماعى التزامات ثقيلة تجاه سيدهم الإقطاعى فكان عليهم الاشتغال فى ضيعة السيد الإقطاعى فيزرعونها ويحراثونها ويبيذرونها ويحصدون محاصيلها ويضعونها فى مخازن السيد الإقطاعى دون حصولهم على أجر وهناك أنواع من الاحتكارات خضع لها الفلاحون منها أنهم كانوا لا يقومون بطحن غلالهم إلا فى طاحونة السيد الإقطاعى ولا يخبزون إلا فى فرنه ولا يعصرون كرومهم إلا فى معصرته ولا يسمح لهم بتربية الحمام ، فى حين يسمح لحمام السيد الإقطاعى بالتقاط محاصيلهم ، فضلاً عن هذا التزم الفلاحون بدفع ضريبة سنوية لسيدهم ونسبة من محاصيل أراضيهم الزراعية ، ولهذا كله وجد النبؤساء من الفلاحين فرصتهم الثمينة فى الفرار من الجوع والأوبئة عندما أعلنت البابوية الدعوة إلى الحروب الصليبية وترك عشرات الآلاف منهم أراضيهم هرباً من الأعباء الثقيلة التى فرضت عليهم وانخرطوا فى سلك الحملة الصليبية الأولى ، وعلى أية حال فقد جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام جموع

المعدمين من الأقتان والعبيد باباً جديداً للهجرة ومنفذاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية السيئة التي عاشوها داخل أوطانهم في الغرب الأوروبي .

وتتضح أهمية الدافع الاقتصادي في تحريك الحروب الصليبية في الدور الذي لعبته المدن التجارية الإيطالية - جنوة والبندقية وبيزا وأمالفي - فلم تكن تلك المدن مدفوعة إلى تقديم مساعدتها للصليبيين بوازع ديني وإنما جرياً وراء مصالحها التجارية ذلك أن الطرق التجارية التي كانت تمر من خلالها سلع الشرق الثمينة كانت تنتهي إلى القسطنطينية أو إلى الموانئ الساحلية ببلاد الشام الواقعة تحت نفوذ المسلمين . غير أنه في القرن الحادي عشر وجدت المدن الإيطالية صعوبة في نقل سلعها ومتاجرها في القسطنطينية بسبب المتاعب التي كانت تخلفها السلطات هناك . (٦)

ثالث : الباعث السياسي :

في القرن الحادي عشر الميلادي برزت قوة جديدة في الشرق حجت إلى حد ما عناصر الضعف والتفكك في الجبهة الإسلامية الممثلة آنذاك في ثلاث قوى متنافرة هي : الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في مصر والمغرب وما حولها ، والخلافة الأموية في الأندلس يضعفها الانقسام السياسي والانقسام الديني بين السنة والشيعة .

وكان ظهور الأتراك السلاجقة في تلك الفترة فاتحة عهد جديد في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي إذ أحرز السلطان ألب أرسلان النصر في مانزيكرت (٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) *Manzikert* بالقرب من بحيرة وان شرقي آسيا الصغرى وشمال شرقي العراق ، وفيها أسر السلاجقة المسلمون الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع . وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول خطيرة في التاريخ بين الشرق والغرب إذا أنها بالإضافة إلى أنها أخذت تبعث روحاً بطولية جديدة في العالم الإسلامي

فإنها أيضاً أدت إلى انكماش الدولة البيزنطية ، وكان ذلك أيضاً دليلاً على نهاية الدور الذي كانت تقوم به الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط المسلمين وحراسة المدخل الشرقي لأوروبا من غزواتهم .

إزاء هذا الخطر الملح أخذت الدولة البيزنطية تواصل استنجاها بالغرب المسيحي وبذلك أصبح الغرب الأوروبي ملزماً بأن يقوم بدوره في هذا المضمار وهكذا وجدت البابوية الفرصة سانحة لتحقيق أطماعها في بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية في القسطنطينية بحيث تصبح كنيسة روما هي الكنيسة العالمية صاحبة النفوذ الفعلي في العالم الغربي المسيحي بالإضافة إلى أن البابوية وجدت في هذه الحروب الطريق إلى الاستيلاء على بيت المقدس وتحقيق أطماعها الشخصية في إقامة مملكة صليبية في بيت المقدس تكون رئاستها للبابا أو أحد كبار رجال كنيسته .

ورب متسائل لماذا لم يجرؤ البابا والغرب إلى المسارعة لنجدة الدولة البيزنطية بعد مانزيكرت سنة ١٠٧١ م مباشرة وإنما جاءت هذه النجدة بعد ربع قرن من الزمان سنة ١٠٩٥ م ؟

والإجابة عن ذلك نقول أنه عندما كانت دولة السلاجقة مرهوبة الجانب قوية النفوذ لم يجرؤ الغرب الأوروبي على التفكير في مهاجمة المسلمين ولكن عندما ضعفت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وانقسمت الدولة بين خلفائه جرؤ الغرب وعلى رأسه البابا والكنيسة في الجهر بعداوتهم للدولة الإسلامية وفكروا في تنفيذ حروبهم الصليبية التي بدؤوها في أسبانيا .

ولكن إذا كانت الفاقة والجرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة في

الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل فما الدافع الذي دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة في تلك الحركة ؟

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية مثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفليب أوغسطس وفردريك الثاني فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لمحاربة المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها بل تهديدها ، وربما كان هذا الحكم بعيداً عن الصحة في حالة واحدة هي حالة لويس التاسع ملك فرنسا الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى أنه لقب بالقدّيس والذي أراد أن يعبر عن حماسه الدينية تعبيراً عملياً بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعالة ، أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوروبا وتاريخ الحركة الصليبية نفسها يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوروبى في تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكاً من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمراً أو يرد لها طلباً وغلا تعرض للحرمان والطرّد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرضه أو بولاء شعبه وأبرز مثل لدينا الإمبراطور فردريك الثاني الذى أخذ البابوات واحداً بعد آخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين ، ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ، وعندئذ خرج الإمبراطور - مكرهاً لا بظلاً - على رأس فئة قليلة من رجاله قاصداً الشام وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وأنه ما له غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيه والمعروف أن النظام الإقطاع ارتبط دائماً بالأرض ويقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع ، وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هي عدم وجود إقطاع أو أرض له مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبناءه ، ومن الواضح أن هذا المبدأ يعني بقاء بقية الأبناء بدون أرض وه وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوروبا فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب ، حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم في بلادهم الأصلية وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيراً ما دبت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي ، وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى

أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام إنطاكية من أجل رغبة كل منهم فى الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً فى الطريق قنع بذلك الكسب وتخلّى من مواصلة المسيرة ومشاركة إخوانه فى الزحف على بيت المقدس وهو الهدف الأساسى للحملة ، كذلك سئرى أن الصليبيين بعد أن استقروا فى بلاد الشام كثيراً ما دب لخلاف فيما بينهم وبين بعض حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة ، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام بأن المسلمين يحيطون بهم وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ولم يكن يهتمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه ، بل أن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سئرى - عن مخالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الدينى كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية .

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثير من فرسان الغرب الأوروبى على المشاركة فى الحركة الصليبية ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب ، وعندما كثرت الحروب الإقطاعية وهددت المجتمع الغربى تهديداً خطيراً تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم " هدنة الله " وهى أوقات معلومة يحرم فيها القتال ، وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم فابتكروا المبارزة ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء ، لذلك لم يقتنع

الفرسان بتلك الوسيلة حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية فضلاً عما فى المشاركة فى تلك الحركة الجديدة من سعى مشكور وذنب مغفور . (٧)

رابعاً : نظرة الغرب إلى الشرق والاتصال الروحى بينهما :

إذا كانت الأحوال التى سادت العالم الأوروبى فى جبهتيه الشرقية والغربية منذ القرن السابع الميلادى حق قيام الحركة الصليبية فى أخرى القرن الحادى عشر تلقى الضوء على الظروف التى مهدت لقيام هذه الحركة فلاشك أن هناك عوامل أخرى متفاوتة التأثير أسهمت بدورها فى إخراج هذه الفكرة إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة ، ومن هذه العوامل الرئيسية نظرة الغرب إلى الشرق منذ القدم ، وقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون طويلة .

لقد كان الشرق منذ أقدم العصور محور العلم والمعرفة ومهبط الوحى والأديان ومركز الحضارة والإشعاع الثقافى وازداد الشرق رفعة ومكانة لدى الغرب عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة عام ٤٧٦ م واجتياح البرابرة لدول غرب أوروبا وقضائهم عليها وعلى معالم الحضارة والمدنية الرومانية الزاهرة بل وعلى جهاز العمل الرومانى العتيق فى القانون والسياسة والاقتصاد والدين والفكر مما أوجد حالة من الفوضى والدمار عانى منها الغرب الأمرين ، هذا بينما لم يصب الشرق من غزوات أولئك البرابرة إلا القليل ففى الوقت الذى تضاءلت فيه معالم الحضارة والمدنية فى أوروبا وفى الوقت الذى تدهورت فيه الصناعة والزراعة والتجارة وفى الوقت الذى عمر فيه البؤس والفقر والجهل ، وفى الوقت الذى انتشرت فيه الأمراض والأوبئة والطواعين فى هذا الوقت بالذات ازدهرت المدنية فى الشرق

وظهرت على مسرح الأحداث مدن لها مكانتها مثل الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس وفي الشرق قامت الرهبة والديرية التي أخذها عنها الغرب وفيه عقدت المجامع المسكونية الكبيرة المعروفة في تاريخ العصور الوسطى ، وفيه أيضاً نشأ الفن المسيحي الأول ، وفيه نشأت الجامعات العلمية التي اقتبسها عنه الغرب ، وفيه ظهرت المسيحية التي انتقلت إلى الغرب كل هذا يدل على مدى التقدم الفكري والثقافي الذي وصل إليه الشرق في وقت كان فيه الغرب الأوروبي يعاني الأمرين من عوامل التدهور والانحلال التي حلت به عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط .

فلا عجب إذا اهتم أهل الغرب بالشرق ذلك الاهتمام الواضح الذي يرجع إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية نفسها بقرون عديدة ، ولا عجب أن يجد أهل الغرب في الرشق العزاء والسلوى بعد أن أنهكتهم وهدت كيانهم الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أتت على الدولة الرومانية القديمة وعلى نظمها وحضارتها لذلك وجد الغرب المتعب المنهوك القوى في الرشق بفلسفاته ولا هوياته وأديانه العزاء والسلوى في عصر تغير وانتقال ، كان كل شئ فيه في تغير تدريجي مستمر ولم يكن هناك شئ ثابت على حاله .

كذلك كان يحج إلى الشرق كثير من الأوروبيين وكانوا يجدون لذة فائقة ومتعة كبيرة في سبيل ذلك على الرغم من الصعاب والمخاطر التي كانت تواجههم في الطريق بسبب بعد الشقة وصعوبة المواصلات في وقت كانت فيه المواصلات بطيئة محفوفة بالمخاطر ، وكان مسيحيو الغرب الأوروبي يتهافتون لسماع أخبار الشرق من الرواة والحجاج العائدين الذين كانوا يروون لهم القصص المثيرة والأخبار التي لا تخلو من المبالغة والتهويل والتي هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية .

هذا ومن بين الأمور التي نيهت الغرب إلى الشرق وجود جالية من التجار الغربيين في الشرق ، فضلاً عن وجود جاليات وفيرة العدد من التجار الشرقيين في أوروبا نفسها وكانوا يطلقون عليهم في أوروبا اسم السوريين سواء أكانوا من سورية أو من غيرها من مدن الشرق ، وقد احتكر أفراد هذه الجاليات التجارة بين الشرق والغرب وأمكنهم بفضل نفوذهم وثرائهم من الوصول إلى أرفع المناصب ومنها كرسى البابوية نفسه ، وأصبح بعضهم أساقفة لمدن كبيرة في أوروبا ولم تكن تجارتهم قاصرة على استيراد وتصدير السلع والبضائع بل أنهم جلبوا معهم إلى الغرب نظم الرهينة والديرية وبعض المعارف والعلوم والآداب والفنون ، وكانت كل هذه الأمور أول معرفة الغرب بها فزادتهم تشوقاً للشرق وتلهفاً لزيارته وسماع أخباره والحج إليه .

فلا غرو إذا أن يصادف الشرق هوى في نفوس الغربيين لكل هذه المغريات التي يقدمها لهم في وقت كانوا هم فيه في أمس الحاجة إلى ما يخفف عنهم عبء الحياة في الغرب وإلى ما يزيح عن كواهلهم حالة القلق والاضطراب التي كانوا يعانونها ولاشك أن هذا العامل النفساني كان له أثره غير المباشر إلى جانب العوامل الأخرى في تهيئة الجو لقيام الحروب الصليبية . (٨)

خامساً : أحوال أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية :

كانت أوروبا حتى القرن الحادى عشر الميلاد لا تزال مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسى ، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية مختلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطى والعالم العربى الإسلامى فقد وصلت كل من الحضارة البيزنطية والحضارة العربية الإسلامية إلى قمته ، وبدأت بيزنطة منذ القرن الحادى عشر الميلادى تعاني مظاهر التآكل البطئ والضعف الناجم عن الصراع الداخلى والهزيمة الخارجية الفادحة على

يد المسلمين في مانزكريت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١م ، أما العالم العربي الإسلامي فكان يعاني التشردم والضعف السياسي على الرغم من أنه لا يزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية والبشرية وثرواته الأسطورية وعلى الرغم من أن الزمان كان لا يزال يحتفظ له ببعض من اعظم إنجازات العسكرية والفكرية .

وقد كان القرن الحادى عشر الميلاد بالنسبة للغرب الأوروبى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع فى تاريخ العصور الوسطى ، وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التى أخذت تتشكل منذ القرن السادس الميلادى قد رسخت بحيث كانت الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين الأوروبيين المتخصصين فى دراسة تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم " العصور الوسطى الناضجة " أو العالية *The High Middle Ages* .

لقد شهد القرن الحادى عشر الميلادى من وجهة نظر الغرب قادة كباراً وزعماء بارزين مثل : وليم الفاتح ملك إنجلترا ، والإمبراطور هنرى الثالث وابنه هنرى الرابع ، وروجر الأول النورمانى حاكم صقلية ، وروبروت جويسكارد الذى كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى ، والفونسو السادس ملك قشتالة ، وقد كان أولئك جميعاً من الحكام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والنظام والكفاءة يمثلون الغدر والطموح والعصب من وجهة النظر الشرقية ، كما عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى معظم البابوات الإصلاحيين وأبرزهم جريجورى السابع (الشيطان المقدس) الذى رغب فى تحقيق سمو البابوى ، وكان خليفته أربان الثانى صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية ، وكانت الكنيسة قد مرت بأهم عملية إصلاحية تحت زعامة أولئك الذين تربوا فى الأديرة الكلونية ، أما الفلاحين

المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات ويزرعون أرضها بالمحاصيل التي تحتاجها أوروبا وبحارة جنوه وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوروبا فلايد من أنهم كانوا مدفوعين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التي ميزت حركة التاريخ الأوروبي في القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن ناحية أخرى كانت ثمة تغيرات اجتماعية وتكنولوجية تجرى فى تلك الفترة ولا شئ يكشف عن تأثير هذه التغيرات فى غرب أوروبا أفضل من أن نلاحظ أن الناس كانوا يبحثون لأنفسهم عن حياة أفضل ، فقد أخذ الناس يسافرون إلى مناطق الحدود وما وراء البحار بحثاً عن فرص أحسن وأملاً فى تحقيق طموحاتهم ، وباختصار كان التوسع والتنظيم أهم سمات القرن الحادى عشر الميلادى ، لقد أخت أوروبا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة ، فأخذت تسعى إيجاد منافذ خارجية لها ، وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى شمل جبهها عديدة كما بدأت أوروبا تفيد من عقول أبنائها فى التنظيم وكان لا يزال بدائياً وق كانت الحملات الصليبية جزءاً من التوسع الأوروبي ولمن يكن ممكناً القيام بهذه الحملات دون وجود المقدره على تنظيمها .

كان الطابع الريفى هو الغالب على أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد توزع سكان أوروبا بين نموذجين رئيسيين للاستقرار " البلدة Hamlet " التى كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب مساحة الأرض التى يتولون زراعتها ، وقد خلت هذه البلدة من أى كنيسة وفى اسكتلندة ، وويلز ، وأيرلندة ، وبريتانى ، وأقاليم فرنسا الجبلية كان نمط البلدة هو السائد . أما بقية مناطق أوروبا فقد كانت القرية تمثل النمط السائد فيها لمراكز الاستقرار السكانى وفى القرية عادة ما كانت توجد كنيسة ، وبيت صاحب الإقطاع ، أو قلعتة ثم بيوت الفلاحين التى

بُنيت من الطين وأغصان الأشجار وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعى ، ثم منطقة البرارى والغابات وعلى حواف الحقول التى تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكى يزرعوا محصولاً أو اثنين فى الأرض التى خصبها الرماد الناتج عن الحرق .

وعلى الرغم من أننا نعرف بعض المعلومات عن تحسن الزراعة وأساليبها فى القرن الحادى عشر الميلادى إلا أننا لا نعرف إلى أى مدى تحسنت وسائل الزراعة على وجه الدقة ، لقد كان اختراع الطواحين الهوائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال كما أن عمليات إزالة الغابات واستصلاح الأرض كانت تجرى فى كل مكان فى غرب أوروبا وكانت الأخشاب الناتجة من قطع الأشجار تستخدم فى بناء المساكن والقلاع والكنائس فى مناطق الريف والحضر على حد سواء كما أن الفلاحين غيروا من نظام الزراعة فى شريطين أو ثلاثة بسبب الابتكار الذى غير شكل المحراث الجرمانى القديم الذى كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين أو ثلاثة فتحسن الإنتاج .^(٩)

لقد أدت محاولات استصلاح الأرض على حساب الغابات والمستنقعات إلى زيادة الإنتاج الزراعى وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن اقتصاديات الزراعة فى غرب أوروبا آنذاك إلا أنه يبدو أن القرية كانت قادرة مع قلة إمكانياتها على أن تعول الناس الذين عانوا من قسوة الطبيعة والقانون الإقطاعى على السواء ، ولا ينبغى أن نبالغ فى قيمة عمليات النمو الزراعية لأن التحسن النسبى الذى طرأ على مجال الزراعة فى أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية وإنما أدى إلى زيادة موارد السادة الإقطاعيين المادية والبشرية .

كان الناس في أوروبا العصور الوسطى تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد إذ كانت الأرض المزروعة في القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البراري والغابات والأرض البور وكانت كل هذه المساحات مرتعاً حراً للدببة والذئاب وغيرها ولم يكن غريباً أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى أو تجوس في الحقول المزروعة وفي كوخ حقير كان يعيش القروي حياة أدنى من حيوان الحقل الذي يهتم به ، أما طعامه فكان فقيراً وبسيطاً من إنتاج حقله وملابسه مصنوعة من جلود حيواناته أو من صوف أغنامه ، وكان يومه شاقاً مضمناً يقضيه في أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوى إلى فراشه الحقير في المساء وقد هذه التعب .

ولم يكن الفلاح الأوروبي يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة في أعياد الميلاد ، ثم يحتفظ بالباقي مقدداً ومملحاً ليأكل منه طوال العام ، ولكنه في كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من غائلة المجاعة فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل في ذلك الزمان كان تدهور المحصول المحلي في أي إقليم مؤشراً على حدوث المجاعة .

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولاسيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة ، ومنذ سنة ١٠٨٩ م كان الرعب يملك السكان في تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذي كان يضرب فجأة إحدى القرى أو المدن فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطئ ومن الطبيعي أن يكون رد فعل الناس في إطار رد الفعل الجماهيري المعتاد ، أي التعلق بأهداف الدين أو محاولة التكفير عن الذنوب ، والتجمع حول الزاهدين والنسك بحثاً عن الخلاص ، ولذا راقبت الدعوة التي وجهها

البابا لشن حملة صليبية ضد المسلمين في عيون الفلاحين الفقراء ورأوا فيها نبوءة تعدهم *Prophetae* بالخلاص .

وبالنسبة لمعظم سان الغرب الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت القرية هى الوحدة الأساسية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، وعلى المستوى الدينى أيضاً ، إذا أن التقسيم الإقطاعى فرض نوعاً من الاقتصاد الطبيعى جعل الفلاحين فى كل قرية يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتى فى حدود ما تنتجه القرية وفى أعياد القديسين الذين يبجلهم أهل القرية (وهم تعبير عن عبادة قوى الطبيعة على نحو آخر ، ولم تعترف الكنيسة بأولئك القديسين الريفيين أبداً) كان القروى يجد المتعة والتسلية وكان قساوسة الأبرشيات الريفية يقدمون للسكان الفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية وأفكارهم الضيقة عن العالم ولما كان القسيس الأبرشى أمياً فى أغلب الأحوال فإن لنا أن نتصور طبيعة ما كان يقدمه من خدمات للفلاحين المساكين وما ينتج من هذه الخدمات الجاهلة المقدمة من قسيس جاهل من تعصب وتزمت مقيت . لقد كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفى والإيمان بالخرافات والمعجزات ، وكان سكان كل قرية يعتقدون بأن الينابيع والمجارى المائية والأشجار التى تحيط بقريتهم تضم بعض الأرواح التى يمكنها إتيان المعجزات . (١٠)

سادساً : أحوال الشرق العربى الإسلامى عشية الحروب الصليبية :

عشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسى والتناحر العسكرى مخيماً على العالم العربى ، وفى ظل هذه الظروف نجح الصليبيون فى زرع إمارتهم ومملكتهم ، لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى وتم محو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة فى بلاد الشام واحدة تلو الأخرى فى طيات الموجة الصليبية ،

وكانت إمارة سلاجقة الروم وعاصمتها نيقية أو ضاحيا التشرذم السياسى من جهة والهجوم الصليبي من جهة أخرى ثم تلتها بقية الإمارات ، ولنعرض لهذا بشئ من التفصيل :

ففى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان المسلمون فى المنطقة العربية موزعين فى ولائهم السياسى بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، والإضافة إلى النزاع والتخاصم بين الخلافتين فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبحة بالفقر الذى جعل بلاد الشام - وهى المجال الحيوى الذى تنازعت الخلافتان السيادة عليه - موزعاً بين عدة إمارات صغيرة فقبيل الحملة الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة فى بلاد الشام تقريباً إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربى أو من الأتراك السلاجقة ، وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سبباً فى العداء السياسى والعسكرى الذى سبب تنافر هذه القوى وعدم توحيدها فى مواجهة الغزو الصليبي .

كانت الأحوال السياسية الداخلية فى الخلافة العباسية قد جعلت الخلافة رهينة لدى البويهيين الشيعة ، وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) نجح السلاجقة بزعامة طغرل بك فى القضاء على النفوذ الشيعى فى بغداد بعد قتل البساسيرى الذى أراد أن يحدث انقلاباً سياسياً لصالح الخلافة الفاطمية من داخل عاصمة الخلافة العباسية ، حقيقة أن هذه الواقعة كانت بمثابة الدفعة التى أنعشت الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للأتراك السلاجقة ، ولكن الفاتحين الذين جاءوا منقذين سرعان ما بدأوا يتصرفون باعتبارهم غزاة مثلما يحدث غالباً .

لقد صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسي اسماً ، ولكنها تدين بالخضوع الفعلي لسلطة سلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك ، ألب أرسلان ، ملكشاه) ، ومنذ وقت مبكر اتجه السلاجقة نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين وفي الوقت الذي كانت قوات ألب أرسلان تضرب فلول الجيش البيزنطي بعد أسر الإمبراطور المهزوم رومانوس ديوجينيس في ملاذكرد سنة ١٠٧١م كانت قوات أحد القادة التركمان قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين وهو " أتسز بن أوق " .

وفي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م عين ملكشاه أخاه تاج الدين تتش والياً على الأجزاء التي استولى عليها السلاجقة في بلاد الشام وفوض إليه مهمة الغزو مستقبلاً في هذه المناطق كما عين سليمان بن قتلمش والياً على بلاد الروم (أي آسيا الصغرى) ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى استمرار التوسع السلجوقي في بلاد الشام على حساب الفاطميين والقوى المحلية ، وفي آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين .

وبعد حصار فاشل ضد حلب قاده جيش تتش مع حليفه أمير الموصل " شرف الدولة مسلم العقيلي " استطاع هذا الأخير أن يقتنص المدينة لنفسه من آخر أمرتها أبو الفضائل سابق بن محمود آخر الأمراء المرادسيين الذين ظلوا يحكمون حلب حوال نصف قرن من الزمان ، وهكذا قامت في حلب إمارة قصيرة العمر سنة ١٠٧٩م وقد أورد ابن القلانسي هذا الخبر بصورة مقتضبة للغاية إذ قال في حوادث سنة ٤٧٢ هـ : " ... فيها تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش حلب ... " .^(١)

ومن ناحية أخرى كان الأمير التركماني أتسز قد استولى من الفاطميين على معظم أنحاء فلسطين ، وفي سنة (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م)

كانت دمشق تعاني من تدهور اقتصادي وغلاء فاحش في الأسعار ، ونقص في الأتوات اقترب من حافة المجاعة مما اضطر أهلها إلى تسليم المدينة إلى أتسز بالأمان ، وقد أغرى هذا النصر أتسز بالسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية ولكن أمير الجيوش بدر الجمالي ألحق به هزيمة منكرة " وأفلت هزيماً بنفسه في نفر يسير من أصحابه " ثم وصل دمشق وبعدها جاءت أخبار وصول تتش إلى بلاد الشام وبذلك صارت دمشق إمارة سلجوقية .

ودار الصراع بين سلاجقة الشام بقيادة تتش وسلاجقة الروم بقيادة

سليمان بن قتلش حول السيادة على حلب وانتهى القتال سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م بمصر سليمان وتحول حلب إلى إمارة سلجوقية وكان من النتائج السلبية لمصر سليمان بن قتلش ازدياد حدة التفكك والتشرذم السياسي بين السلاجقة .

ولسنا نقصد أن نتتبع تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكثيرة والمتشابكة المتلاحمة في الفترة السابقة على الحملة الصليبية الأولى لأن هذه الدراسة لا تهتم بهذه الأحداث في حد ذاتها وإنما تهتم بإبراز الحقيقة القائلة أن المنطقة العربية في أخريات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلاد كانت نهياً للمعارك بين الحكام الكثيرين الذين اقتسموا حكم مدنها وأقاليمها بصورة فسيفسائية مريكة .

فالخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور السياسي الداخلي

بعد أن سيطر الوزراء العظام على الخلفاء وحولهم إلى دمي يحركونها كيفما ، وعلى الرغم من محاولاتهم العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا في استرداد نفوذهم الضائع في بلاد الشام وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين الأتراك السلاجقة حماة الخلافة

العباسية الطامحين إلى ضم الشام ومصر تحت رايتهما ، كما كانت هناك منازعات بين السلاجقة والسلاجقة ، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية ... وهكذا .

ف عندما وصل الصليبيون غلأى المنطقة كانت هناك إمارة فى حلب يحكمها رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣ م) الموالى للفاطميين وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة دمشق التى يحكمها دقاق الموالى للخلافة العباسية السنية (١٠٩٥ - ١١٠٤ م) ، أما إمارة شيزر على نهر العاصى قرب حماة فكانت تحت حكم بنى منقذ الذين برز منهم الفارس المؤرخ الشاعر " أسامة بن منقذ " على حين كانت طرابلس تحت حكم بنى عمار الشيعة ، أما بيت المقدس فقد ظلت بأيدى السلاجقة حتى استعادها الفاطميون فى سنة ١٠٩٨ م أثناء وجود الصليبيين فى أنطاكية ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوها بعد مذبحه مروعة ارتكبتها الصليبيون الأوائل بعد أن استولوا على القدس التى كانت هدف رحلتهم ذات الألف ومائتى ميل ، أما مدن الشمال فى آسيا الصغر وأعلى بلاد الشام والتى أخذت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين ثم العكس بطريقة تبادلية وإيقاع سريع فكانت ضحية التخريب والتدهور السكانى .

لقد كانت هذه الكيانات السياسية المتصارعة كلها متورطة تماماً فى الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم لآخر ، ومن ثم مضت قوات الصليبيين كما تمضى السكين فى الزبد وفى طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارة الصغيرة واحدة تلو الأخرى وكان سقوط مدينة نيقية فى أيدى قوات الحصار المشتركة من الصليبيين

والبيزنطيين صدمة ونذير لجميع القوى الإسلامية ولكن الأناثية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة . (١٢)

سابعاً : الحركة الصليبية عدوان استعماري :

يقول الدكتور حوزيف نسيم يوسف في هذا الشأن : أحدث البحوث التاريخية البعيدة عن الميل والهوى أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحركة الصبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الإنسان وأنها كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية وأن غرضها الحقيقي هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب اللاتيني يستخدمونه لتفتين وحدة العالم العربى وكسر شوكتة ضمناً لبقاء نفوذهم فى المنطقة .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين المحدثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبني جنسهم والذين نظروا إلى الحركة الصليبية من وجهة نظر غربية بحتة قد اعترفوا ضمناً أو صراحة بحقيقة اتجاهات تلك الحركة ، ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسى رينيه جورسيه *R. Grousset* الذى قال فى كتابه " خلاصة التاريخ " إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحى فى الشرق العربى ، بينما قال زميله جورج تريفيليان *G. Trevelyn* الإنجليزى فى كتابه " مختصر تاريخ إنجلترا " إن الحركة الصليبية هى حركة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الإقطاعية ضد العرب ، أما الأستاذ برنارد لويس *B. Lewis* فقد أوضح فى كتابه " العرب فى التاريخ " أن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعماري للغرب تحركها اعتبارات مادية دنيوية ويغلفها الدين كعامل

نفسانى . ويتحدث المؤرخ المعروف هنرى وليم كارلس ديفز فى كتابه " أوروبا فى العصور الوسطى " عن الحروب الصليبية تحت عنوان " الاستعمار الأوروبى " ويزيد ديفز الأمر وضوحاً فيقول " وكثيراً ما كان ينتحل الباعث الدينى بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب ، وفى موضع آخر يقول : إنه كلما ازداد اقتراب زعماء الحملة الأولى من الأراضى المقدسة كلما ازداد وضوحاً أن إنقاذهم للكنيسة المقدسة ليس إلا اعتباراً ثانوياً ، ويستمر قاتلاً بأن الشغل الشاغل للحكام اللاتين فى الثمانين سنة التى أعقبت تأسيس المستعمرات الأربعة فى الأرض المقدس هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس . (١٣)

هذه شهادة عدد من الكتاب الغربيين الحديثين عن حقيقة اتجاهات الحركة الصليبية ، ومن حسن الحظ أنه ظهر فى المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة العديد من الكتب والبحوث الجادة الواعية التى تناولت تلك الحركة أو أحد فصولها تناولاً يتسم بالدقة والأمانة العلمية ، فأماطت اللثام عن دوافعها الحقيقية ، يقول الدكتور جمال الدين الشيال : إن الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من حملات إنما تمثل المرحلة الأولى من مراحل الاستعمار الأوروبى لمنطقة الشرق الأدنى العربى ... وهى إنما لبست مسوح الدين واتخذت شارة الصليب لأن العصر كان عصر تزمت دينى . ويعزز هذا رأى قول الدكتور محمد مصطفى زيادة من أن : الحركة الصليبية دلت على اتجاهات توسعية نائية جغرافياً عن فلسطين ... وأن زعماء الصليبيين حتى الأولين منهم لم يكن غرضهم جميعاً خدمة الدين فحسب . وجاء فى مقدمة الدكتور حسن حبشى للترجمة العربية لمذكرات روبرت كلارى عن الحملة الرابعة : أن التاريخ لا يعرف حرباً شنها الغرب الأوروبى تحت ستار الدين ثم كشف القناع عن حقيقة نواياه الاستعمارية

مثل الحرب التي خرجت فيها أوروبا عام ١٢٠٢م بحجة إنقاذ المسيحيين واستخلاص بين المقدس ومحاربة مصر ثم غيرت الحملة اتجاهها منذ البداية وأسفرت عن وجهها فهاجمت إمبراطورية الشرق النصرانية وهي الإمبراطورية البيزنطية . ويزيد فيليب حتى الأمر وضوحاً فيقول في كتاب " تاريخ العرب " : إنه ليس كل الذين حملوا الصليب كانت تدفعهم اعتبارات دينية فكثيرون أمثال بوهيمند كانوا يطمعون في تأسيس إمارات لهم هناك ، كما كان لتجار بيزا والبندقية وجنوة مصالح تجارية يسعون إلى تحقيقها ، فضلاً عن فئات عديدة ممن المغامرين واللصوص والقتلة والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين على القانون وطغام الشعوب وأرقاء الأرض ممن قدوا من مختلف بلدان الغرب مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والأطماع والنهب وأقلها بلا شك العامل الديني .

وهكذا تحت ستار الدين قامت جحافل الصليبيين من أوروبا متجهة صوب الشرق الأدنى العربي وفي سنوات قلائل أحرزت عدة انتصارات سريعة لم تكن تحلم بها في يوم ما فلقد تمكن الصليبيون في الفترة من مايو ١٠٩٧ إلى يونيو ١٠٩٨ من القضاء على سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال الشام ومن تأسيس أول مستعمرتين لهما ونعني بهما إمارة الرها في أعلى الفرات وإمارة إنطاكية في أعلى الشام ، وتم هذا كله في حوالي عام .

ولنا أن نتساءل عن السر في هذا التقدم السريع الذي أحرزه الأوروبيون وهل يرجع إلى صفات خاصة تميزوا بها دون العرب والسلاجقة كالجسارة أو استبسال في القتال حتى الموت والاستشهاد ، يجب عن هذا السؤال المؤرخ شالر أومان *Ch.Oman* في كتابه " فن الحرب والقتال في العصور الوسطى " فيقول : إن القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية

العسكرية كما كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والترتيب والإلمام الكافة بالتكتيكات الحربية السليمة وإنها كانت تتكون من جيوش إقطاعية متفرقة لا تجمع بينها قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء .. ومع ذلك فقد أحرزت انتصارات كبيرة على قوات كانت تفوقها أعداداً وترتيباً وتنظيماً وتدريباً ، وإن الحقيقية التي تكم وراء تلك الانتصارات لهي أعمق من ذلك بكثير فهي ترجع أولاً وقبل كل شئ إلى انقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وقتذاك .

كانت هذه إحدى مراحل الهزيمة التي نزلت بالشرق الأدنى العربي في عصر من عصور الضعف التي مر بها عند بداية العدوان الصليبي وهي استمرار للحالة التي كان عليها اعتباراً من القرن العاشر وقد ترتبت عليها أسوأ العواقب وأوخمها ، فقد كان الخلاف مستحكماً بين ملوك العربي وأمرائهم ، ففي مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية في بغداد ، وقد دب في كيانهما الانحلال والهزال فالضعف باد والانقسام بينهما سياسى ودينى والتناحر على أشده . وهكذا كان كلا الفريقين آخذاً في التدهور بينما القبائل التركمانية ومن بينها السلاجقة تختطف من أملاك الفاطميين والعباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الأقاليم كما حدث مثلاً عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين وحتى سلطنة السلاجقة كانت هي الأخرى قد انقسمت إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث في أنطاكية و حلب ودمشق ويؤكد هذا الوضع أحد المؤرخين العرب ممن عاصروا بدايات العدوان الصليبي وكتبوا عنها وهو ابن القلانسي إذ ذكر أنه لو كان صاحباً حلب ودمشق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ولحلاً بينه وبين التوغل في آسيا الصغرى وسورية الشمالية ، ولكنها بالرغم من الخطر الداهم الذي كان يهددها وبدلاً من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك لم يبذلا مجهوداً إيجابياً سبيل وقف تقدمه في الشرق العربي . (١٤)

هوامش الفصل الثانى أسباب دوافع الحروب الصليبية

- (١) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ٥٧ .
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧-٣٠ .

وانظر أيضاً :

سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٩ ،
١٩٤ .

توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص ٣١ ؟

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٠ - ٣٣

سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٦٣

(٤) محمود الحويرى : بناء الجبهة الإسلامية ودورها فى التصدى
للصليبيين ، ص ٣٢ - ٣٣

هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى
، ج ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، مراجعة د. عز الدين فردة ،
القاهرة : (١٩٨٥) ، ص ١٤٥ .

بارك (إرنست) : الحروب الصليبية ، ص ١٤ ، ١٥

(٥) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى
العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ١٩٨٦) ، ص ١٨٨ - ١٩٠

- ٦) محمود الحويرى بناء الجبهة الإسلامية ، ص ٣٠ - ٣٢
- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٥
- ٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٩ ،
سعيد عاشور : اوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ،
٢٨١
- ٨) جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .
- ٩) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ٥٨ - ٦١

- كانتور : التاريخ الوسيط ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ج ٢ ، ص ٣٢٨
- ١٠) قاسم عبد قاسم : ماهية والحروب الصليبية ، ص ٦١ -
قاسم عبده قاسم : الحروب الصليبية - نصوص
ووثائق ، ص ٦٨ - ٧٠
- ١١) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص .
سعيد عبد الفتاح عاشور : العلاقات بين الشرق
والغرب فى العصور الوسطى ، (بيروت ، ١٩٧٢) ، ص ٥٨ -
٥٩

- ١٢) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة
العربية ، (الإسكندرية ، ١٩٨٨) ، ص ٨ - ١٠ .
- جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتينيين فى الحملة
الصليبية الأولى الصليبية الأولى ، (الإسكندرية ، ١٩٦٣)

===== العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى =====

ديفنز (هـ. و. ك) : أوروبا فى العصور الوسطى ،
ترجمة : عبد الحميد وحمدى محمود ، (الإسكندرية ، ١٩٥٨) ،
ص ١٧٨ .

(١٣) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة
العربية ، ص ١٠ -

محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على
مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص ٤ - ٥
كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة :
د. حسن حبش ، (القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٥

جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة
الصليبية ، ص ١٨٨ - ١٩٥

عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب
فى العصور الوسطى ، (بيروت ، ١٩٦٦) ،
ص ١٥٢ .

تدريبات على الفصل الأول



السؤال الأول : اكتب مذكرات تاريخية مختصرة من

(أ) الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية.

(أ) الأوضاع الدينية في غرب أوروبا عشية الحروب الصليبية

السؤال الثالث: قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر

علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة

وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة

١- - انتشر مرض الطاعون في غرب أوروبا عام ١٠٩٤ م .

٢- كانت مصر تحت حكم السلاجقة قبيل الحروب الصليبية

٣- تعرضت الدولة السلجوقية لحالة من الإنقسام والتدهور عام

١٠٩٢ م.

الفصل الثالث

النشاط الصليبي

في القرن الثاني عشر الميلادي

الحملة الصليبية الأولى والثانية والثالثة

أهداف الفصل الثالث

يهدف هذا الفصل إلى

١- التعرف بالأسباب المباشرة للحملة الصليبية الأولى والدعوة إليها وقادة الحملة وأبرز نتائجها.

٢- التعرف على أحداث الحملة الصليبية عام ١١٠١م

٣- التعرف على أحداث الحملة الصليبية الثانية ودور البابوية ونتيجة الحملة

٤- التعرف على أسباب الحملة الصليبية الثالثة وقادة الحملة وأحداث ونتائج.

٥- التعرف على :

٦- الإمارات الصليبية التي تمكن الصليبيون من تأسيسها في بلاد الشام بعد

تحولت آسيا الصغرى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى إلى دول سلجوقية إقليمية صغيرة ، وعلى رأس كل منها حاكم يتبع السلطان السلجوقى الأعظم فى بغداد . هذا بالإضافة إلى سلطنة سلاجقة الروم التى كانت لا تزال مستمرة فى فتوحاتها فى آسيا الصغرى على حساب بيزنطة . ولقد حاول الإمبراطور ألكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨) وقف زحفهم دون جدوى .

وباتت عاصمته معرضه لخطر الهجوم عليها بين حين وآخر . لذلك لم ير ألكسيوس كومنين بدأً من اللجوء إلى البابوية فى روما للاستجداء بها ضد السلاجقة ، والعمل على وقف زحفهم ، مثلما فعل سلفه الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨) ، فبعث رسله إلى البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) وإلى ملوك وحكام أوربا يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم فى الشرق ، وحماية القسطنطينية من الخطر السلجوقى ، وكان من الطبيعى أن يستجيب البابا وملوك وحكام الغرب الأوربى لنداء الإمبراطور، وذلك لتحقيق أطماعهم فى كل من الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية .

ولا شك أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، قد تضافت جميعا وتحكمت فى توجيه الحملات الصليبية إلى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى . كما لعبت البابوية دوراً رئيسياً فى قيام الحروب الصليبية ، فهى التى دعت إليها وتبنتها ووجهت مسارها بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين فى الشرق .

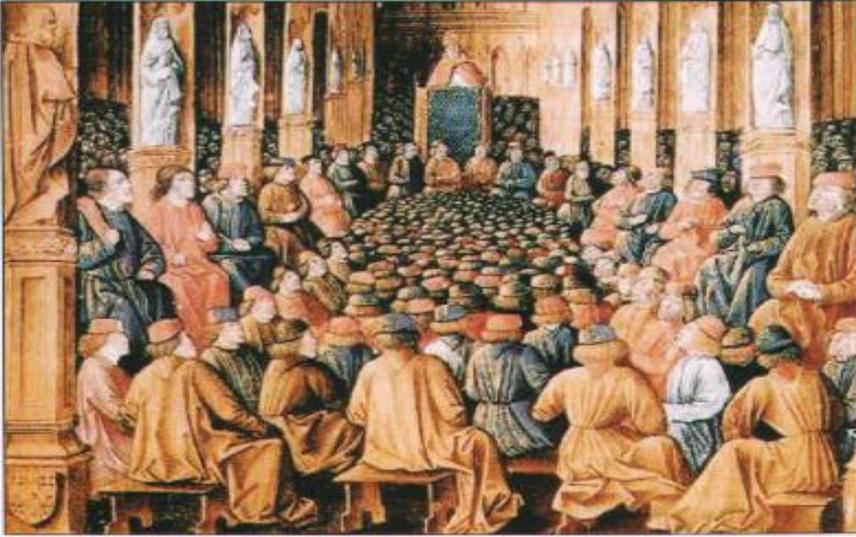
الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧-١٠٩٩ م)

بدأت سلسلة الأحداث التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية بعقد مجمع بياكنزا (بياتشنزا *Piaccenza*) برئاسة البابا أوربان الثاني الفرنسي الاصل وحضرته سفارة من قبل الامبراطور البيزنطي لطلب العون من البابا ضد السلاجقة ، ولقد رحب البابا بمعاونة الإمبراطورية ، وبعد أن أنهى مجمع بياكنزا أعماله قضى البابا فصل الربيع في ايطاليا ثم انتقل الى فرنسا لعقد مجمع كلير مونت *Clermont* الذي استمر من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ . وبعد مناقشة الامور الكنسية ألقى البابا خطابه التاريخي الذي دعا فيه الى الحرب المقدسة ضد المسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم . ووجدت كلمات البابا قبولا وحماسة عند الحاضرين إذ هتف جمهور الحاضرين بعبارة " ولتكن مشيئة الله " (*Deus Le Volt*) (*it is God's will*) التي تردد صداها في أوربا الغربية من ادناها الى اقصاها ، وتقدم الألوف من سامعية حاملين الصلبان واتخذوا صليباً من قماش أحمر على اكتفاهم فعرفوا بالصليبيين ، وعرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية وتحدد يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ موعداً لرحيل الصليبيين على أن تلتقى جيوشهم في القسطنطينية^(١).

(١) فوشية الشاريتيري : الوجود الصليبي في الشرق العربي ، الإسطيطان الصليبي في فلسطين ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ، ترجمة ودراسة وتعليق الدكتور / قاسم عبده قاسم (الكويت ١٩٩٣) ، ص ٨٧-٩٤ .

Charles (M.B) & Philip (G) & Anthony (C) : Crusades Vol .1 in the Oxford Dictionary of Byzantium ., p . 558 . ; Chalandon (F) : The Earlier comneni in cam . Med . Hist . vol . IV p . 333 . ; Brooke (Z.N) : History of Europe from 911 to 1198 ., vol . II (London , 1938) , p . 236 . ; Previte : The shorter Cambridge Medieval History ., vol . 1 (Cambridge , 1952) ., p . 520 . ; Hitti (P.K) : History of Syria .,

ولقيت دعوة البابا استجابة واسعة لدى أوروبا وكانت خطة أوربان محكمة تماماً في اختيار القواد وتوجيه الغزاه خاصة بجنود من فرنسا التي كانت تمثل الروح الصليبية ، حيث لعبت الخبرة دوراً في رجال أمثال ريموند دي سانجيل كونت تولوز الذي حارب المسلمين في أسبانيا (١).



وإذا كان البابا قد حدد وقت الرحيل في أغسطس سنة ١٠٩٦ وارتبط الأمراء بهذا الموعد ، إلا أن جماهير الغوغاء والفقراء لم يكن لديهم من الاسباب ما يدعوهم الى الانتظار ، وعلى ذلك فقد انقسمت الحملة

(London , 1957) ., p.590 . ; Hulm (E.M) : *The middle age* ., (New York , 1938) ., p . 472 . ; Eyre : *European Civilization : Its Origin and Development* . by various contributors under the direction of Eyre . vol III (London , 1935) ., p . 192 . ; Mango (Cyril. A) : *Constantinople . City on the Golden Horn* . (New York, 1969) . , p . 107 . ; Grabois (A) : *The Illustrated Ency of Medieval Civilization* (London , 1988) ., p . 248 . ; Matthew (D): *Atlas of Medieval Europe* ., p . 91 . ; Milton (J) & Steinberg (R) : *The cross and the crescent* ., p . 76 .
(2) Parkes (I) : *Hist. Of Palastine from 135.A.D to modern times* (London , 1949) . p 107 .

الصليبية الاولى الى قسمين متباينين عن بعضهما تماماً ، فالقسم الاول أطلق عليه حملة العامة أو الشعبية وكانت على شكل مجموعات مختلفة ، أما الثانية فتسمى الحملة النظامية أو حملة الأمراء وقد قادها أمراء أقطاع .

ويعد أن دعا البابا أوربان الثاني إلى الحروب الصليبية في مجمع كليرمونت أخذ الدعاه يبشرون بتلك الحروب .ومن هؤلاء الدعاه بطرس الناسك الذي اشتهر بحماسة الشديد ، وأحرز نجاحا هائلا في دعوته . وقد أثرت هيئته تأثيرا كبيرا على جموع العامة في غرب أوروبا ، فقد كان قصير القامة ودرج على السير حافي القدمين في ثياب رثة ، لم يتناول في طعامه الخبز أو اللحم بل جعل غذاءه السمك ، وصار ينتقل من مكان إلى آخر على حماره الأعرج داعيا إلى الاشتراك في الحروب الصليبية . وبدأ رحلته من برى *Berry* ، وفي فبراير ومارس سنة ١٠٩٦ اجتاز أورليانز وشامبني إلى اللورين ومنهما إلى مدن الميز ، وآخن إلى كلن ، وحيث أمضى عيد القيامة وحشد من مريديه من انفذهم الى المناطق التي لم يكن بوسعه أن يزورها ومن هؤلاء المريردين ، والتر المفلس *Walter Sans Avoir* ورينالد لدبريس ، وجفرى يوريل ووالتر برتيل وجوتشالك الالمانيان ، ولم يكذب يبلغ كولونيا حتى بلغ عدد اتباعه ١٥ ألف شخص ، وازداد عدد من انحاز إليه في المانيا^(١).

(3) Runciman (Steven): *A history of the crusades ., vol . 1 pp . 113-114* .

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٧٩-١٨٠ .
Milton (J) & Steinberg (R) : The cross and the crescent . , p .

76 .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٨ . ؛ محمود الحويري : بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ، ص ٣٦-٣٧

وفى ابريل سنة ١٠٩٦ ، أى قبل ثلاثة أو اربعة أشهر من الموعد المحدد الذى حدده أوربان الثانى تم حشد خمسة جيوش من الفقراء ، على أن ثلاثة من هذه الجيوش بقيادة فولشر صاحب أورليان وجوتشالك ووليم النجار على الترتيب ، لم تستطع الوصول إلى القسطنطينية إذ لقي جيشا فولشر وجوتشالك فى يونية ١٠٩٦ الدمار على يد المجرىين جزاء ما ارتكبه الجند من أعمال العنف والتخريب . أما الجيش الثالث فقد أهلك نحو عشرة آلاف من اليهود وذلك بعد أن اشترك فى قتالهم بالبلاد الواقعة بوادى نهر الراين ، وكان ذلك من بوادر النتائج الاولى للحماس الصليبي الذى مالبت ان تبدد فى بلاد المجر (١).

وعلم الإمبراطور البيزنطى أن جيشاً للفرنج اجتاز بلاد المجر ، ونفذ الى الامبراطورية فقام بعمل الترتيبات اللازمة وتوفير ما يحتاجونه من المؤن ، ثم أمر ألكسيوس قواده بالتوجه إلى دورازو وأفالونا وهى الأماكن التى سوف تستقبل الصليبيين . كما أرسل أيضاً المترجمون الذين يجيدون اللاتينية مع القوات الصليبية ، وأوصى قواده وقواته بضرورة وقف هذه القوات الصليبية إذا قامت بالإغاره والنهب والسرقة فى أراضى الامبراطورية حفاظاً على سلامتها وسلامة شعبها (٢).

وكانت حملة والتر المفلس هى أول حملة شعبية قامت فى أوروبا . فلم يرغب هذا الرجل فى انتظار بطرس وجماعته فلم يكد ينتهى عيد القيامة

(١) باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية / السيد الباز العريني (بيروت - الطبعة الثانية) ص ٢٥-٢٦ .

William (B) & Litt (D) : *The first crusade in cam . med . His . vol . v (cambridge , 1979) ., pp . 276-277 .*

محمود الحويري : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(2) Anna comnena : *The Alexiad ., p . 310 .*

حتى غادر والتر على رأس جيش يتكون من حوالى خمسة آلاف شخص من الطبقات المعدمة . وعندما بلغ الحدود المجرية أرسل إلى ملك المجر كولمان يستأذنه فى اجتياز المملكة وتزويدهم بما يحتاجونه من الاقوات ، ولما وصلوا مدينة سملين *Semlin* الواقعة على الحدود المجرية البيزنطية وقعت بينهم وبين المجرين بعض المناوشات البسيطة ثم واصلوا سيرهم بعد ذلك ، فعبروا نهر الساف *Save* ودخلوا أراضى الدولة البيزنطية ومروا بمدن نيش وصوفيا وأدرنة ، وفى يوليو سنة ١٠٩٦ وصلوا إلى مدينة القسطنطينية وكانت أولى الجماعات التى وصلت واستجابت لنداء الحرب المقدسة (١).

وسمح الامبراطور ألكسيوس كومنين لهذه الجموع بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول جموع بطرس الناسك وأمر بإمدادهم باحتياجاتهم المختلفة (٢).

أما بطرس الناسك فقد غادر مدينة كولونيا على رأس جموعه فى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٦ مخترباً ألمانيا والمجر ، وعندما وصلوا إلى مدينة سملن تملكهم الغضب عند رؤيتهم منظر ملابس وأسلحة رجال والتر معلقة على الأسوار ، كما ترمى اليهم ما ذاع من الشائعات عما حل برجال والتر

(3) *Albert d'Aix : Historia Hierosolymitana ., ED R.H.C HOCC . IV (Paris , 1879) ., pp 275-276 . ; William of tyre : A History of deeds done Beyond the sea , Translated and Annotated by Babcock and A.C Krey (New York, 1943) ., vol .1 p. 98 .*

والترجمة العربية وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة د. حسن حبشي (القاهرة

١٩٩١-١٩٩٢-١٩٩٤-١٩٩٥) ج ١ ، ص ١١٢-١١٥

Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 123 .

رنسيمن : المرجع السابق، ج ١ ، ص ١٩١-١٩٢ .

(1) *Albert d'Aix : Historia Hierosolymitana ., ED R.H.C . p . 276 .*

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٩ . ؛ إسحاق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤ . (القاهرة - ١٩٧٠م) ، ص ٨٩ . ؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (الإسكندرية ، ١٩٦٧) ص ١٥٩ .

من المصاعب فأمر بطرس رجاله بالانتقام ومهاجمة المدينة ، ونجحوا في الاستيلاء على قلعتها ووقعت مذبحة راح ضحيتها أربعة آلاف من أهلها . ثم تركوا المدينة خوفاً من انتقام ملك المجر (١) .

مر بطرس الناسك في رحلته على مدينة نيش *Nish* وصوفيا والتقى بسفراء الامبرطور الذين أبلغوه قلق الامبراطور من سوء سلوك جموعه، وطلبوا منه عدم إقامتهم في موضع واحد أكثر من ثلاثة أيام ، ومع ذلك فقد أمر الإمبراطور بتوفير احتياجاتهم ، وعندما وصلت الحملة إلى مدينة فليببوليس *Philippolis* تأثر البيزنطيون عند سماعهم أخبار ما تعرضوا له من المتاعب وقام السكان المحليون بتقديم الكثير من الاموال والخيول (٢) .

وفي ٣٠ يوليو ١٠٩٦ وصل بطرس إلى العاصمة البيزنطية وهناك انضم إليه اللومبارديون (٣) وغيرهم كثيراً ، فأمر الامبرطور بتزويدهم بالمؤن بقدر ما تسمح به طاقة البلد وقال لهم : " لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحي لأنكم لستم بالكثرة التي تمكنكم من محاربة الترك ، فسار الصليبيون أسوأ سيره إذ ضربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران

(2) *Albert d'Aix : op . cit . , p . 276 . ; William of tyre : A History of deeds done Beyond the sea . vol . 1 . p . 104 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١١٥-١١٦ . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(3) *Albert d'Aix : op . cit . , pp . 282-283 . ; William of tyre : op . cit . , vol . 1 p . 105 . ; Runciman : op . cit . , vol . 1 p . 126 .*

رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٦-١٩٧ . ؛ إسحاق عبيد : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٣) اللومبارديون : أحد الشعوب الجرمانية التي عاشت في أحد السواحل الجنوبية لشبة جزيرة اسكنديناوة ، ثم نزحت في القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد إلى منطقة الدانوب ، وفي القرن السادس نزحوا إلى إيطاليا بقيادة زعيمهم ألبوين ، وقد قضى شارلمان علي مملكتهم سنة ٤٧٤ م . انظر :

محمود الحويري : اللومبارديون في التاريخ والحضارة (مصر- ١٩٨٦م) .

وخلعوا الرصاص الذي كانت تغطي به الكنائس وباعوه للإغريق ، وخوفا من تماديهم في تلك الأعمال أمر الامبراطور بنقلهم إلى الساحل الآسيوي عبر البسفور^(١).

وفي ٦ أغسطس تم نقل قوات بطرس عبر البسفور ومن شاطئ البسفور الآسيوي اتخذوا طريقهم دون أن يلتزموا النظام ، فصاروا ينهبون الدور والقصور الواقعة على امتداد شاطئ بحر مرمرة حتى نيقوميديا التي هجرها سكانها بعد أن نهبها الترك منذ خمس عشرة سنة ، ووقع في هذا الموضوع شجار بين الألمان والايطاليين من جهة ، وبين الفرنسيين من جهة أخرى . ثم نصب الصليبيون معسكرهم عند بلدة كيفيتوت Civitot الواقعة على الضفة الجنوبية لخليج نيقوميديا وكانت السفن البيزنطية تتردد عليهم باستمرار محملة بالمؤن^(٢).

غير أن الصليبيين بقيادة بطرس الناسك سرعان ما تناسوا نصائح الإمبراطور ، وبدأ فريق منهم يشنون غاراتهم على القرى المجاورة وأخذ الصليبيون يزحفون على الأرض التي كانت بأيدي الترك والاستيلاء على ماشية وممتلكات السكان دون تمييز عما إذا كانوا من الرعايا البيزنطيين أو

(5) *Gesta Frunctorum et aliorum Hierosolimitanorum : The Deeds of the franks and the other Pilgrims to Jerusalem* edited by Rosalind Hill . (London , 1962 ., pp . 2-3 .

والترجمة العربية : المؤرخ المجهول : " أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس " ترجمة قدم

لها وعلق عليه دكتور حسن حبشي (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٦٠

Runciman : op . cit ., vol . 1 pp . 127-128 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ . جوزيف نسيم : المرجع

السابق ، ص ١٦٠-١٦١ .

(1) *Albert d'Aix : op . cit ., p . 283 . ; William of tyre : op . cit ., vol . 1 p . 106 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٥ . جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

الترك ، ثم توغلو في داخل آسيا الصغرى حتى بلغوا أبواب مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلع أرسلان ، فنهبوا القرى وساقوا ما صادفهم من الماشية والأغنام وقتلوا السكان المسيحيين في وحشية فاقت كل وصف ، وتذكر الأميرة آناكومنين أنهم قطعوا أطراف بعض الأطفال وثبتوا البعض الآخر على ألواح خشبية ثم قاموا بشيهم على النيران ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بكبار السن ، والتحم معهم أهالي نيقية في معركة عنيفة ورجع الصليبيون إلى معسكرهم في كيفيتوت محملين بالغنائم والأسلاب⁽¹⁾.

والواقع أن الصليبيين كان يستوى عندهم المسلمون والمسيحيون الشرقيون ، فقد كان المسيحيون الشرقيون في نظرهم هراطقة لأنهم على غير مذهبهم ، وقد أثار ما أحرزه هذا الفريق من الصليبيين في غاراتهم من غنيمة مثمرة غيرة فريق آخر ، فكان هذا مدعاه لانقسام جماعات بطرس على نفسها ، كل يريد أن يكون له نصيب الأسد من الغنيمة ، وكان من أثر ذلك أن انسحب فريق من الصليبيين ومضوا في سيرهم حتى بلغوا قلعة اكسريجوردوس *Xerigordus* فاستولوا عليها وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة واللحوم وغيرها من المؤن ، واتخذوها مركزا يغيرون منه على الارض الزراعية المجاورة ، ولما علم السلطان السلجوقي قلع ارسلان باستيلائهم على القلعة بعث بقوة كبيرة على رأسها القائد التركي إلخان *El Khanes* تمكنت من استعادة القلعة بعد ان أعمل السيف في رقاب كل من وجده⁽²⁾.

(2) *Anna comnena : The Alexiad ., pp . 311-312 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 pp .128 –130 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٩ . جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(3) *Anna comnena : The Alexiad ., pp . 312-313 . ; Albert d'Aix : op . cit ., p . 288 . ; William of tyre : op . cit ., vol . 1 pp . 108-109 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 130 .

وهنا نلاحظ أن المؤرخ المجهول صاحب كتاب " أعمال الفرنجة " - وهو شاهد عيان - قد أورد معلومات لم ترد عند غيره من مؤرخي الحروب الصليبية عن هذه الواقعة حيث ذكر " أن الترك قاموا بحصار القلعة ومنعوا عنها الماء ، فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم ، وشرب دمائها ، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكنف وعصروها فى أفواههم وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان وحفر بعضهم الاراضى الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم " (١).

ولم يبق خبر هذه النكبة خافيا على من فى كفييتوت الذين راحوا يتدبرون الأمر فيما بينهم، كما أن الترك السلاجقة كانوا يعدون العدة للقضاء على الصليبيين فقاموا بنصب الكمائن فى مواضع مختلفة على طول الطريق من المعسكر الفرنجى فى كفييتوت إلى مدينة نيقية (٢). واشتدت ثائرة الجيش الصليبي وحماسة للمضى للإنتقام فى أكسيريجوردون ، غير أن والتر المفلس حث زملاءه على أن ينتظروا قدوم بطرس الذى توجه إلى القسطنطينية وسوف يعود خلال ثمانية أيام غير أنه لم يعد ، وفى تلك الاثناء شاع أن الترك أخذوا يقتربون بجيوشهم من كفييتوت ، فاجتمع مجلس الحرب وأصدر قراراً بالألا يجرى شىء إلا بعد

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

William (B) & Litt (D) : op . cit . , p . 276 .

قاسم عبده قاسم : " الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية ، (القاهرة - ١٩٨٣) ص ١٦٦ .

(1) Gesta Frunorum . , pp 3-4 . ;

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٢٠ .

(2) Anna comnena : The Alexiad . , p . 312 .

وصول بطرس غير أن جودفري الملقب ببوريل ويسانده الرأي العام في الجيش أصر علي أنه من الجبن والحماقة ألا يزحف الجيش للقاء العدو (١). وفي ٢١ من أكتوبر تحركت من كيفيتوت جموع الصليبيين ، ولم يتركوا خلفهم سوى الشيوخ والنساء والأطفال العزل من السلاح ، وتم تسليح الجيش البالغ عدده خمسة وعشرين ألفاً من المشاه المدججين بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أفضل تجهيز بما عليهم من الزرديات ، وصفوا صفوفهم للقتال وزحفوا في طريق زاخر بالغابات وكانت وجهتهم ناحية نيقية وما كادوا يتقدمون ثلاثة أميال في الغابة حتى كان قد بلغها أيضا قلع أرسلان على رأس جيش ضخم . وعند نهر دراكون *Dracon* نصب الترك كميناً وسار الصليبيون دون أن يلتزموا النظام فانهاled عليهم سيل من السهام فجأة وتلفقتهم الجيوش السلجوقية وأعملت فيهم السيوف بلا رحمة وهزمتهم شر هزيمة ، وتعقبوهم حتى معسكرهم وأعملوا فيهم مذبحة شنيعة (٢).

(3) William of tyre : *op . cit . , vol . 1 pp . 107-108 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٧ . ؛

Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton .

op . cit . , vol . 1 , p . 283 . Runciman : A history of the crusades . , vol . 1 p . 131 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

(1) William of tyre : *op . cit . , vol . 1 pp . 108-109 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

Runciman : A history of the crusades . , vol . 1 pp . 131-132 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

Ostrogorsky : History of the Byzantine state . , p . 321 . ;

Robinson (F) : A short Hist. Of Mediaval peoples . (London – 1912) . , p . 614 . ; William (B) & Litt (D) : op . cit . , p . 276 . ; Loewe (H.M.J) : The Seljuqs in cam. Med. Hist . , vol . IV . p . 315 .

ولم ينج من هذه المذبحة سوى بطرس الناسك وقليل من اتباعه ، ولقد قتل في هذه المعركة بضعة رجال من ذوى المكانة فى معسكر بطرس منهم والتر المفلس ورينيه دى بروس وفولشر دى أورليانز وغيرهم (١) . وعندما علم الامبراطور البيزنطى بما حل بالجموع الصليبية بادر بإرسال قوة كبيرة مسلحة لإنقاذ الصليبيين اتجهت الى كيفيتوت ، وعند وصول تلك القوة رفع الترك الحصار وتمكنت القوة البيزنطية من إنقاذهم وإعادةتهم سالمين إلى ألكسيوس الذى رحب بهم (٢) .

ثم قام الامبراطور الكسيوس بمعاقبة بطرس وأخذ يذكره بعدم التزامه بالنصائح والتعليمات التى بذلها له وذكر له أن الكوارث التى حلت به ويقواته إنما تعود إلى عدم أخذه بنصائحه التى أسداها من قبل ، وأجاب بطرس بأنه ليس السبب فيما حدث ، وأن رفاقه لم يطيعوه وانقادوا وراء شهواتهم متهما إياهم بأنهم لصوص مخربون وغير جديرين بالتعبد عند ضريح المسيح (٣) .

(2) William of tyre : *op . cit . , vol . 1 pp . 108-109 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٨ . ؛ قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(3) Anna comnena : *The Alexiad . , p . 313 . ; Albert d'Aix : op . cit . , p . 289 . William of tyre : op . cit . , vol . 1 pp . 109-110 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٦٣٠ .

Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit . , vol . 1 , p . 284 .

(4) Anna comnena : *The Alexiad . , p . 313 . ; Albert d'Aix : op . cit . , p . 189 .*

ماكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب . ترجمة / مكسيموس مظلوم جزوان (أورشليم - ١٨٦٥م) ج ١ ، ص ٢٨ ، ، وجدير بالذكر أن أنا كومنين مخالفة لجميع المؤرخين حيث تؤكد علي أن بطرس كان موجوداً في المعركة بينما يري باقي المؤرخين أنه كان في القسطنطينية عند حدوث المذبحة والحقيقة

ورغم ما قام به الامبراطور ألكسيوس من انقاذ هذه الحملة ، إلا أننا نجد أن المؤرخ المجهول الذى عاصر الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها يذكر أن الامبراطور عندما بلغه خبر فناء جماعات بطرس الناسك على أيدي التركمان لم يخف فرحة العظيم بذلك ، وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح حتى يأمن شرهم ⁽¹⁾ وعلى الرغم من هذا الاتهام الموجه للامبراطور بأن له اليد الطولى فى هذه المأساة إلا أننا نجد اختلاف الصورة التى رسمها البرت أوف دكس للامبراطور عما قاله المؤرخ المجهول حيث تحدث عن كرمه وحسن معاملته وتقديم النصائح لهم ومبادرته لانقاذ من بقى منهم على قيد الحياه ، وإن كان قد اتفق مع المؤرخ المجهول بأنه أظهر نوعاً من الفرح بما حدث للصليبيين عند نيقية ⁽²⁾.

وجدير بالملاحظة هنا أن المؤرخة أنا كومنين تعتبر أن بطرس وجماعته السبب الرئيسى فى هذه الكارثة لعدم إستماعهم للنصح الذى بذله لهم الامبراطور ، ونلاحظ أيضاً أن مؤرخى هذه الفترة بما فيهم أنا والمؤرخ المجهول والبرت أوف دكس اتفقا جميعاً على عدم سير هذه الجماعات الصليبية فى نظام وسلوكهم المسلك المشين فى آسيا الصغرى واستعجالهم وعدم استماعهم لنصح الامبراطور وعدم تقصير الإمبراطور الكسيوس ، فعندما علم بالمذبحة أرسل سفن وقوات لإنقاذهم .

أنا نميل إلى الأخذ برأى باقي المؤرخين خاصة إذا علمنا أن تاريخ تأليف الكتاب كان بعد حوالي خمسين عاماً من انتهاء الحملة ويبدو أن الأمر ألتبس علي أنا كومنين .

(1) *Gesta Frunctorum* ., p . 5 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٢٢ .

(2) *Albert d'Aix : op . cit ., pp . 284-289 .*

ويعلق رنسيما على ما حدث للجموع الصليبية قائلاً " بأنها علمت الناس أن الايمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس إذا تجردوا من الحكم والنظام " (١).

وهكذا فشلت تلك الحملات الشعبية وتلقت ضربة شديدة على يد الأتراك السلاجقة وتركت صورة سيئة في أذهان المسيحيين الإغريق في آسيا الصغرى الذين لقوا على أيديهم المهانة والسرقة والقتل ، وقد انتظر من تبقى من هذه الحملات الشعبية في العاصمة وضواحيها حتى تصل الحملات المعروفة بالنظامية أو حملات الأمراء .

كانت الجيوش النظامية متأهبة للرحيل الى الارض المقدسة بقيادة النبلاء وكبار السادة الإقطاعيين والفرسان من مناطق متفرقة من أوروبا . وفي أواخر صيف سنة ١٠٩٦ استقبلت القسطنطينية زعماء الحملة الصليبية الاولى في نوفمبر سنة ١٠٩٦ حيث وصل جيش صليبي بقيادة هيوكونت فرماندو *Hugh Count of Vermandois* شقيق فيليب الأول ملك فرنسا ، وكان هذا الجيش أول الجيوش الصليبية وصولاً إلى الأراضي البيزنطية (٢).

وتلى جيش هيو في الوصول الى القسطنطينية جيش بقيادة جودفري دي بويون *Godfrey of Bouillon* دوق اللورين ، حيث وصل في ديسمبر سنة ١٠٩٦ ومعه أخواه بلدوين وإيوستاس *Eustace* (٣) كما

(3) *Runciman :A history of the crusades ., vol . 1 p . 133 .*

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(4) *Anna comnena : The Alexiad ., p . 315 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 145 . ; Loewe : op . cit ., vol . IV , p . 316 . ; Rice (T.T) : Byzantium ., p . 95 . ; Mango : op . cit ., p . 107 . ; Ahrweiler (Helene) : Byzance et la Mer ., p . 190 .*

(1) *Anna comnena : The Alexiad ., pp . 319-320 . ; William of tyre : op . cit ., vol . 1 pp . 116-117 . ; Doggan (Alfred) : The story of the*

وصل إلى القسطنطينية في ابريل سنة ١٠٩٧ جيش النورمان بقيادة بوهيموند النورمانى أمير تارنتو *Taranto* وابن روبرت جويسكارد^(١).
ووصل أيضاً الى القسطنطينية فى ابريل سنة ١٠٩٧ جيش بقيادة ريموند الرابع كونت تولوز وبيرفانس بجنوب فرنسا *Raymond IV of Toulouse* والمعروف بالصنجيلى - نسبة إلى مقاطعة سان جيل *Saint Gilles* - وهو أول أمير نورمانى أعلن انضمامه إلى الحركة الصليبية وكان بصحبته أدهيمار أسقف لى بوى والمندوب البابوي القائد الروحي للحملة^(٢).

ولقد وصلت أيضاً إلى القسطنطينية فى أوائل مايو سنة ١٠٩٧ جيوش روبرت كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا وشارتر وروبرت الثانى كونت فلاندرز^(٣).

crusades . (London , 1963) ., p . 32 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 pp . 145 -147 . ; Mayer (H.E) : The crusades . Translated by John Gillingham . (Oxford , 1988) ., 45 . ; Painter (Sidney) : A Hist. of The Middle Ages 284-1500 (New York , 1954) . p . 204 .
(2) *Gesta Frunctorum ., p . 10 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٢٤ .

Runciman : op . cit ., vol . 1 pp . 156-157 .

رنسيماى : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(3) *William of tyre : op . cit ., vol . 1 pp . 139-141 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 pp . 159-163 .*

رنسيماى : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٧ .

(4) *William of tyre : op . cit ., vol . 1 pp . 148-149 . ; Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 288 .*

باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٧ . ؛ حسن حبشي : الحروب الصليبية الأولى ، ص

. ٦٨

ولقد دخلت هذه الجيوش الصليبية الأراضى البيزنطية من ثلاثة اتجاهات مختلفة ، فالأول كان طريق الحجاج عبر المجر ، والثانى عن طريق شمال إيطاليا ودالماشيا ، أما الثالث فكان طريق البحر من جنوب إيطاليا إلى ساحل اليونان ^(١) وعلى الرغم من أن مجيء الصليبيين إلى أراضى الدولة البيزنطية قد قلب خطط الامبراطور الكسيوس كومنين ومشاريعه رأساً على عقب كما كان تهديدا إيجابيا لدولته ، إلا أننا نراه يعمل على الاستفادة بهم لخدمة مصالحه ومصالح بلاده ^(٢). والحقيقة أن الطريقة التى سلكها الامبراطور فى تعامله مع الموقف الجديد كشفت بوضوح عن ذكائه السياسى وشجاعته .

ولما كان الأمراء الصليبيون أتوا منفصلين ، فقد قرر الكسيوس أن يتعامل مع كل أمير صليبي على حدة قبل أن تواتيهم الفرصة للتجمع وتوحيد صفوفهم ^(٣) . وبمهارة فائقة تمكن الكسيوس من إقناع القواد بأداء يمين التبعية والولاء له بعد مشاحنات ومنازعات قاسية ، فوعده بإعادة جميع الأراضى والمدن التى يقومون بغزوها فى طريقهم إلى بلاد الشام إلى الامبراطورية - التى كانت فيما قبل تابعة للامبراطورية - وتعهد الامبراطور من جانبه بتقديم المساعدات لهم ^(٤).

ومما يجدر ذكره أن الامبراطور نجح فى التعامل مع بوهيموند عدوه وابن عدوه اللدود جويسكارد النورمانى ، وإن صرح لأحد قواد الحملة الصليبية الأولى-ريموند الصنجيلي-بتخوفه وعدم الثقة فيه لانه ورث الغدر

(5) Brooke (Z.N) : op . cit . , p . 240 .

(6) Ostrogorsky : op . cit . , p . 322 .

(1) Brooke (Z.N) : op . cit . , p . 241 .

(2) Hulm : op . cit . , p . 476 . ; Robinson : op . cit . , p . 615 . ; Brooke

(Z.N) : op . cit . , p . 241 . ; Mango : op . cit . , p . 107 . ;

Ostrogorsky : op . cit . , p . 322 .

وعدم الوفاء بالعهود عن اجداده ،وطلب منه أن يراقب أفعاله ،وقد قوبل طلب الكسيوس لدى سانجيل بالقبول وأعلن هو الآخر عدم ثقته في بوهيموند وأنه سوف يفعل ما يراه مناسب^(١).

بارحت الجيوش الصليبية النظامية القسطنطينية وعبرت مضيق البسفور متوجهة إلى آسيا الصغرى ،ولا شك أن هدف الإمبراطورية البيزنطية الأول هو القضاء على الاتراك السلاجقة في آسيا الصغرى باستعادة الأراضي التي فقدتها ،ولكن المدهش في الأمر أن الامبراطور الكسيوس كومنين رفض عرضا من قادة الحملة بأن يكون قائداً عاماً لهذه الجيوش واعتذر مدعياً أن مشاغل الامبراطورية تحول دون قبوله هذا الشرف العظيم . وتذكر المؤرخة آنا كومنين أن والدها كان يرغب في المشاركة في الحملة وفي قتال الترك لكن كثرة أعداد هذه الجيوش قد أخافته^(٢) . ويبدو أن الامبراطور الكسيوس تخوف من حدوث خلاف مع اللاتينيين أثناء تحركاتهم فيضر ذلك بالجيش البيزنطي الذي لو تحرك معهم فإنه بالضرورة سوف يصبح في المرتبة الثانية بالنسبة للجيوش الصليبية من الناحية العددية والقوة .

وكان أن وعد الكسيوس بتقديم المعونة العسكرية براً وبحراً مع احتمال أن يقوم بنفسه بقيادة الجيوش البيزنطية المتعاونة مع الجيوش الصليبية . كما تعهد الامبراطور بتزويدهم بالمؤن والاطعمة وتعويض الفرنجة عن كل الخسائر التي تلحق بهم وتأمين مرور الحجاج والمسافرين

(3) Anna comnena : *The Alexiad* ., p . 330 . ; Lamb (Harold) : *The crusades (London , without date)* ., p . 104 .

(4) Anna comnena : *The Alexiad* ., p . 330 .

(١) . واكتفى الامبراطور الكسيوس بإنفاذ كتيبة عددها ألفين من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس *Taticius* للمشاركة مع القوات الصليبية (٢) .
وفى السادس من مايو سنة ١٠٩٧ وصلت بعض الجيوش الصليبية إلى مشارف مدينة نيقية (أنيق الحالية) عاصمة سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وإحدى مدن إقليم بيثينيا ، وكانت مدينة نيقية مقر قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، ولقد تحدثت المصادر التاريخية بما اشتهرت به هذه المدينة من حيث مناعتها وحصانته حيث اشتهرت بتحصيناتها الطبيعية التي تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها وخذق ملء بالماء المتدفق من الجداول في جانبها الغربى ليسد المدخل من ثلاث جهات ، وقد أحيطت نيقية بأسوار عالية جدا حتى أن المدينة لم تكن تخش هجوم الأعداء ولا قوة أية آله ، وكانت نيقية مصدر قلق كبير لبيزنطة لقربها من القسطنطينية ، كما تتمتع تلك المدينة بأهمية خاصة في التاريخ المسيحى ، وكانت من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى قبل وقوعها فى يد السلاجقة منذ حوالى ستة عشر عاما تقريبا ولهذا تم تحديد نيقية لتكون الهدف الأول للجيوش الصليبية ، وكانت ضرورة أمن الصليبيين الحربى تتطلب السيطرة على قونية إذ لو ظلت نيقية بيد السلاجقة فسوف تكون البقعة التى تهدد مواصلاتهم وامداداتهم الحربية عند مضيقهم فى جوف آسيا الصغرى (٣) والحقيقية أن من ينظر فى خريطة آسيا الصغرى

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطي : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد

الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) ص ٢٩٣ . ؛ إسحاق عبيد : المرجع

السابق ، ص ١٠٤ . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(1) *Anna comnena : The Alexiad ., p . 336 .*

حسن حبشي : الحروب الصليبية الأولى ، ص ٨٥ .

(2) *William of tyre : op . cit ., vol . 1 p . 152 .*

يجد ويتبين عند قراءتها ان نيقية كانت خط الهجوم الاول على القوات الصليبية والبيزنطية .

جرى اختيار الوقت المناسب للهجوم على العاصمة ، إذ أن السلطان السلجوقي قلع أرسلان كان بعيدا عن العاصمة ومشغولاً بنزاعه مع أمراء بنى داتشمنند من أجل السيادة على مدينة ملطية (١) . كما أنه لم يهتم كثيراً بأبناء الغزو الصليبي ، ولم يدرك ما يتهدده من خطر من جهة الغرب فما أحرزه من انتصار على جموع بطرس الناسك في سهولة ويسر حملته على احتقار الصليبيين . ولعل حرص جواسيسه وعيونه في القسطنطينية على إرضاء سيدهم جعلهم يببالغون في أنباء النزاع بين الامبراطور والأمراء الغربيين ، ولاعتقاده أن الحملة لن تتوغل مطلقا حتى تصل نيقية فترك داخل الاسوار زوجته وأمواله وأولاده (٢).

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ١٩٩-٢٠١ . ؛ فوشية الشارتريري : المصدر السابق ، ص ١٠٧ . ؛ ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ترجمة / محمد حسن محمد عطية ، (الإسكندرية ١٩٨٩) ، ص ٧٧ .

Runciman : A history of the crusades ., vol . 1 pp . 175-177 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

Maalouf (A) : The crusades through Arab eyes (London , 1984) p . 5 . ; Chalandon (F) : Essai sur le reign d'Alexis ler comnene ., p . 188 .

(3) *Matthieu d'Edesse : Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse in (R.H.C.D.Arm.) , pp . 214-215 , 211-212 . ; Michel le Syrien : Extrait de la chronique de Michel le Syrien , patriarchd . Antioche (1166-1199) editee etitee et traduite en francais par J.B chabot ., p . 187 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 177 .*

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

Maalouf : op . cit ., pp . 10-11 .

(1) *Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 177 .*

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

غير أن السلطان قلعج أرسلان عندما علم أن مدينته تعاني أهوال الحصار ، أرسل إثنين من اتباعه ليدخل الطمأنينة في قلوب الحامية التركية المرابطة في نيقية ويشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما في قارب يعبر بهما البحيرة وبعث معهما عبارات التشجيع التي جاء فيها " أن قدوم هؤلاء المتبربرين الذين يظنون أنفسهم قادرين على فرض الحصار على مدينتنا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفاً لأنني مرابط إلى جواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء ، كما أنني في انتظار اعداد اخرى قادمة بعدهم ، وحين يتم شمل هذه القوات في جمع واحد، فسوف تفاجيء معسكرهم بالهجوم فإذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم لمساعدتنا وكونوا مستعدين لفتح الأبواب وانهضوا متحدين لا يشغلكم شاغل سوى مهاجمتهم ولا ترهبكم كثرة عددهم إذ ليس عندهم من العدد والعدة ما يكافىء ما عندنا لأنهم جاءوا من أقصى بلاد الغرب فأعياءهم طول السفر " ، إلا أن أحد هذين الرسولين قتل على ايدي الصليبيين ووقع الآخر في الأسر ، و اعترف لهم تحت التهديد والتخويف بما يعرفه (١).

وعلى أية حال ، فقد حاصر الصليبيون مدينة نيقية في ٣ يونيو سنة ١٠٩٧ ، وكان الامبراطور الكسيوس كومنين يتربقب الاحداث من عاصمته ، ويرسل إليهم الامدادات تباعاً عن طريق البحر (٢).

ثم غادر الامبراطور الكسيوس القسطنطينية وعبر الساحل الأسيوى وعسكر في بليكانيوم *Pelecanum* استعداداً لتسلم نيقية من الصليبيين فور سقوطها طبقاً للاتفاقية المعقودة بينه وبين الصليبيين وكان

(2) William of tyre : op . cit ., p . 155 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٢ .

(٢) فوشية الشارتريري : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

الامبراطور يخشى أن تتعرض المدينة للسلب والنهب من قبل الصليبيين بعد سقوطها في أيديهم^(١).

ورغم أن الترك الذين كانوا في مدينة نيقية بعثوا برسالة إلى قلعج أرسلان يستجدونه لإنقاذ المدينة وختموها بقولهم : " أقدموا غير هيايين ،واقربوا آمنين وادخلوها من الباب القبلي لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية أحداً ما يعترض سبيلكم أو يقف في طريقكم^(٢) ، إلا أن النجدة من الجانب السلجوقي تأخرت في الوصول إلى نيقية مما دفع رجال الحامية السلجوقية إلى الدخول فمفاوضات مع القائد البيزنطي مانويل بوتوميتس بشأن تسليم المدينة للامبراطور ، إلا أن هذه المفاوضات انتهت بالفشل لما تردد عن اقتراب وصول النجدة من السلطان السلجوقي ، وتجدد الأمل من جديد في عدم سقوط المدينة^(٣).

وفي حوالي ٢١ مايو سنة ١٠٩٧ قدم السلطان قلعج أرسلان بجيشه من جهة الجنوب محاولاً بذلك أن يشق له طريقاً ينفذ منه إلى المدينة وكان الصليبيون يحاصرون هذا القطاع من المدينة تحت قيادة ريموند كونت تولوز ، وأسرع قلعج أرسلان فشن غارة شعواء على رجال

(4) *Anna comnena : The Alexiad ., pp 330-331 . ; Rice (T.T) : The Seljoukes in Asia Minor ., p . 52 . ; Lile (R.J) : Die schlacht von Myriokephalon (1176) Auswirkungen auf das Byzantinische Reich imausgehenden 12 Jahrhundert Revue des Etudes Byzantines . ome 35 . pp 257-275 . Institut Francais D'Etudes Byzantines . (Paris , 1977) p . 28 .*

(1) *Gesta Frunctorum ., p . 14 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٤ .

(2) *Anna comnena : The Alexiad ., p . 334 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 178 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

الكونت الذين صمدوا للهجوم وشتتوا شمل الصف الأول من عسكر الترك الذين فروا هارين (١).

بيد أن ظهور قلج أرسلان على رأس إمدادات قوية أحيا عزيمة عسكره فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انفرط عقد نظامهم ، ولم يكن بوسع كل من كونت فلاندر أويوهوموند أن يخاطر بتخليه عن القطاع الذي يحاصره من المدينة ، غير أنهما نهضا لمساعدة ريمون بعد أن لاحظا أن الارهاق قد بلغ من رجال كونت تولوز مبلغا جاوز الحد بسبب جيش الأتراك الكاسح ، ودارت رحى القتال ولم يستطيع الترك أن يشقوا لهم طريقا إلى العاصمة وتعرض الجيش لخسائر فادحة فى الارواح وأحرزت القوات الصليبية النصر على الأتراك (٢) . وقد زاد هذا الانتصار من اعتدادهم بأنفسهم وكان من دواعى سرور الصليبيين أنهم عثروا بين القتلى على الحبال التى أحضرها معهم الترك لكى يسحبوهم مصفدين إلى خراسان ، ورغبة فى بث الذعر بين سكان المدينة قام الصليبيون باجتياز رؤوس القتلى الأتراك وقذفوا بها من فوق الاسوار إلى المدينة (٣) . وكان لذلك كله دور كبير فى اضعاف الروح المعنوية للحامية المحاصرة داخل المدينة .

(3) William of tyre : *op . cit . , p . 156 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٤ .

Gesta Frunctorum . , p . 14 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٤ . ؛ ريمونداجيل : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(4) William of tyre : *op . cit . , p . 156 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

Anna comnena : The Alexiad . , p . 334 . ; Matthieu d'Edesse :

op . cit . , p . 215 . ; Albert d'Aix : op . cit . , pp 220-221 .

(5) *Gesta Frunctorum . , pp . 14-15 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٤-٣٥ .

Albert d'Aix : op . cit . , p . 221 . ; Runciman : A history of the crusades . , vol . 1 pp . 179-180 .

كما بعث الصليبيون الى الامبراطور ألفا من هذه الرؤوس وطائفه من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب فى نفسه ، وقام الكسيوس بمكافأة زعماء الجيوش بمبالغ مالية طائله وأرسل إليهم المواد الضرورية من غير إبقاء عليهم^(١).

وكان أن أدرك السلطان قلعج أرسلان أنه من الحكمة أن يرتد عبر الجبال تاركا المدينة تواجه مصيرها المحتوم بعد أن أدرك أن قوة الصليبيين أكبر مما كان يتوقع ، وأخبر الحامية أن تقوم بعمل ما تراه مناسباً إذ ليس فى وسعه أن يمد لهم يد المساعدة^(٢).

وبدأ الصليبيون إحكام الحصار على المدينة من كل جوانبها وذلك بوضع القواد فى أماكن استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من النيران على الأهالى عسى أن يحملونهم على الاستسلام دون مشقه وكان الصليبيون قد قسموا منطقة السور إلى أقسام متساوية وعهدوا بكل قسم منها الى فريق معين من الزعماء^(٣).

وراح القاده الصليبيون يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الاسوار عسى أن يتمكنوا من شق طريق لأنفسهم يقتحمون منه المدينة حتى انهم نصبوا آله صنعت من جذوع البلوط وجهزت على أن تسع فى جوفها عشرين من الفرسان عهد إليهم بتقويض السور ، ولكن حين

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(1) William of tyre : *op . cit . , I , p . 157 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٥ .

(2) Anna comnena : *The Alexiad . , p . 334 .*

(3) William of tyre : *op . cit . , I , p . 158 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٥ .

Gesta Francorum . , p . 15 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٥ .

أسندت هذه الآله إلى الجدار اشند الأهالي فى رميها بالقذائف الحجرية فتناثرت أجزاءها وهلك جميع من كان بداخلها (١).

والحقيقة أن الامبراطور الكسيوس كان يعرف قوة ومناعه تحصينات نيقية ، وأن الصليبيين لن يستطيعوا إسقاطها بسهولة حتى لو كانت قواتهم تفوق قوات الحامية التركية بكثير ، لذا بادر بإرسال العديد من آلات الحصار غير التقليدية (٢).

كانت هناك محاولات من قبل ريموند كونت صنجيل وأدهيمر أسقف بوى لنقب أحد الابراج الواقعة إلى الجنوب واتفق الرأي على انفاذ فريق من الرجال يحميهم حاملوا الاقواس ورماة النشاب

،وقد تمكنوا من هدم الجدار واشعلوا النيران، غير أن ما أحدثوه فالجدار أصلحه المحاصرون ليلاً (٣).

وعلى الرغم من شدة الحصار فقد صمدت المدينة . وتبين للصليبيين أن الحصار لم يكن تاما حيث كانت الحامية السلجوقية تتصل بالعالم الخارجى عن طريق البحيرة التى فى الجنوب وكانت منفذا لتلقى المؤن وغير ذلك . وبعد أن إجتمع القادة أرسلوا إلى الامبراطور وطلبوا منه المساعدة بإرسال سفن عن ميناء كيفيتوت لإغلاق البحيرة فى وجه

(4) William of tyre : *op . cit ., I , p . 159 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ص ٢٠٨ .

(5) Anna comnena : *The Alexiad ., p . 336 .*

(1) *Gesta Frunctorum ., p . 16 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٥ .

Albert d'Aix : op . cit ., pp . 322-323 .

ريمونداجيل : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 180 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

السلجقة ، واستجاب الامبراطور على الفور وأرسل عددا كبيرا من القوارب تم سحبها بطريق البر^(١) . كما أرسل الامبراطور الكسيوس قوات بيزنطية بقيادة تاتيكيوس وتزتياس *Tzitas* لمساندة الصليبيين وليكون لها السبق فى السيطرة على المدينة عند سقوطها^(٢) .

استمر حصار المدينة وأورد وليم الصورى محاولات من جانب الصليبيين لهدم أسوار المدينة والتي انتهت بنجاحهم فى هدم أحد الأبراج مما أحدث فرعا كبيرا لدى الحامية التركية^(٣) .

وبعد أن سيطرت القوات البيزنطية الصليبية على البحيرة تأكد للحامية التركية أمر سقوط نيقية ، وأيقن الترك أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجده من جيوشهم فبعثوا إلى الامبراطور سفارة تحمل اليه استعدادهم تسليمه المدينة إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون^(٤) .

(2) *Gesta Frunctorum* ., p . 16 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٦ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

William of tyre : op . cit .,vol . I , p . 160 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

Anna comnena : The Alexiad ., p . 330 .

(3) *Anna comnena : The Alexiad ., pp . 336-337 .*

(4) *William of tyre : op . cit .,vol . I , pp . 161-165 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢١١-٢١٦ .

(5) *Gesta Frunctorum* ., p . 17 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٧ . ؛ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

وأجرت الحامية إتصالاً بالقائد البيزنطي بوتوميتس ودارت مناقشات وتم الاتفاق معه على كيفية تسليم المدينة ، وأرسل بوتوميتس إلى زميله تاتيكيوس الذى لعب دورا كبيرا فى المفاوضات ونجح فى إقناع الحامية بضرورة تسليم هذه المدينة إلى الامبراطور حيث شككهم فى كل أمان يقطعه لهم الصليبيون الذين كانوا يجهلون ما يدور فى الخفاء ،وساق العديد من الحجج التى حملت الأهالى على الموافقة بالاستسلام ،وفى اليوم التالى عندما احتشد الفرنجة للهجوم على المدينة فوجئوا بالأعلام والرايات البيزنطية ترفرف فوق أسوارها ،وهكذا سقطت نيقية فى أيدي البيزنطيين (١) وكيفما كان الأمر فقد أعيدت نيقية إلى الامبراطورية البيزنطية فى ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧ بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ستة عشرعاما وأصبح بوسع القسطنطينية أن تتنفس بحرية بعد جلاء التركمان عن هذا المعقل الامامى الحصين (٢).

(1) William of tyre : *op . cit . , p . 165-166 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

Anna comnena : The Alexiad . , pp . 337-338 . ; Anonymous Syriac Chronicle : The first and second crusades . translated by A.S Triton with notes by H.A.R . GIBB . in the journal of the Royal Asiatic Society . (London , 1933) p . 70 . ; Runciman : op . cit . , vol . 1 p . 181 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

Loewe : op . cit . , p . 315 . ; Maalouf : op . cit . , p . 13 . ;

Charles (M.B) : Crusades in the Oxford Dictionary of Byzantium . Vol . 1 . , pp . 558-559 .

حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ٨٨ . ؛ ديورانت (ول) : قصة الحضارة . ، ج ٤ ، ص ٤٢٢ . ؛ يشير بن القلانسي : أن الأفرنج هم الذين فتحوا نيقية وهو أول مكان يفتحوه . انظر : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع

السابق ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

ولقد سقطت نيقية بعد حصار دام ثمانية أسابيع^(١) ولم يخف الصليبيون استيائهم من وقوع نيقية في أيدي البيزنطيين ، وكاد الأمر يصل الى نزاع بين الصليبيين والامبراطور ، فالصليبيون كانوا يأملون دخول المدينة والاستيلاء على ثرواتها ونهب كنوزها وسبي سكانها ، وبدلاً من ذلك لم يسمح للصليبيين بدخول المدينة الا من جماعات قليلة العدد لا تزيد في كل مرة عن عشرة أشخاص بدون سلاح ، وخضعت لمراقبة شديدة من قبل جند الإمبراطور ، ورأوا الترك ينقلون مع أمتعتهم إلى القسطنطينية تحت الحراسة وشعر الصليبيون بأنهم خدعوا كما ذكرت آنا كومنين صراحة أن البيزنطيين خدعوا الصليبيين^(٢).

ومما زاد من كراهية الصليبيين للامبراطور أنه تعهد لهم أن يسلمهم كل ما في نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعه موجودة داخل المدينة، وأنه سوف يقيم ديراً للآتينيين وملجأ للفقراء من الفرنجة ، وأنه سوف يعطيهم بسطاء يجعل كل جندي منهم يود أن يخدم الامبراطور مدى الحياة ، ووثق الفرنجة في هذه الكلمات وفرحوا لإستعادة نيقية ، ولكن ما إن أصبحت نيقية في أيدي الكيسوس حتى تصرف مع الجيش الصليبي بجحود حتى أن " الناس سيسبونهم ويصمونهم بالخيانة طالما كان حياً " ^(٣).

Atil : op . cit . , p . 21 .

(3) *Lilie : op . cit . , p . 28 .*

(4) *Anna comnena : The Alexiad . , p . 340 . ; William of tyre : op . cit . , p . 167-168 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٠ . ؛ رنسيان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

Runciman : op . cit . , vol . 1 p . 181 .

^(٣) ريمونداجيل : المصدر السابق ، ص ٧٨ . ؛ جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص

. ٢٢٩

وقد خفف من حدة هذه الكراهية إلى حد ما ، ما إشتهر به الامبراطور من السخاء ، حيث أراد الامبراطور أن يرضى حلفاءه الصليبيين ويأدر باصدار الأوامر بتوزيع الهبات والصدقات والأطعمه على الفقراء (١) . ثم دعا الامبراطور القادة الصليبيين إلى بليكانوم للاحتفال بالنصر وبذل لهم كميات ضخمة من الذهب والجواهر ، ثم طلب الامبراطور من القاده والفرسان الذين لم يقسموا له يمين الولاء أن يؤدوه فاستجابوا (٢) . وكان من بين الأسرى زوجة قلج أرسلان (وهي ابنه الامير تزاخاس " جكا ") مع أبنها وجرى استقبالها بحفاوة فى القسطنطينية ، وعاملهما الامبراطور معاملة طيبة وببالغ فى الإحسان إليهم وإكرامهم (٣) . وكان لابد أن تبقى فى القسطنطينية حتى تصلها رسالة من زوجها عن الموضوع الذى تلحقه به وتقرر انفاذاها مع ابنها الى السلطان دون دفع الفدية (٤) .

(1) *Gesta Frunctorum ., p . 18 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ . ؛ فوشية الشاريتيري : المصدر السابق ، ص ١١١ .

Runciman : The first crusade constantinople to Antioch in setton . op . cit ., vol . 1 , p . 291 .

(2) *Anna comnena : The Alexiad ., pp 340-341 .*

فوشية الشاريتيري : المصدر السابق ، ص ١١١ .

Grousset : Histoire des croisades et du Royaume France du Jerusalem ., pp . 30-31 . ; Runciman :A history of the crusades ., vol . 1 p . 181 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٣ . ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(3) *William of tyre : op . cit ., pp .168-169 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(4) *Runciman :A history of the crusades ., vol . 1 p . 182 .*

والحقيقة أن الامبراطور الكسيوس اشتهر بالرفاه والأمان ، كما أنه من واقع تجاربه السابقة ومن تعاملاته مع المسلمين يدرك أهمية العفوعند المقدرة ويقدر قيمة ما يبيده من تسامح ومروعة مع العدو المغلوب ، ولكن الصليبيين اعتبروا أنه يتصرف بوجهين مختلفين وأنه خائن ، فقيام الامبراطور بالاحسان إلى الاسرى قد فسره المؤرخ المجهول بسوء نية الكسيوس نحو الصليبيين وأنه لم يغفل ذلك إلا لكي يكونوا على أتم استعداد لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات في سبيلهم (١) . ويرى البعض الآخر أن الدافع وراء ذلك هو ما كان يراوده من الأمل في كسب مودة الترك (٢) . وهناك بعض المصادر التي أشارت إلى أن الامبراطور الكسيوس كومنين قام بتحذير الترك في نيقية وجيرانها من الهجوم عليهم وقتلهم (٣) . وكما يرى أحد المؤرخين المحدثين أن الامبراطور الكسيوس كان يرغب في تفادي التورط في حرب مع المسلمين وعمل جاهداً على ألا تشتعل نار التعصب أو احياء حركة الجهاد عند المسلمين (٤) . وفضلا عن ذلك ، فإن الامبراطور الكسيوس كان دائما ما يرتاب في نوايا حلفائه الصليبيين ، وكان يتوقع اخلالهم بعهودهم هذا بالإضافة إلى ان

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

Runciman : The first crusade constantinople to Antioch in setton . op . cit . , vol . 1 , p . 291 . ; Rice : op . cit . , p . 53 .
(5) *Gesta Frunctorum . , p . 17 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٧ .

(6) *William of tyre : op . cit . , pp .168-169 .*

وليم السوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(1) *Anonymous Syriaac Chronicle : op . cit . , p . 70 .*

(2) *Lamb : op . cit . , p . 110 .*

السلطان قلعج أرسلان كان بالأمس القريب الحليف للإمبراطور الكسيوس (١).

وعلى الرغم مما أصاب الصليبيين من خيبة أمل فى أنهم لم يستولوا على مدينة نيقية ، ولم يسهموا فى الحصول على ثرواتها ، فان تحرير نيقية ملاءم غبطة وسروراً وأملاً فى المستقبل ، إذ جرى انفاذ الرسائل الى الغرب الأوربي تعلن أن هذا الموضع المبجل عاد مسيحياً مرة أخرى وتلقى الناس الخبر بحماس شديد ، وأثبتت الحملة الصليبية النظامية أنها أحرزت نجاحاً باهراً ، فكثرت قدوم العساكر وأخذت المدن الإيطالية التى ظلت حتى ذلك الحين شديدة الحذر وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة تزداد اهتماماً بالحركة الصليبية (٢).

وقد مكن سقوط نيقية على أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٧ من إعادة غزو مساحة عظيمة من ساحل الأناضول (آسيا الصغرى) وسيمرنا وافسوس (٣) ، كما أدى سقوط نيقية إلى ارتفاع الروح المعنوية لدى الصليبيين وشجعهم على المضي قدماً فى مواصلة زحفهم فآسيا الصغرى عبر طرقها المختلفة (٤) وبدأت القوات المشتركة تغادر نيقية فى ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧ فى طريقها الى بلاد الشام ، وقاموا بتقسيم قواتهم إلى قسمين ضم القسم الاول النورمان : نورمان ايطاليا بزعامة بوهموند وتانكرد ، ونورمان فرنسا واتجه القسم الاول ناحية شمال شرق آسيا الصغرى ،

(3) Cahen : *pre-ottoman Turkey* ., p . 85 .

(4) Runciman : *A history of the crusades* ., vol . 1 p . 183 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٥ . ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(5) Diehl (Charles) : *Histoire de l'empire Byzantin (Paris , 1920)* ., p . 147 .

(٤) عن الطرق المختلفة التي تجتاز آسيا الصغرى . انظر :

Ramsay (W.M) : *The Historical geography of Asia Minor* , pp . 74-82 .

والقسم الثاني ويضم المندوب البابوي أدهيمر ومعه من الامراء جودفري بوايون وريموند الصنجيلي اتجه ناحية الجنوب الشرقي على أن يكون اللقاء عند دوريليوم^(١).

وفي الوقت الذي سقطت فيه نيقية في أيدي البيزنطيين والصليبيين وفشل قلج أرسلان في انقاذها ، اضطر إلي الانسحاب إلى الجنوب الشرقي ليحشد جيوشه من جديد ، حيث عقد صلحاً مع الأمير الدانشمندى وأقنعه بتكوين جبهة إسلامية واحدة لمواجهة هذا الخطر الصليبي وسد الطريق في وجه الصليبيين ، وتم حشد جيش إسلامي تحت قيادة قلج أرسلان والامير الدانشمندى والامير حسن أمير التركمان النازلين في قيادوقية واجتمعوا في دوريليوم استعداد لمواجهة الصليبيين^(٢).

وقد عسكر الجيش الصليبي بقيادة بوهموند في سهل بالقرب من دوريليوم وعند شروق الشمس انقض عليهم الترك ، وهم يصرخون صرخات مدوية مرددين بأعلى أصواتهم " الله أكبر " فأمر بوهموند فرسانه على الفور بأن يترجلوا وأخذ يشجع جنوده ويرفع من معنوياتهم قائلاً : " أيها الميجلون ويا فرسان المسيح الاشاوس أمامكم معركة صعبة ، والعدو محقق بنا من كل جانب " وتم الاستعداد لخوض المعركة وتولت النساء نقل المياه إلى الخط الامامي^(٣).

(7) Albert d'Aix : op . cit . , pp . 327-328 . ; Gesta Frunctorum . , p . 18 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ .

William of tyre : op . cit . , pp . 170-171 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

Anna comnena : The Alexiad . , p . 341 .

(1) Albert d'Aix : op . cit . , p . 329 . ; Anna comnena : The Alexiad . , p

. 341 . ; Runciman : A history of the crusades . , vol . 1 p . 184 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . ؛ علي بن صالح المحميد :

الداشمنديون وجاهدهم في بلاد الأناضول ، ص ١٦٩-١٧٠ .

(2) Gesta Frunctorum . , p . 19 .

أخذ الجيش الاسلامى يطوق الجيش الصليبي من كل جانب ، وترأى للصليبيين أن عدد الترك لا حصر له ، والتحم الفريقان فى قتال عنيف ، واستخدم الترك ما برعوا فيه من الخطط الحربية حيث رموا الصليبيين بالحرايب ورشقوهم بالنبال . ولم يكن يسمع إلا صليل السلاح وهتافات العسكر الحماسية التى تعالت حتى خيل أنها تبلغ عنان السماء وسدت على الصليبيين مسالك الفرار ، ورجحت كفة الجيش الاسلامى عن كفة الجيش الصليبي الذى اخذت شوكته فى الضعف (١) .

وأثناء القتال بعث بوهموند رسولاً إلى القسم الثانى من الجيش الصليبي يطلب النجده على عجل للمشاركة فى هذه المعركة (٢) ، فوصلت بقية الجيوش الصليبية إلى أرض المعركة بقيادة جودفرى دى بويون وهيو وكانت قواتهما أول القادمين ثم تلتها قوات أدهيرم أسقف لى بوى وكونت صنجيل (٣) .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .
(3) William of tyre : op . cit . , pp .173-175 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٣-٢٢٦ .

Gesta Frunorum . , p . 19 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ . ؛ ريموندانجيل : المصدر السابق ، ص ٧٩ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(4) Gesta Frunorum . , p . 20 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ . ؛ ريموندانجيل : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(5) Gesta Frunorum . , p . 20 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٣٩ .

William of tyre : op . cit . , p .175 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٦ . ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور :

المرجع السابق ، ص ١٣١ .

أدى وصول هذه القوات إلى تغيير دفة القتال وغير من مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب حيث تشجع الصليبيون وقويت روحهم المعنوية، وشرع الجيش الصليبي الموحد في القيام بهجوم على الاتراك المسلمين، وانتصر الصليبيون على الاتراك في أول يوليو سنة ١٠٩٧ في دوريليوم واضطر الترك إلى الإنسحاب وتركوا معسكرهم بما حواه من نفائس فاستولى عليها الصليبيون^(١) وعلى الرغم من الانتصار الساحق الذي أحرزه الصليبيون في هذه المعركة إلا أنهم فقدوا الكثير من رجالاتهم الإقوياء^(٢).

والحقيقة أن وقع الهزيمة لم ينصب على الاتراك وحدهم بل على المسلمين قاطبة، حتى أن المؤرخ ابن القلانسي علق على هذه المعركة قائلاً " واشترى ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً وحملهم إلى القسطنطينية وتواصلت الاخبار بهذه النوبه المستبشعة في حق الاسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق " ^(٣).

(1) William of tyre : op . cit ., pp .175-176 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ . ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٠-٤١ . ؛ ريموندانجيل : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

Gesta Frunorum ., p . 21 . ; Anna comnena : The Alexiad ., p . 342 .

فوشية الشاريتيري : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

William (B) & Litt (D) : op . cit ., p . 286 . ; Rice : op . cit ., p . 55 . ; Loewe : op . cit ., vol . IV , p 315 . ; Lilie : op . cit ., p . 29 . ; Lamb : op . cit ., pp . 114-120 . ; Rice (T.T) : Byzantium . op . cit ., p . 96 . ; Halt (P.M) : TheAge of the crusades ., p 169 .

(2) William of tyre : op . cit ., p .174 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٥ . ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤١ .

Gesta Frunorum ., p . 21 .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

وتعتبر معركة دوريليوم^(١) من المعارك الهامة ، وينظر إليها المؤرخون باعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ التي لا تقل في اهميتها عن معركة ملاذكرد التي جرت قبل ذلك بحوالى ربع قرن ١٠٧١ م (٤٦٣ هـ) ، ففيها تمكن الصليبيون من القضاء على قوة السلاجقة لفترة من الزمن ، وهي القوة التي كثيرا ما عجزت الجيوش البيزنطية عن وقفها ، كما أن النصر الذي أحرزه الصليبيون كان ذا أهمية خاصة بالنسبة لهم إذ فتح لهم الطريق الى الاراض المقدسة ، كما أوضحت هذه المعركة للصليبيين أن السلاجقة قوة لا يستهان بها إذا ما توحدت وليس أدل على تقدير الصليبيين لقوة السلاجقة ما قاله المؤرخ النورمانى المجهول فى حقهم حيث اعتبر الترك من أروع العناصر وأكثرها شجاعه وبساله ، وتمنى لو كانوا مسيحيين وردد الاسطورة التي تجعل من الفرنج والترك أقارب باعتبارهما منحدرين من سلالة الطرواديين ، وهي أسطورة قامت على اشتراكهما معا فى مناهضة اليونانيين ولا تستند على أساس عنصرى^(٢).

^(١) دوريليوم : تقع دوريليوم التي سميت المعركة باسمها علي بعد ميلين من الشمال الشرقي لمدينة اسكي شهر الحالية Eski-Shehir أما الموضع الدقيق للمعركة فلازال موضع خلاف بين المؤرخين حيث أشار ألبرت الآخي أن المعركة وقعت في وادي ديجورجا نهى Degorganhi الذي يعرف الآن باسم أوزيليس Ozellis بينما أشارت آنا كومنين أن هذه المعركة جرت في سهل دوريليوم ، وأشار هجنماير أن المعركة دارت عند Boisuzak الحالية .انظر :

Albert d'Aix : op . cit ., p . 329 . Anna comnena : *The Alexiad* ., p . 341 . ; Runciman : op . cit ., vol . 1p . 186 . ; Guerdan (Rene) : *Byzantium . its triumphs and tragedy . translated by D.L.B Hartley with a preface by Charles Diehl . (New York , 1962) ., p 115 .*
(1) *Gesta Frunctorum ., p . 21 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤١-٤٢ .

Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 187 .

لكن الشيء اللافت للنظر هو ألا نجد في كتابات المؤرخين المعاصرين من الفرنجة ما يشير إلى أى دور قام به البيزنطيون في هذه المعركة ، وأن دل هذا على شيء فأنما يدل على شدة كراهية المؤرخين - خاصة المؤرخ المجهول - للبيزنطيين والحرص على استنثار الصليبيين وحدهم بالنصر دون البيزنطيين .

أما بالنسبة لقلج أرسلان ^(١) الذى فقد الكثير على يد الصليبيين فقد أدرك أنه لا جدوى من محاولة وقف زحف الصليبيين في ذلك الوقت ، وعندما التقى أثناء انسحابه بقوة عربية قوامها عشرة آلاف مقاتل كانت قادمة من بلاد الشام للاشتراك فى المعركة ولكنها وصلت متأخرة ، أوضح لهم ملامسات المعركة وأن ما لدى الصليبيين من جند وقوة يزيد كثيراً عما كانوا يتوقعونه ، وأنه ليس فى وسعه أن يقاومهم ونصحهم بالرحيل فوراً قبل ان يعلم الصليبيون بوجودهم ^(٢).

وكيفما كان الأمر ، فإن انتصار الصليبيين فى معركة دورليوم على السلاجقة قد سمح للبيزنطيين بإعادة غزو الجزء العربى للاناضول وإضعاف سلطنة قونية ^(٣) . إذ أن الصليبيين بعد أن استراحوا مدة فى

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨١ . ؛ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

^(١) من الملاحظ أن معظم المؤرخين الغربيين كانوا يطلقون علي قلج أرسلان اسم سليمان بن سليمان .

(3) *Gesta Fruncorum ., p . 22 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٢-٤٣ .

Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 187 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨١-٢٨٢ .

(4) *Grabois (A) : The Illustrated Ency of Medieval Civilization ., p . 248 .*

دورليوم راحوا يدبرون خلالها خطة زحفهم ، وواصل الجيش الصليبي زحفه في ٣ يوليه ١٠٩٧ (شعبان ٤٩٠هـ) في جموع متصلة وذلك لكي يتجنبوا ما حدث في دورليوم ، وأخذوا يشقون طريقهم صوب الجنوب الشرقي عبر هضبة الاناضول ، وفي تلك المرحلة صادف الصليبيون كثيرا من المتاعب ، حيث واجهوا عدواً جديداً تمثل في المناخ السيء وقسوة الطبيعة ، وساروا فريسة للخطرين الجسيمين : الظمأ وشدة قيظ يوليو ، فلم يصادفوا الماء إلا في المستنقعات المالحة بالصحراء ، ولم يجدوا من النبات إلا الشوك الذي كانوا يقتلعونه واتخذوه طعاما ، وتعرضت معظم الخيول إلى الهلاك واضطر عدد كبير من الفرسان إلى التبرج ، ودفعهم نقص المطايا إلى ركوب الثيران ، وتم جمع الكلاب والماعز لحمل الآمتعة^(١).

وقد حدث ذلك على الرغم من استعانة الصليبيين بالأدلاء البيزنطيين وذلك لخبرتهم بهذه النواحي ومعرفتهم بمسالكها وطرقها وشعابها وآبارها ، ولا شك أن البيزنطيين كانوا صادقين في ارشادهم للطرق الآمنة إلا أنهم قبلوا بروح الكراهية والشك من قبل المؤرخين الصليبيين ونسوا ان البيزنطيين مثلهم لا حول لهم ولا قوة في طرق ومسالك كثيرا ما تعرضت لحروب طويلة بين المسلمين والبيزنطيين ، وما خلفته تلك الحروب من تغيير وهدم لمعالم الطرق . وفي منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ بلغ الصليبيون قونية *Iconium* التي وقعت في يد السلاجقة منذ ثلاثة عشرعاما والتي اتخذها قلع أرسلان مركزا لتجمعاته بعد هزيمته في نيقية ،

(1) *Gesta Frunctorum ., p . 23 . ; William of tyre : op . cit ., vol . 1 pp . 188-189 . ; Dugan : op . cit ., pp . 43-44 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٣-٤٤ . ؛ وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص ٢٨٣ . رنسيان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

وعندما دخل الصليبيون قونيه وجدوها مهجورة إذ هرب الترك الى الجبال بكل ما لديهم من منقولات وأمتعة ولم يوجد بالمدينة من يدافع عنها ، ووجدوا الصليبيون فرصة للاستجمام حيث إنها كانت منطقة خصيبة زاخرة بشتى أنواع الحياه ، وأشار عليهم بعض الارمن المقيمين فى قونية ان يحملوا معهم كميات وفيرة من الماء قبل أن يقدموا على اجتياز الصحراء المقفرة بين قونيه وهرقلة (1).

واصل الصليبيون زحفهم حتى وصلوا هرقلة ،وعندها فوجيء الصليبيون بجيش من الترك بقيادة الامير حسن أمير دانشمند ، ونشب قتال بين الفريقين ، وكان بوهيموند يقود الصليبيين فى هذه المعركة ، وأبدى فيها شجاعة فائقه ، ولم يشأ الترك أن تكون هذه المعركة فاصلة بين الجانبين فاسرعوا بالانسحاب الى الشمال ،وتذكر الصليبيون هنا وصية الامبراطور الكسيوس كومنين فلم يقوموا بمطاردة الاتراك ، وسقطت هرقلة فى ايدى الصليبيين (2).

وأشار المؤرخ المحدث رنسيما الى أن الاميرين التركيين نظراً لحرصهما على أملاكهما فى قبادوقيا كانا يأملان من حضورهما إلى هرقلة أن يحملا الصليبيين على اجتياز جبال طوروس إلى ساحل البحر المتوسط

(2) *Gesta Frunctorum* ., p . 23 . ; *William of tyre : op . cit ., vol . 1 p . 181 . ; Loewe : op . cit ., p . 315 . Runciman : op . cit ., vol . 1 p . 189 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٤ . ؛ وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ . ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣١ ؛ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(3) *Anna comnena : The Alexiad* ., p . 342 . ; *Gesta Frunctorum* ., p . 23 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٤ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص

وعدم سيرهما عبر الطريق المؤدى إلى أملاكهما فى قبادوقيا (١) ، إلا أنهما لم يحققا ما ارادوه وكانت محاولة فاشلة قام بها الترك لصد الصليبيين ذوى الروح المعنوية المرتفعة نظرا لتوغلهم المستمر فى اعماق آسيا الصغرى .
ويعد سقوط مدينة هرقله فى أيدى الصليبيين وبقائهم فيها بضعة أيام للراحة كان لابد وقتذاك من مناقشة الطريق الذى ينبغى اتخاذه حيث كان هناك طريقان : الطريق الاول يخترق جبال طوروس خلال الممر الكبير لبوابات قيليقية ، والطريق الاخر يودى الى انطاكية عبر قيصرية ومرعش ، ولقد أوصى تاكيتوس نائب الامبراطور البيزنطي بالطريق الثانى لانه يجتاز بلاداً يحكمها مسيحيون ومزايا أخرى ، وقبل بعض القاده مشورته ، ولقى الاعتراض من بعض القادة الآخرين الذين يحملون الكره للبيزنطيين ، لذا قد انفصل تنكرد وبلدوين واتجها صوب قيليقية وسلكا الطريق الذى يمر عبر جبال طوروس (٢).

أما بالنسبة لبقية الجيوش الصليبية وعلى رأسها المندوب البابوى ، ووجودفرى ، وبوهيموند ، وريموند ، فقد سلخوا طريقا ناحية الشمال الشرقى

(1) Runciman : *op . cit . , vol . 1 p . 189 .*

رنسيماى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(2) *Gesta Frunctorum . , p . 24 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٤ .

Grousset : Histoire des croisades et du Royaume France du Jerusalem . , p . 38 . ; Runciman : op . cit . , vol . 1 pp . 190-191 .

رنسيماى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit . , vol . 1 , p . 266 .

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ . ؛ محمود الحويرى : بناء الجبهة

الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدي للصليبيين ، ص ٤٤ .

نحو قيصرية ، وعند قلعة أوجو ستو بوليس *Augustopolis* (١) اصطدموا بجيش من الاتراك المسلمين يقوده الامير حسن أمير التركمان في قبادوقية فالحق الصليبيون بهم هزيمة أخرى (٢).

ثم تقدم الجيش الصليبي وأفضى به السير إلى أحد الحصون وتقرر تسليمه الى امير أرمن اسمه سيمون بناء على طلبه ، وكان معادياً للترك (٣).

ثم بلغ الصليبيون مدينة قيصرية واستولوا عليها في ٢٧ سبتمبر ١٠٩٧ م ، وقد هجرها الترك ، وأسرع الصليبيين في الحال الى الجنوب الشرقى فاستولوا على كوماننا *Comana (Placentia)* وهي مدينة وافرة الغنى والرخاء سكانها من الارمن ، وكان الدانشمنديون يحاصرون هذه المدينة إلى أن ابتعدوا عنها عند علمهم باقتراب مسير الصليبيين إليها ، ولما وصل الجيش الصليبي إلى كوماننا طلب سكانها من تاتيكيوس المندوب البيزنطي أن يرشح حاكماً يتولي أمر المدينة باسم الامبراطور ، فرشح لهذه الوظيفة فارس بروفنسالى اسمه بطرس الابوسى *Petrusade Alpibus*

(١) أوجستوبوليس : أو أغوستوبوليس ، هو الاسم الذي عرفت به قلعة قيرشهر التركية ، والتي تقع علي بعد ثمانين ميلاً غرب مدينة قيصرية في وسط آسيا الصغرى . انظر : لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٧٩ .

(4) *Anna comnena : The Alexiad . , p . 342 . ; Runciman :A history of the crusades . , vol . 1 p . 190 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit . , vol . 1 , p . 297 .

(1) *Gesta Frunctorum . , p . 25 .*

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٥ .

ثم تقدم الجيش الصليبي من كومانانا الى مدينة كوكسن *Cocxon* فأقام بها ثلاثة أيام^(١).

والحقيقة أن اختيار المندوب البيزنطي لحاكم لاتيني لهذه المدينة هي اختيار ذكي إن دل على شيء فإنما يدل على ذكاء ودبلوماسية تاتيكيوس الذي أعطى الانطباع بأن الفرنجة والبيزنطيين لا زال بإمكانهم أن يتعاونوا .

ثم تابع الجيش الصليبي زحفه الى ان وصل إلى مدينة مرعش في ١٣ اكتوبر ١٠٩٧ م ، فرحب سكانها الارمن بالصليبيين عند وصولهم



(2) *Gesta Frunctorum* ., p . 26 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٦ .

Anna comnena : The Alexiad ., p . 343 . *Grousset : op . cit* ., p

. 38 . ; *Runciman :A history of the crusades* ., vol . 1 p . 191 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

Dugan : The story of the crusades ., p . 48 .

وأعطوهم كل ما احتاجوه من مؤن^(١) وكان يحكم مدينة مرعش موظف بيزنطي اسمه ثاتول *Thatoul* . فتقرر إبقاؤه في وظيفته^(٢) .
والحقيقة إن قواد الصليبيين عملوا على إقامة روابط الصداقة مع المملكة الأرمنية ، ولقد

استخدم الصليبيون طرقهم واستعانوا بقواتهم واستقبلوا سفاراتهم وقاتلوا أعدائهم ، وأقاموا حكومات إقطاعية بالقرب منهم^(٣) .
وهكذا وجد الصليبيون في الأرمن عوناً قوياً ووجد الأرمن في الصليبيين حليفاً كبيراً ، ولاشك في أن هذه الصداقة التي قامت بين الطرفين في أول الأمر إنما كانت تستهدف مواجهة العدو المشترك ممثلاً في الدولة البيزنطية من ناحية ، والقوة الإسلامية ممثلة في الترك من ناحية أخرى^(٤) .

(3) *Gesta Frunctorum* ., p . 27 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٨ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

Macler : Armenia in cam. Med. Hist. vol . IV . p . 168 . ;
Morgan (J) : Histoire Du peuple Armenien ., p 168 . ; William (B) &
Litt (D) : The first crusade in cam . med . His . vol . v . p . 286 . ;
Lang : op . cit ., p . 201 .

عاطف مرقص بطرس : المرجع السابق ، ص ٢١٧ . ؛ عثمان الترك : صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ، ص ١٣٤-١٣٥ .

Runciman : A history of the crusades ., vol . 1 pp . 192-193 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(4) *Matthieu d'Edesse : op . cit ., p . 230 . ; Runciman : The first*
crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit ., vol . 1 , p .
298 .

(1) *Macler : op . cit ., p . 167 .*

إستارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص ٢٠٧ .

(٤) سعيد عاشور : " سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى " ص ١٤٢ . ؛ علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، ص ٤٦ .

وقد قيم بعض المؤرخين هذه المساعدات الارمينية بأنه لولاها لما تمكن الصليبيون من الوصول الى هدفهم وهو الشام وفلسطين^(١). حتى أن البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥م) صرح بعد تلك الأحداث بفترة طويلة قائلاً: " إن الصليبيين لم يتلقوا المساعدة إلا من الشعب الأرمني الذى قدم لهم الرجال والجياد والاسلحة والمون^(٢). ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين اتجهوا من مرعش نحو بلاد الشام حيث وصلوا إلى انطاكية فى عشرين أكتوبر ، وبذلك بدأ الغزو الصليبي للشام^(٣).

أما تانكرد وبلدوين الذين انفصلا عن الجيش الصليبي الرئيسي فقد اتجها إلى طرسوس فاستولى تانكرد عليها ، ووقع نزاع بين تانكرد وبلدوين مرتين أمام كل من طرسوس والمصيصة وذلك لمطامعهما الشخصية التى كانت تحركهما ، إلا أنهما أدركا فى النهاية أنه من الأفضل أن يتوطد السلم بينهما ، فنبذا الخصومة جانباً ورحلا الاثنان إلى الشام ثم تكونت بعد ذلك إمارة الرها الصليبية وهى أول إمارة للصليبيين^(٤).

(١) فؤاد حسن حافظ : تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم ، ص ١٤٩ .

(4) Morgan : op . cit . , p . 169 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(6) William of tyre : op . cit . , p . 185 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٣٥-٢٤٧ .

Gesta Frunorum . , pp . 24-25 .

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٤٥ . ؛ فوشية الشارتييري : المصدر السابق ، ص ١١٧-١١٩ .

Runciman : A history of the crusades . , vol . 1 pp . 197-205 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٦-٣٠٥ .

Runciman : The first crusade , Antioch to Ascalon in setton . op . cit . , vol . 1 , p . 300 .

على أن النجاح الذى حققه الصليبيون من غزوهم لأراضى سوريا وفلسطين قد وصل إلى مسامع لورد فرنجى اسمه بيتابين (*Poitevin ?*) ودفعه ذلك إلى أن يخطط ليمر علي بامفيليا وكبادوكيا لكى يستولى على الاراضى الشمالية ، وقد وصل إلى القسطنطينية حيث حضر المجمع مع الكسيوس وسألهم مرشدين ممن يعرفون الطرق فى آسيا الصغرى . ويذكر الكاتب السريانى المجهول أن الكسيوس خدعه وخانه وضلله ، حيث أرسل معه رجال قاده إلى الصحراء حيث لا يوجد ماء ولا طعام ، ووشى به إلى الترك وقاموا بتطويقه ورفاقه وباغتوهم لكونهم متعبين وأمطروهم بسحابات من السهام وقد ذبحوا وهزموا على يد الترك واستولوا على ذهب كثير كان معهم ، ولقد هرب اللورد الفرنجى مع قلة من رجاله وعادوا إلى أوطانهم (1).

ومما سبق يتضح لنا أن الحملة الصليبية الأولى قد شقت طريقها عبر آسيا الصغرى بعد أن حققت انتصارات عديدة على جيوش الأتراك المسلمين . ويجب تسجيل حقيقة هامة هنا . إن البيزنطيين لو لم يرشدوا الصليبيين لما استطاعوا أن يشقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى وذلك لما لهم من خبرة سابقة فى قتال الترك جعلتهم يبذلون النصيحة الصادقة . كما كان الصليبيون أوفياء بتعهداتهم للامبراطور البيزنطى حيث سلموه كل ما فتحوه فى آسيا الصغرى على الرغم من أن القاده الصليبيين كانوا يرتابون فى نوايا البيزنطيين . ولكن الصليبيين استقلوا بما سوى ذلك ، فكونوا فى الشرق الإمارات المختلفة . إمارة الرها (١٠٩٨ م) وانطاكية (١٠٩٨ م) ومملكة بيت المقدس (١٠٩٩ م) وطرابلس (١١٠١ م) .

(1) Anonymous Syriaac Chronicle : pp . 74-75 .

الحملة الصليبية سنة ١١٠١ م :

لم يكد الغرب الاوربي يعلم بالنجاح الذى حققته الحملة الصليبية الاولى فى استرداد الاراضى المقدسة من المسلمين ، حتى تحمس كثير من ابناء غرب أوربا لحمل الصليب والزحف نحو الشرق .

وقد تتابعت الجيوش الصليبية على القسطنطينية فوصلت أولاً الجيوش اللومباردية فى مارس سنة ١١٠١ م ، وكانت هذه الحملة قد غادرت ميلان فى ١٣ سبتمبر ١١٠٠ م وتولى قيادتها أنسلم بويه *Anselim of Bois* رئيس أساقفة ميلان وألبرت كونت بياندرانت وجبيريت كونت بارما وهيوكونت مونتيللو . وكان عدد كبير ممن التحق بهذا الجيش قد سبق له الاشتراك فى حملة العامة بقيادة بطرس الناسك سنة ١٠٩٦ م - فى الحملة الصليبية الاولى - حيث تألفت غالبيتها من العامة والدهماء (١).

وبعد أن وصلت هذه الجيوش الى القسطنطينية نصبوا معسكرهم بناء على الامر الامبراطورى خارج المدينة على ذراع القديس جورج على شاطئ البسفور ، ومكثوا شهرين فى انتظار باقى الجيوش والامدادات القادمة من فرنسا وألمانيا ، غير إنهم لجأوا إلى السلب والنهب مما أثار سخط البيزنطيين ، ولذلك طلب منهم الامبراطور العبور الى الشاطئ الاسيوى والانتظار فى مدينة كيفيتوت أوفى *Rufinel* حتى تصل الفرق الاخرى ، ولكنهم رفضوا فاضطر الامبراطور الى قطع المؤن عنهم لثلاثة أيام

(2) *Albert d'Aix : op . cit . , p . 559 . ; Anna comnena : The Alexiad . , p . 335 . ; Grousset : Histoire des croisades . vol . 1 pp 322-323 . ; Runciman : A history of the crusades . , vol . 2 pp . 18-19 .*

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

Chalandon (F) : The Earlier comneni in cam . Med . Hist . vol . IV p . 340 . ; Charles (M.B) : Crusades . vol . 1 p . 559 .

مما دفعهم إلى مهاجمة القسطنطينية ، كما هاجموا القصر الامبراطوري في بلاخرناى *Blochernae* وقاموا بقتل أحد أقارب الامبراطور ولم يردهم إلا قوادهم الذين اعتذروا إلى الامبراطور وتحركوا إلى الشاطيء الأسيوي^(١).

وبعد أن عسكر الجيش فى نيقوميديا وصلت الجماعات الألمانية بقيادة كونوراد كونستابل الامبراطور الالمانى هنرى الرابع (١٠٦٥-١١٠٥م) الذى قاد قواته عبر الاراضي اليونانية بدون متاعب ، وبعد استقبال كريم من قبل ألكسيوس عبر إلى آسيا الصغرى والتحق بالجيش اللومباردى ، كما وصلت الجماعات الفرنسية بقيادة ستيفن كونت بلوا ، وكذلك وصل العديد من القادة الصليبيين واستقبلهم الامبراطور استقبالا طيباً وعبرت تلك القوات المضائق لتلحق بالقوات اللومباردية^(٢).

قام الامبراطور باستدعاء ريموند الصنجلى الذى كان قد وصل إلى القسطنطينية فى صيف سنة ١١٠٠ م ليصاحب الحملة كمستشار لما له من خبرة ودراية بالمنطقة ، وأيضاً القائد البيزنطى تزيثاس *Tzitas* كناصر ومرشد للحملة ، كما أمد الحملة بقوات مرتزقة تقدر بحوالى خمسمائه جندى

(1) *Albert d'Aix : op . cit . , pp . 560-562 . ; Cate (J.L) : The crusade of 1101 in setton : A hist. of the crusades . , vol . 1 , (pp.343-367) . , pp . 353 . ; Maalouf : op . cit . , p . 64 . ; Chalandon (F) : Essai sur le reigne d'Alexis . , p . 225 . ; Grousset : Histoire des croisades . vol . 1 p . 323 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 pp . 19-20 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٩-٤٠ . ؛ سميث (جوناثان ريلي) :

الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ترجمة د. محمد فتحي الشاعر (القاهرة

١٩٩٣م) ص ١٤٢ . ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(2) *Cate (J.L) : op . cit . , vol . 1 p . 354 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p . 225 . ; Grousset : op . cit . , vol . 1 . p . 323 .*

، وهى متخصصة فى تسلق الجبال ^(١) ويذكر رنسيمان أن هذه القوات من الراجح أنها من البشناق (البجناك) ^(٢).

وكان هدف الحملة الصليبية لسنة ١٠١١م الوصول إلى الارض المقدسة فى بلاد الشام ، وكان الاتجاه الغالب والذى اقترحه كل من ستيفن كونت بلوا وريموند أوف تولوز هو أن يسلكوا الطريق المألوف لديهم والذى سلكوه فى عام ١٠٩٧ الماضى وهو طريق نيقية ، ودوريليوم وقونية الذى يؤدى بعد ذلك إلى الاراضى المقدسة ، وكان هذا الإقتراح مطابق لتعليمات الامبراطور ألكسيوس، ولكن كان للومبارديين وجهة نظر أخرى ، حيث أصروا على اجتياز آسيا الصغرى والاتجاه إلى بنى دانشمند فى قبادوقيا لغزو البحر الأسود أو خراسان كما كانوا يسمونها ، لإطلاق سراح بوهيموند من الاسر ^(٣). والواقع أن بوهيموند قد وقع فى الاسر أثناء محاولات الجانب الإسلامى والصليبيى للسيطرة على مدينة ملطية ، حيث دخل فى معركة مع الملك الغازى جومشكنين الدانشمندى انتهت بهزيمته ووقوعه هو ونفر من أصحابه فى الأسر ، ولقد نقل الامير الدانشمندى

(3) *Albert d'Aix : op . cit ., pp . 560-562 . ; Anna comnena : The Alexiad ., p . 365 . ; Cate (J.L) : op . cit ., vol . 1 p . 354 . ; Grousset : op . cit .,vol . 1 . p . 323 . ; Chalandon (F) : op . cit ., p . 226 .*

(4) *Runciman : op . cit ., vol . 2 p . 121 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(1) *Anna comnena : The Alexiad ., pp . 355-356 . ; Albert d'Aix : op . cit ., pp . 563-564 . ; Lamb : The crusades ., p . 241 . ; Chalandon (F) : op . cit ., p . 226 . ; Brehier : Les Crosades ., p . 84 . ; Cahen (Cloud) : La Syrie du nord al'Epoque des Croisades (Pars 1940) ., p . 231 . ; Cate (J.L) : op . cit ., vol . 1 p . 354 .*

زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى ، ص ٨٢ .

بوهيموند إلى قلعة نيكسار التي تقع في المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الاسود^(١).

ومن الواضح أن هذا الرأي الذي اتخذته اللومبارديون بشأن انقاذ بوهيموند بعيد تماماً عن الصواب لأن قلعة نيكسار التي وضعوا فيها بوهيموند تقع بالقرب من الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الاسود، وهذا يعنى أن الحملة سوف تخوض مغامرة محكوم عليها بالفشل لأنها سوف تتوغل في أقصى شمال شرقي الأناضول ، وكان اللومبارديون يجهلون الصعوبات الطبيعية والاستراتيجية .

تحرك الجيش الصليبي بعد ذلك من نيقوميديا في بداية شهر يونية سنة ١٠١١م ومعه ريموند وفرقة التركوبولى في طليعة الجيش ، حيث وصلوا في ٢٣ يونيه إلى أنقره واستولوا عليها بعد ان أدركوا ضعف دفاعاتها وحاميتها التركية وقاموا بالاستيلاء عليها ، ثم قاموا بتسليمها إلى ممثلى الامبراطور طبقاً للقسم الذى حصل عليه ألكسيوس من أمراء الغرب^(٢).
على ان تحركات الصليبيين دفعت قلعج ارسلان بعد استيلائهم على انقره إلى أن يكتب إلى أمير بنى دانشمند الامير غازى (١١٠٥-١١٣٥) لتجديد التحالف ويحثه على الاستعداد للقتال ، كما أرسل إلى رضوان أمير حلب وحثه على الجهاد لكى يبعث إمداداً من الجنوب^(٣).

(2) Anonymous Syriaac Chronicle : op . cit ., p . 74 . ; Albert d'Aix : op . cit ., p . 524 . ; Matthieu d'Edesse : op . cit ., pp . 230-231 . ; Boase and others : The cilician Kingdom of Armenia edited by T.S.R.Boase (London 1978) . , p . 19 . ; Gabriele : Arab historians of the crusade . translated from the Italian by E.J Costello (London 1984) . , p 13 . ; Loewe : op . cit ., p . 315 . ; Previte : The shorter Cambridge Medieval History ., vol . 1 p . 523 .

(3) Cate (J.L) : op . cit ., vol . 1 pp . 354-355 . ; Chalandon (F) : op . cit ., p . 326 .

(4) Matthieu d'Edesse : op . cit ., p . 243 . ; Runciman : op . cit ., vol . 2 p . 22 .

اتجه الجيش الصليبي بعد ذلك من أنقره نحو جنجرة^(١) *Gangra* فوجدوا أن تحصيناتها القوية تحول دون تدميرها فاكثفوا بنهب القرى والأراضي التي حولها ، وحصلوا على ما صادفوه من مؤن ، ثم تقدموا صوب الشرق ، ولما استبد بهم التعب والجوع والعطش بدأ يستمعون إلى نصائح الكونت ريموند الذي اقترح أن يسيروا صوب الشمال الشرقي إلى قسطنطينية *Kastamuni*، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود ، ولقد عانى الجيش الصليبي في الصحراء معاناة شديدة حتى قيل أن الأتراك رشوا ريموند حتى يقود الجيش إلى الهلاك^(٢).

وفي طريقهم إلى قسطنطينية تعرضت مقدمة الجيش الصليبي إلى هجوم تركي مفاجيء راح ضحيته سبعمائة مقاتل من اللومبارديين ، واتهم اللومبارديون ريموند بالخيانة والتواطؤ مع الإمبراطور ، ولقد أجبرت هذه الحادثة رجال الحملة على أن يسلكوا الطريق الرئيسي ، وسارت الحملة فاجتازت نهر هاليس ووصلت إلى أماسيا ثم إلى بلاد الدانشمنديين – وكان بوهيموند ما يزال أسيراً بمدينة نيكسار – ووصل الصليبيون بعد أن قاموا بنهب إحدى القرى المسيحية أثناء سيرهم إلى مرسيفان *Mersivan* التي تقع ما بين نهر هاليس وأماسيا في أوائل أغسطس سنة ١١٠١ م^(٣).

(١) جنجرا : تعرف بجنجرا أو خنجرة أو غنجرة ، وهي مدينة تقع على بعد خمسين ميلاً جنوب مدينة قسطنطينية ، وتعتبر هذه المدينة من أهم مدن البحر الأسود وأشهرها . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرفية ، ص ١٩١ .
Choniates (Nicetas) : op . cit . , p . 28 .

(1) *Albert d'Aix : op . cit . , pp . 566-567 . ; Grousset : op . cit . , vol . 1 . p . 325 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , vol . 1 p . 355 .*

(2) *Albert d'Aix : op . cit . , p . 567 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , vol . 1 p . 356 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 23 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

وفى تلك الاثناء أخذت قوى الأتراك المسلمين تتجمع لمواجهة الخطر الصليبي ، وضمت قوات الملك غازي جمشتمكين الدانشمندى ، وقوات قلج أرسلان ، وقوات رضوان بن تتش أمير حلب وأمير مدينة حران (١) قراجا التركي ، والتقت القوات الاسلامية بالجيش الصليبي ، ودارت معركة بين الجانبين استخدم فيها الترك مهارتهم وخططهم الحربية ، واستمرت المعركة عدة أيام ولم يمض وقت طويل حتى فقد اللومبارديون تماسكهم ، فولوا الأدبار مذعورين ، ولم تفلح محاولات ريموند لحثهم على الثبات ، وظل الفرنسيون والالمان يستبسلون فى القتال حتى أرتدوا ، كما اضطر ريموند الى الانسحاب ومعه حرسه من البروقنسالين والبيزنطيين المصاحبين ، واتجه شمالاً نحو البحر الاسود ، فوصل إلى ميناء بفران ثم إلى سينوب ومن هناك أبحر إلى القسطنطينية وكان انسحاب ريموند بمثابة إعلان لنهاية الحملة لأن باقى الامراء لاذوا من بعده بالفرار ، وقام الترك بآبادة معظم من كان بالمعسكر الصليبي وزخرت أسواق الرقيق ودور الحريم بما أصابه الترك من الفتيات والاطفال (٢).

وقد بالغت بعض المصادر التاريخية فى ذكر عدد قتلى هذه المعركة حيث ذكر ابن الاثير إنه : " لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف

(١) حران : قسبة ديار مضر وهي قريبة من الرها والرقعة . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

(4) *Albert d'Aix : op . cit . , pp . 569 – 573 . ; Anna comnena : The Alexiad . , p . 357 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 357 . ; Duggan : op . cit . , p . 85 . ; Grousset : op . cit . , vol . 1 . p . 327 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 24 .*

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٦ . ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤ . ؛ زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ٨٢-٨٣ .

غير ثلاثة آلاف هربوا ليلاً وأفلتوا مجروحين " (١) . وإذا كان ابن الأثير محقاً فيما ذكره فسوف يصبح عدد هذا الجيش مساوياً لعدد قوات الحملة الصليبية الأولى التي قدر عدد أفرادها بحوالى ثلاثمائة ألف مقاتل . ولقد ترتب على هذه المعركة نتائج بالغة الأهمية على كافة الاطراف المشتركة فيها ، فعلى الجانب الاسلامى يعتبر الانتصار الذى حققه المسلمون على الصليبيين فى موقعة مرسيفان انتصاراً هاماً بلغ من اهميته أنه قضى على الاثر السىء الذى تركه فى نفوس الأتراك المسلمين انتصار الصليبيين فى معركة دور بليوم . سنة ١٠٩٧ م . أما بالنسبة للصليبيين فقد فشلوا فى تحقيق هدفهم بإطلاق صراح بوهيموند ، واتهموا البيزنطيين بالخيانة واعتبروهم مسئولين عما حل بهم من كارثة ، بينما أغضب البيزنطيون غباء الصليبيين وجحودهم وإنكارهم لما بذلوه لهم من عطاء . والحقيقة أن اللومباردين زينت لهم أنفسهم أن بإمكانهم التقدم إلى بغداد وتدمير الخلافة العباسية من خلال زحفهم على آسيا الصغرى (٢) . ولقد تشكك ألبرت الآخنى فى سجلاته التاريخية أن ينجحوا فيما أقدموا عليه ، والغريب أن المؤرخ المحدث جوناثان ريلى سميث يعتبر اختيارهم للناضول كطريق لتحقيق هذا الهدف هو اختيار مقبول ولا غبار عليه حتى ولو انطوى على مخاطر (٣) .

ويعلق أحد المؤرخين المحدثين ذاكراً إن هروب الفرسان فى المعارك تاركين خلفهم زوجاتهم وأطفالهم قد أصبح شيئاً مألوفاً دون توبيخ وتعنيف من الحوليات التاريخية ، هذا الامر هو بالفعل تعليق سىء على تصرف

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(2) Albert d'Aix : op . cit . , p . 563 . ; Brehier : op . cit . , p . 84 .

(٣) سميث (جوناثان ريلى) : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

وسلوك الفارس الصليبي ومخالف لنظريات الفروسية والشهامة (١) المعروفة في العصور لوسطى .

ولقد استقبل الامبراطور ألكسيوس الناجين من المعركة بكل ترحيب وحاول أن يعرضهم ويحسن إليهم بالعطايا والهدايا ثم جهزهم ليكملوا طريق حجهم إلى القدس عن طريق البحر (٢) . وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي السابق يشق طريقه في آسيا الصغرى وبعد أن غادر نيقوميديا وصل إلى القسطنطينية في يونيه سنة ١١٠١ م جيش فرنسي يضم خمسة عشرة ألف مقاتل يقودهم وليم الثاني كونت نيفرز *William II Count of Nevers* (١٠٨٩-١١٤٧م)، وكان وليم قد قاد قواده عبر إيطاليا وبرنديزي إلى أفلونا والتزم الجيش الدقة والنظام أثناء عبوره، وحظى الكونت وجيشه باستقبال كريم مكن الامبراطور ألكسيوس وأعطى لهم معسكراً على خليج القديس جورج ، وكان وليم يومياً في حضرة الامبراطور لكنه عزم على ألا يمكث في القسطنطينية ، لذا عبر بجيشه إلى الساحل الاسيوي (٣).

وتحرك الجيش على امل الانضمام وللحاق بإخوانهم اللومبارديين ،وعندما وصلوا إلى أنقره أدركوا أنه ليس بمقدورهم اقتفاء أثر اللومبارديين ،ويعد توقف يوم كامل اتجه الجيش جنوباً صوب قونية وحاولوا الاستيلاء عليها ، لكن حاميتها السلجوقية دافعت عنها ببسالة ،ولما فشلوا في الاستيلاء عليها سار الجيش إلى هرقله شرق مدينة قونية ، وكان الترك قد

(4) Cate (J.L) : *op . cit in setton . , p . 357 .*

(5) *Anna comnena : The Alexiad . , p . 357 . ; Chalandon (F) : op . cit . , pp . 574-575 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 358 .*

(1) *Albert d'Aix : op . cit . , pp . 574-575 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 358 .*

إسحاق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين (٨٦٩-١٢٠٤) ، ص ١٣٢ .

دمروا كل مصادر المياه ، واشتد التعب بالجيش الصليبي ، فتقدم قلج ارسلان وملك غازي الدانشمندي الذين كانا قد قضيا على الجيش اللومباردي في مرسيفان من قبل ، فهاجما جيش وليم وأبادوه إبادة تامة في معركة لم تستمر طويلاً وذلك في أواخر أغسطس سنة ١١٠١ م ، ولم ينج من المعركة إلا الكونت وليم واخوه وبعض الفرسان في قيليقية ومنها توجهوا بصحبه مرتزقة التركوبولى (البجناك) ليقودوهم إلى انطاكية (١).

وفي الوقت الذى كانت القوات الاسلامية التركية تقوم بالقضاء على الجموع الفرنسية وصل إلى القسطنطينية الجيش الثالث من تلك الحملة فى أوائل يونيه سنة ١١٠١ م تحت قياده وليم التاسع دوق أكويتين وولف الرابع دوق بافاريا واستقبلهم الامبراطور بالود وعاملهم " كأبناء " وأمطرهم بالهدايا والاموال ، وحصل منهم على قسم الولاء والذى كان مشابها للقسم الذى اقسامه فى عام ١٠٩٧ م الصليبيون كما جعل ألكسيوس الاسواق متاحة لجميع الصليبيين (٢).

غير أن الارتياح بدأ يساور الجنود الالمان من نوايا الامبراطور الكسيوس كومنين خاصة إنهم لم يسمعوأ أى اخبار عن اللومبارديين ، وشكوا فى أن يكون اليونانيون (البيزنطيون) قد أجبروا الصليبيين على العبور إلى آسيا الصغرى كارهين قبل وصول الامدادات ، وخشوا أن يخدعهم لصالح

(2) Albert d'Aix : op . cit . , pp . 575-578 . ; Grousset : op . cit . , vol . 1 . pp . 329-330 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 359 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p . 228 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 pp . 26-27 .

رنسيومان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٨-٤٩ .

Brehier : The life and death of Byzantium . translated by Margaret Vaughan , p . 219 .

إسحاق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(3) Albert d'Aix : op . cit . , pp . 579-580 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p . 229 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 360 .

الترك ، فاستولى الذعر على الحجاج حتى لجأ البعض إلى بيع خيولهم واشتروا حق عبور السفن إلى الاراضى المقدسة، وراجت الاشاعات أن بإمكان ألكسيوس أن يحطمهم فى البحر تماما ، كما يستطيع أن يدمرهم فى البر ، ومن ثم غادر كثير منهم السفن وعادوا إلى الرحلة البرية (١).

تحرك الجيش الصليبي بعد أن اتخذ الطريق البرى وزوده الامبراطور ألكسيوس بمرشدين من التركويولى وسلك الصليبيون نفس الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية الاولى . ولقد اتبع الترك نفس أسلوبهم حيث تركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد اخلائها تماماً مع احراق المحاصيل ، كما ضربوا مستودعات المياه والابار وكان الطقس شديد الحرارة (٢).

واصل الجيش الصليبي تقدمه ومر على قونية وقام الصليبيون بتحطيم " سلامة " ثم تقدموا إلى هرقله واستولوا عليها ، ثم اندفعوا فى غير نظام إلى النهر الذى كان يجرى وراء المدينة ليطفئوا ظمأهم واضطرب نظام الصليبيين ، ثم انقضت عليهم قوات قلج ارسلان والامير غازى والامير قراجا وأطبقوا عليهم من جميع الجوانب ، فأبادوا الجيش الصليبي إباده شبه تامة ، ولم يستطيع النجاة سوى القلة القليلة التى هرب بعضها إلى الجبال والبعض الآخر تبع التيار طلباً للنجاه ، ومعظم المسيحيين إما قتلوا أو استبعدوا ونجى كل من وليم التاسع دوق أكويتين وولف الرابع دوق بارفاريا

(1) Cate (J.L) : op . cit ., in setton ., pp . 360-361 . ; Chalandon (F) : op . cit ., p . 229 .

إسحاق عبيد : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(2) Cate (J.L) : op . cit ., in setton ., p . 361 . ; Chalandon (F) : op . cit ., p . 229 . ; Runciman : op . cit ., vol . 2 p . 28 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥١ .

الليدان اتجهت الى طوسوس ثم الى انطاكية وكانت هذه الموقعة في اوائل سبتمبر سنة ١١٠١م^(١).

وهكذا لقيت حملة ١١٠١م بأقسامها الثلاثة خاتمة مشئومة ، ولا شك في أن هذه الحملة كان لها نتائج خطيرة ، إذ انها عملت على تقوية الروح المعنوية لدى الاتراك المسلمين بآسيا الصغرى ، كما - لأول مرة - اثبتت ان اتحاد الترك في ملاقاته الجيش الصليبي قد أتى بثمرات الطيبة ، كما أن تفرع الصليبيين وتقدمهم في طرق مختلفة وبطرق مختلفة أيضاً وعدم استماعهم للنصح وعدم كفاية مؤنهم واصطحابهم جموعاً غفيرة من غير المقاتلين ، كل هذه الاسباب كانت من عوامل فشل الصليبيين في تحقيق أى نجاح ، أما البيزنطيون فقد حملهم الصليبيون مسئولية هذه الكارثة ، واتهموا الامبراطور ألكسيوس بالخيانة .

الحملة الصليبية الثانية فى آسيا الصغرى

(١١٤٧-١١٤٩ م) :

جدت ظروف خطيرة فى الفترة التى وقعت بين الحرب الصليبية الاولى والحرب الصليبية الثانية . فى جبهة الصليبيين حل الشقاق محل

(3) Albert d'Aix : op . cit . , pp . 581-582 . ; Grousset : op . cit . , vol . 1 . pp . 231-232 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p . 229 . ; Cate (J.L) : op . cit in setton . , p . 361 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 29 .

رنسيومان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

روت القصص الشعبية عن أن دوقة النمسا إدا Ida قد وقعت في الأسر في هذه المعركة وعاشت في حريم أحد الأمراء المسلمين حيث ولدت منه ولداً أصبح بطلاً من أبطال المسلمين وهو زكي . انظر :

Cate (J.L) : op . cit . , in setton . , p . 362 .

الوفاق وساعت العلاقات بين الامارات الصليبية فى بلاد الشام بالإضافة إلى التوتر الدائم بينهم وبين الدولة البيزنطية ، وبينما كانت الجبهة الصليبية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ، وبسبب الحقد والتنافس بين تلك الامارات الصليبية من جهة أخرى ، وكانت الجبهة الإسلامية تشتد وتقوى حول الصليبيين ، فقد أفاق المسلمون وهبوا من سباتهم وعملوا على استعادة ما فقدوه .

وكان أهم ما نجح المسلمون فى استعادته هو مدينة الرها من الصليبيين حيث استطاعت قوات عماد الدين زنكى أن تستولى عليها بعد حصار دام حوالى اربعة أسابيع ، حيث سقطت فى أيدي المسلمين فى ٢٦ جمادى الاخر ٥٣٩ هـ (٢٤ ديسمبر ١١٤٤ م) . وكانت هذه أولى الامارات الصليبية التى تقوم فى الشرق العربى الاسلامى وأسبقها الى السقوط . وكان لسقوطها صدمة نفسية حيث أحدث سقوطها دويماً هائلاً فى أوساط الصليبيين فى بلاد الشام والعالم المسيحى فى الغرب الاوربى ، إذ أن المدينة كانت تتمتع بمكانة دينية فى تاريخ المسيحية ، وكان سقوطها مؤشراً بترنح البناء الصليبي الكبير الذى نجحت الحملة الصليبية الاولى فى إقامته بالشرق^(١).

(١) عن سقوط الرها انظر :

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩-٢٨٠ . ابن الأثير : التاريخ

الباهر فى الدولة الأتابيكية لاموصل ، ص ٦٦-٧٠ . ابن العديم : زبدة الحلب من

تاريخ حلب . ج ٢ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٥٦-١٥٩ .

William of tyre : op . cit . , vol . II . pp . 140-144 . ; Mayer (H.E) : The crusades . , pp . 94-95 . ; Grabois (A) : The Illustrated Ency of Medieval Civilization . p . 248 .

علية الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، ص ٢٩٥-٣٠٨ .

بلغ مسامع الغرب الاوربي نبأ سقوط إمارة الرها الصليبية بأيدى المسلمين حيث أذاع الحجاج والمسافرون القادمون من بيت المقدس إلى أوطانهم سنة ١١٤٥م الانباء الحزينة عن سقوط الرها ، كما أن الاساقفة الارمن الذين قدموا إلى أوربا بعد ذلك بوقت قصير للتشاور مع البابا إيوجين الثالث *Eugenius III* (١١٤٥-١١٥٣م) حول إمكانية توحيد كنيسة روما مع الكنيسة الارمنية قد أبلغوه بأخبار الشرق وفي نفس الوقت أرسل الصليبيون في الشرق رسلاً الى الغرب الاوربي لطلب النجدة ^(١).

وقام البابا إيوجين الثالث في روما بتحريض الرأي العام الغربى ضد المسلمين حيث أنفذ من ناحيته رسلاً الى شتى اقطار الغرب ليخبروا الامراء والشعوب بالمحنة التى يمر بها إخوانهم فى الشرق ، وكان من بين هؤلاء المبعوثون برنارد راعى دير كليرفو (١٠٩٢-١١٥٣ م) الذى نجح فى إثارة الغرب بالقيام بحملة صليبية ، فأبدى الناس كافة مواقفهم السريعة على ما دعاهم إليه وأقسموا ليزحفوا إلى بيت المقدس ووضعوا شارة الصليب على أكتافهم استعداداً للرحلة ، ولقيت حملة البابا هذه تأييداً واسعاً من أغلب ملوك أوربا حيث قرر كلاً من كونراد إمبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا الخروج للدفاع عن الصليبيين فى الشرق ^(٢).

(2) Berry (virginia .G.) : *The second crusade ., in setton , Hist . of the crusades . vol . 1 (pp . 463-512) ., p . 466 .*

(1) William of tyre : *op . cit ., pp . 163-165 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٦٧-٢٦٩ .

Berry : *op . cit ., p . 248 . ; Matthew (D) : Atlas of Medieval Europe . , p . 91 . ; Rice (T.T) : Byzantium . , p . 98 . ; Ahrweiler (Helene) : Byzance et la Mer . , p . 237 . ; Levchenko (M.V) : Byzance des origines A 1453 ., p . 230 . ; Charles (M.B) : Crusades . vol . 1 p . 559 .*

والحقيقة أن الملك لويس ملك فرنسا حين أبدى استجابة سريعة للاشتراك في الحملة الصليبية ، لم يكن إلا رد فعل لما اقترفته يده دون مبرر في المذبحة التي قام بها جنوده في مدينة فترى *Vitry* وهي المدينة التي أشعل فيها النيران أثناء صراعه مع كونت شامباني وأحرقها بما فيها من أحياء حيث نذر للقيام بحملة صليبية كنوع من راحة الضمير والندم والتوبه^(١) أما اشتراك الامبراطور الالمانى كونراد فيرجع الفضل فيه الى برنارد بعد أن استمع الى موعظته المؤثرة التي ألقاها في كاتدرائية سبير *Speyer* فى ٢٤ ديسمبر ١١٤٦ م^(٢).

وهكذا اكتسبت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ م طابعاً مختلفاً فى أساسه عن الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٦ م ، فبينما اتخذت الحملة الاولى فى أواخر القرن الحادى عشر شكل هجرة ضخمة تألفت من جموع مختلفة من المسيحيين الغربيين انتموا الى أجناس ودول متعددة ، إذا بالحملة الصليبية الثانية قرب منتصف القرن الثانى عشر تتألف من جيشين كبيرين ، ينتميان إلى أكبر دولتين فى الغرب الاوروى ويقودهما أكبر عاهلين فى العالم الكاثوليكي وهما كونراد الثالث ولويس السابع^(٣).

وعلى هذا النحو بدأت الحملة الصليبية الثانية على الشرق الاسلامى ، وقرر الملك لويس السابع أن يرتحل بجيشه فى ١٥ يونيه ١١٤٧ م ، بينما اتخذ كونراد الثالث منتصف مايو تاريخاً لرحيل الجيوش

(2) Tout (T.F) : *The Empire and the papacy (918-1273)* ., p . 284 .

باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(3) Berry : *op . cit* ., p . 475 .

باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٥ .

الالمانية علي أن تلتقى الجيوش كلها بالقسطنطينية ، والملاحظ هنا أن العاهلين قررا أن يسيرا كل منهما مستقلاً عن الآخر وفي أزمنة مختلفة حتى يتجنبنا أية منازعات تقع بين جيوشهما من ناحية وحتى لا يؤدي مسير الجيشين معاً إلى حدوث مشاكل في التموين من ناحية أخرى (١).

اتخذ كونراد الثالث الطريق الرئيسي الذي سلكته الحملة الصليبية الأولى ، ولدى سماع الامبراطور البيزنطي مانويل (١١٤٣-٢١١٢ م) في ذلك الوقت عن اعتداءات الجيش الالمانى على المدن البيزنطية فى البلقان سارع بإرسال جيش بقيادة بروزوخوس *Prosuch* والقائد البيزنطي بازيلوس الملقب تزكاندليس *Tzicandyles* واشتبكا مع الالمان عند مدينة أدرنة (أدرينا نويل *Adrianopol* ومدينة لونجى *Longi* المجاورة . وعندما اشتد قلق الامبراطور مانويل أرسل إلى كونراد ، يطلب منه أن يتخذ الطريق الى مدينة سيستوس *Sestos* الواقعة على الشاطئ الاوربى لمضيق الدردنيل ، ويعبر منها إلى آسيا الصغرى مباشرة دون المرور بالقسطنطينية ، لكن طلب مانويل قوبل بالرفض من قبل الامبراطور كونراد ، وعزم الامبراطور مانويل على استخدام القوى فى مقاومة الصليبيين ، ولكنه غير رؤية والغى الاوامر التى أصدرها الى بروزوخوس وبازيلوس (٢).

واصلت القوات الالمانية سيرها وكان الامبراطور مانويل يتربح أخبارها وشرع فى تحصين العاصمة ، ولما وصل الجيش الالمانى إلى حدود الدولة البيزنطية فى أوربا أرسل اليهم الامبراطور سفارة مكونة من مبعوثين

(١) محمود الحويري : بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ، ص

(I) Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 29 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٢٠-٤٢١ .

Berry : op . cit . , p . 485 . ; Hussey : *Byzantium and the crusades in setton* . , p . 135 . ; Ostrogorsky : op . cit . , p . 339 .

هما ديمتريوس ومايروس *Mairus* للوقوف على نوايا كونراد ورفضاً السماح لهما بعبور الاراضى البيزنطية إلا بعد أن أقسم كونراد وكبار قادة الجيش الالمانى للعمل على مراعاة مصالح الامبراطورية^(١).

بلغ الجيش الالمانى العاصمة فى العاشر من سبتمبر ١١٤٧م و(الثانى عشر من ربيع الثانى ٥٤٢ هـ) وكانت العلاقات متوترة بين الطرفين ، ولقد أغلق أهالى القسطنطينية أبوابها فى وجه الالمان ، وكان الأهالى يدلون الحبال من فوق الاسوار مشترطين أخذ المقابل المادى مسبقاً قبل عملية المبادلة بالطعام ، ولقد استاء الالمان من البيزنطيين حيث لجأوا معهم الى الغش والخداع كما أن اللامبراطور مانويل استخدم كل الحيل ضد الالمان^(٢).

ولم تلبث العلاقات التى كانت بين مانويل وكونراد أن تحسنت ، ويرجع ذلك إلى برتاسا من سولزباخ *Bertha of Sulzbach* زوجة الامبراطور مانويل ، وفى نفس الوقت هى أخت زوجة كونراد وكانت معروفة فى القسطنطينية باسم إيرين حيث لعبت دوراً فى التوفيق بين العاهلين^(٣).
والحقيقية أن مانويل بذل كل ما فى طاقته ومارس كل الضغوط على كونراد الثالث ليجبره على عبور البسفور ، ونقل قواته الى آسيا الصغرى قبل وصول الجيش الفرنسى لان اجتماع الجيشين على ابواب العاصمة ربما بكل تأكيد يشكل خطورة على العاصمة لكبر حجم الجيشين ، ولقد حذا حذوه فى

(2) *Kinnamos : Deeds of John and Manuel comnenus trans. By Charles M.Brand (New York 1976) ., pp . 66-69 .*

(3) *Choniates (Nicetas) : Historia ., pp . 87-89 .*

(4) *Berry : op . cit ., p . 486 . ; Austin lan pool (M.A) : Germany 1125-1152 n Cam. Med. Hist. (cam , 1979) ., p . 256 . ; Runciman : op . cit ., vol . 2 p . 267 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

Ostrogorsky : op . cit ., p . 338 .

هذه السياسة جده الامبراطور الكسيوس كومنين عندما جاءت الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٧^(١).

بعد أن عبر كونراد البسفور تقدم بقواته حتى وصل الى خلقدونية ، ثم طلب مانويل أن يمده بالادلاء ليصاحبه اثناء اجتياز آسيا الصغرى ، فعهد مانويل بهذا الامر إلى ستيفن قائد حرس الورنك وفي الوقت ذاته نصح الالمان أن يتجنبوا الطريق المستقيم الذى يخترق شبه جزيرة آسيا الصغرى وأن يتخذوا الطريق الساحلى إلى أضاليا^(٢) وبذا يسلكون بلاداً خاضعة للامبراطور ،واقترح أيضاً أنه لمن الخير لهم أن يعيدوا إلى أوطانهم كل الحجاج الذين لن يشتركوا فى القتال مما يترتب على بقائهم من ارتباك وتعطيل للجيش ولكن كونراد لم يأخذ بنصائح الامبراطور مانويل^(٣).

تقدم كونراد بقواته حتى وصل إلى مدينة نيقية وهناك أعاد النظر فى خط سير الحملة ،ولهذا قسم جيشه الى قسمين القسم الاول الرئيسى جعله كونراد تحت قيادته وسار به فى ١٥ أكتوبر ١١٤٧ م على الطريق الذى يخترق قلب آسيا الصغرى ،والذى سبق أن اتخذته الحملة الصليبية الاولى ، إذ رأى أنه اقصر الطرق الى بلاد الشام ، والقسم الثانى وهو غير

(1) Vasiliev : op . cit . , vol II . p . 420 . ; Ostrogorsky : op . cit . , pp . 380-382 . ; Berry : op . cit . , p . 486 .

(٢) أضاليا : هي مدينة أنطالية (أتاليا-أداليا) وهي ميناء كبير تقع على البحر المتوسط فى القسم الجنوبي من آسيا الصغرى وقد ورد هذا الاسم كثيرا فى أخبار الحروب الصليبية بصور ستالية Setalia أو أتالية Attaleia انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٠ . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ١٨٣-١٨٤ .

(3) Runciman : op . cit . , vol . 2 pp . 267-268 .

رنسيومان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٠-٤٣١ .
Grousset : op . cit . , T.2 . pp . 233-234 . ; Berry : op . cit . , p . 486 . ; Brehier : Les Croisades . , p . 105 . ; Ostrogorsky : op . cit . , p . 339 .

سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠ م ، (الإسكندرية ١٩٨٤م) ، ص ١٤٤ . ؛ محمد زكي نجيب : علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية فى عهد أسرة كومنين ، ص ١٤٨ .

مسلح حيث ضم المشاة غير المحاربين من نساء وشيوخ وأطفال وعهد بقيادته الى أوتو أف فراينج - وهو أخ غير شقيق للامبراطور - ومطران فراينج واتخذ هذا القسم الطريق الذي يمر الى لاويكا على نهر ليكوس ثم الى أزاليا^(١).

ويعقد المؤرخ الفرنسي أودو أوف دويل مقارنة بين الطرق التي تؤدي إلى انطاكية ، حيث يذكر أنه كان هناك ثلاثة طرق كل طريق منها كان له سلبياته وإيجابياته ، ويذكر أن الامبراطور قسم جيشه ، واختار اوتو فراينج الطريق الاوسط الذي كان أكثر اماناً عن الطريقين الآخرين وإن كان طويلاً قليلاً^(٢).

أصدر كونراد أوامره إلى قواته بالتقدم من نيقية إلى قونية عاصمة السلطان ، ولم يأخذ كونراد مؤناً إلا ما يكفي لتموين الجيش لمدة ثمانية أيام فقط ، وكانت الرحلة شاقة ومرهقة أثناء سيرهم لوعورة الطريق عبر الممرات والجبال ، ومضى الجيش ببطء حتى إنهم استنفذوا إمداداتهم وقد رافقهم في رحلتهم هذه مرشدين بيزنطيين^(٣).

ولقد شكوا الالمان من البيزنطيين من أن وكلاء الامبراطور خلطوا ما كان يقدم إليهم من الدقيق بالجير مما أضر بصحة الجيش الالمانى وإن البيزنطيين لجأوا الى تزييف العملة التي كانوا يستخدمونها فى البيع ، حيث

(4) Kinnamos : *op . cit . , p . 68 . ; Grousset : op . cit . , T.2 . p . 234 . ; Berry : op . cit . , pp . 495-496 . ; Mayer : op . cit . , p . 95 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 268 .*

رنسيبان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣١ . ؛ سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(5) *Odo of Deuil : De profectio ludovici vii in orientem , Edited with an English translation by virginia Gingerick Berry (New York 1948) , p . 89 .*

(1) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 91 . ; Berry : op . cit . , pp . 495-496 .*

أمر الامبراطور بسك عملة من الفضة التالفة لشراء ما يبيعه الجيش الالمانى وإن الامبراطور طلب من المرشدين تضليل الحملة والهرب بعد ذلك ، وهذا ما أورده المؤرخ خونياتس فى هذا الشأن ويختم حديثه قائلاً إنه " لا يدرى إن كان قد تم هذا بموافقة الامبراطور أم لا وأيضاً إن كان ذلك صحيحاً أم لا " (١).

واصل الجيش الالمانى تقدمه فى الاراضى السلجوقية إلى قونية ثم استدعى الامبراطور كونراد الثالث المرشدين البيزنطيين حيث رأى انصرام الايام المحددة دون أن تبلغ الحملة قونية وسألهم عن ميعاد وصول الجيش الى قونية ، واستفسر منهم عما أدى الى ان يستغرق الجيش زمناً جاوز ما اتفقوا عليه فى البداية دون الوصول الى غايتهم ! فأكد له المرشدون ان الجيش سوف يصل الى قونية فى مدى ثلاثة أيام ، وصدقهم الامبراطور ، فلما كانت الليلة التالية هرب المرشدون أثناء الليل وتركوهم بلا هاد يهديهم طريقهم (٢).

ولقد روى المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل مراحل تحرك الجيش الالمانى فى آسيا الصغرى حيث كانت رحلتهم شاقة أثناء توجههم من نيقية الى قونية ، وفى اليوم الرابع من تحركهم هرب الدليل البيزنطى الخائن من خلال طرق قصيرة يعرفها ، وعند بزوغ الفجر علم حاملوا الرايات - الذين كانوا على علاقة سيئة به - بهروبه وفجأة رأى الصليبيون أن الاتراك السلاجقة قد تمركزوا على قمم الجبال المحيطة بهم وأن الالمان حزنوا لأن

(2) Choniates (Nicetas) : *Historia* ., pp . 87-89 . ; Michaud (M) : *Histoire des croisades (Paris 1838)* ., T.1 p . 382 .

(3) William of tyre : *op . cit* ., vol . II pp . 168-169 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

الدليل البيزنطي هرب قبل ان يلقي الجزاء المناسب على جريمته ، ولقد علم الامبراطور بكل ذلك (١).

ويذكر المؤرخون السريان أن مانويل كومنين أمد الصليبيين بمرشدين ساقوهم الى طرق وعرة وجبال قالحلة لاماء فيها وظلوا تائهين بها خمسة أيام (٢) كما أن المؤرخ وليم الصوري يتهم المرشدين البيزنطيين بأنهم خونة لأنهم أخبروا الزعماء الصليبيين بالتخفف من الطعام والمؤن لانهم بلغوا قونية في ايام قلائل على حد قوله فيجدون أنفسهم فى أخصب بقعة ولم يحدث ذلك ، كما تعتمد والى قيادة الكتائب الصليبية فى مجاهل آسيا الصغرى عبر طرق غير مألوفه أفضت بهم إلى نوح أتاحت لعدوهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، كما أشار المؤرخ أيضاً إلى أن الإمبراطور مانويل هو الذى أشار على المرشدين بالهروب ، أو أن الأتراك السلاجقة قد قدموا لهم الرشوة فى مقابل ترك الجيش الالمانى (٣).

والملاحظ هنا أن معظم المصادر كانت معادية للإمبراطور مانويل والبيزنطيين عموماً ، صحيح أن الامبراطور مانويل كان فى تلك الفترة قد عقد معاهدة سلام مع السلطان مسعود سلطان السلاجقة (٤) ، ولكن لا ننسى أو نتجاهل أن الامبراطور مانويل قد نصح كونراد باتخاذ الطريق الساحلى إلى أضايا ، وهذا الطريق لا يخترق قلب آسيا الصغرى الملئ بالأتراك . ولو كان مانويل يريد أن يطيح بالجيش الالمانى لما أشار عليه بشأن المسير فى آسيا الصغرى ، وقد أثبتت الاحداث صدق نصائح مانويل . أما

(4) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 91-93 .*

سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٤٦ .
(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٦٢ .

(1) *William of tyre : op . cit . , vol . II pp . 168-169 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٤) انظر : الفصل الثالث من الرسالة ، ص

بالنسبة للمرشدين البيزنطيين فيبدو أن نفاذ المون واتهام الالمان لهم بالخيانة قد دفعهم الى الهرب .

وقد يحسم هذا الموضوع نص الخطاب الذى أرسله الامبراطور الالمانى كونراد إلى ويبالد أسقف كورفرى *Wibald of Corvey* إذ لم يذكر كونراد عامل الخيانة من الجانب البيزنطى وذكر له أنه أختار هذا الطريق بنفسه لأنه أسرع طريق الى الشام ، ولقد كان فى امكانه أن ينفى المسؤولية عن نفسه (١). ويهنا هنا أن نذكر أن الامبراطور كونراد بعدما اكتشف هروب المرشدين استدعى رجاله وعقد مجلساً لاستشارتهم حول هذه الموقف . ويقول المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل فى هذا الشأن : " لقد فات الوقت على هذا لأنهم أجبروا على الاختيار ، وليس اختيار الخير من الشر ، ولكن اختيار أحد الطريقين أقلهما شراً ، فليس أمامهم إلا التقدم أو التقهقر ، ولكن الجوع والعدو وجبال لوبيا تس *Lopyainth* الغير معروفة لديهم أجبرتهم على عدم التقدم للامام ، وأيضاً فإن الجوع والخوف من العار أجبرهم على عدم التقهقر (٢).

اختلفت الآراء فى هذا المجلس الذى عقده الامبراطور الالمانى اختلافاً بيناً ، فبينما تمسك البعض بوجوب رجوعهم إلى أوطانهم إذا بالبعض الآخر يصر على متابعة الزحف ، وكان الجيش الصليبي فى ذلك الوقت يعانى من الجوع لنقص المون ، وفى نفس الوقت كان الجيش السلجوقى على مقربة منهم ثم قاموا بغارة فجائية على المعسكر الصليبيى الذى ساءته الفوضى ، ودارت معركة شرسة استخدم فيها الترك فنون القتال

(3) Berry : op . cit . , p . 496 .

سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(4) Odo of Deuil : op . cit . , p . 93 .

المعروفة عنهم وهى الكر والفر ، كما استخدموا الاسلحة الخفيفة كالسهام والنشاب وكانوا فى هجومهم هذا كأنهم يحاصرون احدى المدن فذبجوا منهم الآلاف ولم يبق من عسكرهم الكثيف سوى واحد من كل عشرة ، ووقع الكثير منهم فى قبضة الترك ^(١).

ولقد أورد أودو أف دويل تفاصيل هذه المعركة وذكر أن الاتراك لم يكونوا فى اغلب الاحيان يلتحموا كرجل واحد لرجل ، واستخدم الترك السهام التى أهلكت الجيش الصليبيى وكان الكونت برنارد من بلوتزكو *Bernard of Plotzkau* ورجاله الذين كانوا يحمون مؤخرة لجيش ضحية هذه السهام ، وكل واحد من أفراد الجيش الصليبيى ناح وندب على اقتراب أجله ، كما أصيب الامبراطور كونراد نفسه بجرح بالغ ^(٢).

ولم يقم السلطان السلجوقى بنفسه بهذه المهمة ، بل قام بها احد قواده وهو القائد مامبلانس (بامبلانس) *Mamplanes (Pamplanes)* باراموس *Paramos* عند وليم الصورى) ، وحيث انتصر على الصليبيين عند نهر باثيز *Bathys* ، وقتلوا الكثير منهم ونجحوا فى منع البقية الباقية من الصليبيين من عبور نهر المايندر والتقدم صوب مدينة فيلو ميلوم ^(٣). وحاول كونراد أن يعيد تنظيم فلول قواته المهزومة وهو جريح فتمكن بصعوبة بالغة من النجاة مع نفر قليل من رجاله عائدين الى نيقية

(1) *William of tyre : op . cit . , vol . II pp . 170-172 .*

ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٦٢ . ؛ ابن القلانص : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

Chalandon (F) : op . cit . , p . 366 . ; Michaud (M) : op . cit . , T. 2 p . 338 . ; Berry : op . cit . , p . 496 .

(2) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 95 .*

(3) *Choniates (Nicetas) : Historia . , pp . 89-90 . ; William of tyre : op . cit . , vol . II p . 122 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

Kinnamos : op . cit . , p . 68 . ; Vryonis(s) : The Decline of Byzantine in Asia Minor . , p . 121 .

مع البقية الباقية من اتباعه - وكانت نيقية في حوذة البيزنطيين منذ أن استردوها من سلاجقة الروم سنة ١٠٩٧ م - واستولى الاتراك على الغنائم التي لا تحصى من الجياد والسلاح الوفير^(١) وملاّت تلك الغنائم البلاد التركية حتى بيعت وزنات الفضة في مطية بيع الرصاص^(٢).

هذا ما حدث بالنسبة للقوات الرئيسية التي قادها الامبراطور كونراد ، أما عن مصير القسم الثانى من الجيش والذي كان يقوده أوتواف فرايزنج والذي اتخذ الطريق الساحلى إلى اضااليا ، فقد تعرضوا لكمين من الترك السلاجقة فى مدينة لاوداكيا (اللاذقية) وتعرضوا لمذبحة رهيبة قتل فيها قائد الحملة والكونت بيرنارد والالاف من رجال هذه الحملة، والملاحظ هنا أن المؤرخ الفرنسى أودواف دويل ينتهم حاكم مدينة لاوداكيا بأنه قاد الحملة الى أماكن مختصرة فى الطريق المؤدى الى كمين الترك انفسهم ، وإن هذا الحاكم ومن تبعه من اليونانيين قسموا الغنائم مع الترك ، ولم ينج من هذه المذبحة إلا قليل والذين واجهوا العطش والجوع والمجاعة بسبب نقص الامدادات ، وقد وصلت البقية الباقية إلى اضااليا فى حالة إعياء شديد متأخرة عن الميعاد المفترض وصولها بثلاثة عشر يوماً^(٣).

والجدير بالذكر أن المؤرخين لم يشيروا بالمرّة الى وضع المرشدين فى هذه المعركة أو ينسوا الكارثة التي حلت بهم اليهم كما حدث للقسم الاول ، ويبدو هنا أن هؤلاء الادلاء ظلوا مع هذا القسم حتى النهاية ، ولم

(4) William of tyre : op . cit . , vol . II p . 172 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

Vryonis(s) : op . cit . , p . 121 . ; Vryonis : Nomadization and Islamisation in Asia Minor . , pp . 45-46 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 268 . ; Berry : op . cit . , p . 496 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣١-٤٣٢ .

(١٧) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٦٢ .

(1) Odo of Deuil : op . cit . , pp . 113-115 . ; Michaud (M) : op . cit . , T. 1 p . 389 . ; Mayer : op . cit . , p . 104 .

يقف هؤلاء موقفاً عدائياً من هذه الحملة وإلا لاشار اليهم هؤلاء المؤرخون على الرغم من تعرض هذه الحملة أيضاً الى هجوم الترك السلاجقة ، وإن كان صمتهم عن ذكر وضع المرشدين لم يقلل من تحاملهم على الجانب البيزنطي .

وفى تلك الاثناء كان الملك لويس يمضي بالجيش الفرنسى الى القسطنطينية ولقد وصل أمام أسوارها فى ٤ أكتوبر ١١٤٧ م حيث صدمه نبأ الصلح والهدنة التى عقدها الامبراطور مانويل مع سلاجقة الروم وبلغ من شدة قلق لويس أن اقترح عليه بعض قادة جيشه الاستيلاء على القسطنطينية . ولمواجهة هذا الخطر المنتظر أسرع مانويل بالتفكير فى نقل القوات الفرنسية الى آسيا الصغرى ^(١) . وعلى أية حال اعتبر لويس هذا الامر بمثابة خيانة عظيمة فى حق الفكره الصليبية بوجه عام وفى حق الحملة الصليبية الثانية على وجه الخصوص ^(٢) .

وفى تلك الاثناء انتشرت شائعة كاذبة فى وسط الجيش الفرنسى الذى كان يعسكر أمام أسوار القسطنطينية تشير الى أن الالمان حققوا نصراً كبيراً على السلاجقة الاتراك وذبحوا حوالى أربعة عشر ألفاً من الترك ، واحتلوا قونية ، وترتب على ذلك أن تشجع الفرنسيون للعبور الى آسيا الصغرى لعلمهم يفوزون بجانب من هذا النصر ^(٣) .

ويتهم المؤرخ وليم الصورى الادلاء الذين كانوا يرافقون جيش الامبراطور كونراد بأنهم أصحاب هذه الاشاعة حيث راحوا يؤكدون لملك فرنسا ذلك الامر كى يحملوه على سلوك الطريق ذاته فيتردى فى نفس

(2) Vasiliev : op . cit . , vol II . p . 421 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 268 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ . ؛ حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٢١ .

^(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٨٨-٤٨٩ .

(4) Odo of Deuil : op . cit . , p . 73 .

المهالك التي تردى فيها كونراد ،ويجعلوه يصدق ما قالوه من نجاح كونراد حتى حولوا بينه وبين المبادرة إلى نجدة إخوانهم الذين أهدق بهم الخطر ، وربما اخترعوا هذه القصة ليبعدوا العقاب عن انفسهم لانهم لو كانوا قد أخبروا لويس بهلاك جيش كونراد لامسكهم وعدهم خونة^(١).

ويميل البعض إلى ان يكون الامبراطور مانويل مصدراً لهذه الشائعة خاصة وأنه كان يود التخلص بسرعة من القوات الفرنسية حتى لا يتخرج موقفه إذا تغلب الرأي الذي يطالب بالتحالف مع الملك روجر الثانى ملك صقلية ضد مانويل ، أو إذا أدت أى حادثة غير متوقعة إلى صدام بين الفرنسيين والبيزنطيين ، هذا إلى جانب أن الامبراطور البيزنطى كان يتشكك فى نوايا لويس الذى سبق له الاتصال بالملك روجر ودخل معه فى مفاوضات بشأن نقل الحملة بالطريق البحرى ، بالاضافة الى رفض لويس بالتعهد برد الاراضى التى يفتحها وكانت من قبل تابعة للامبراطورية البيزنطية^(٢).

ومهما يكن الأمر ، فقد تخلص مانويل من القوات الفرنسية التى عبرت البسفور إلى شاطيء آسيا الصغرى والتي اتجهت الى خلقدونية ولم يكد يعلم الامبراطور مانويل بذلك ،وبعد أن اطمئن على عاصمته اصدر اوامره بوقف إمداد الصليبيين بما يلزمهم من مؤن إلا إذا أقسم له الملك لويس والامراء المشتركين فى الحملة يمين الولاء عما يفتحونه من اراضى آسيا الصغرى فى مقابل أن يتعهد مانويل بإمداد الفرنسيين بالمؤن والمرشدين اللازمين ، فضلاً عن الهدايا لكبار البارونات الفرنسيين ، كما أن الامبراطور تعهد بأن تقوم المدن البيزنطية بتقديم كافة المساعدات

(1) William of tyre : op . cit . , vol . II pp . 169-170 .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .
(٢) سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٥١-١٥٢ .

للفرنسيين ، وكان من ضمن شروط لويس هو أن يكون من حق القوات الفرنسية نهب البلاد البيزنطية التي ترفض أن تقدم لهم الامدادات^(١).

وصل الجيش الفرنسي إلى نيقية في أول نوفمبر سنة ١١٤٧ م ليفاجيء بالكارثة التي حلت بالالمان وامبراطورهم كونراد الثالث ، حيث وصل فردريك دوق سوابيا إلى معسكر لويس السابع قادماً من معسكر كونراد ، فأخبر لويس عن هذه الكارثة ، وتأثر لويس تأثراً بالغاً بهذه الفاجعة ، وطالبه بالقدوم لمقابلة كونراد حيث وافق لويس على طلبه ، وفي هذه المقابلة ، وبعد أن تبادل العاهلان التحايا المألوفة عقد اجتماعاً أسفر عن قرارهما بإكمال هدفهما وتوحيد قواتهما في زحفهما معاً عبر الطريق الساحلي وترك الطريق الذي سلكه الامبراطور كونراد من قبل^(٢).

ونظراً لما حل بالجيش الالمانى من خسارة فقد عرض الملك لويس ونبلاؤه الاموال والمعدات على الامبراطور كونراد وجيشه واتفقوا على أن ينتظروا في لوياديوم حتى يستطيع مونرد أن يجمع المزيد من الامدادات قبل الاستمرار في الرحلة ، ولكن الاسواق أصبحت أكثر ارتفاعاً وندرة ، حتى لجأ الفرنسيون إلى سلب ونهب الارياف تماماً ، كما تسمح لهم اتفاقيتهم السابقة مع مانويل ، وكان رد فعل الاهالى والسكان على هذا بأن أزعجوا وقتلوا افراداً من القوات الالمانية الضعيفة التي جاءت بعد ذلك^(٣).

ولقد عبر كونراد اجتماع عقد في ذلك الوقت عن رغبته في أن يواصل لويس الحملة الصليبية بجنوده ، وطلب أن يتمركز في منتصف

(3) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 77-79 .*

(4) *William of tyre : op . cit . , vol . II p . 173 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

Kinnamos : op . cit . , p . 70 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p .

367 . ; Grousset : op . cit . , T.2 . p . 239 . ; Berry : op . cit . , p . 497 .

(1) *Berry : op . cit . , p . 497 .*

الجيش حيث إنه لم يكن هو وقواته أقوىاء بالقدر الكافي لأن يحموا مقدمة أو مؤخرة الجيش ،وبخصوص هذا الطلب عين الملك لويس بعض القاده علىراس قوات إضافيه الى قوات الامبراطور (١).

زحفت القوات الفرنسية والألمانية تارة عبر الطريق الداخلى ، وتارة أخرى عبر الطريق الساحلى ، جاعلة فيلادفيا على يسارها فكانت أزمير أول محطة وصول بلغوها ، واتجه منها الجميع الى افسوس *Ephesus* فى منتصف ديسمبر سنة ١١٤٨ م (٢).

وعلى الرغم من أن الهدف كان واحداً لكل من الفريقين الفرنسى والالمانى فإن القوات الفرنسية لم تكن على وفاق مع القوات الالمانية التى تعرضت للسخرية من قوات لويس بسبب تأخرهم عن متابعتهم ، حيث سار الجيش الفرنسى فى المقدمة بينما شق الالمان طريقهم متأخرين عنهم ،وكان الفرنسيون يسخرون من الالمان وينادونهم على سبيل الاحتقار " تحركوا أقبلوا أيها الالمان " (٣).

وفى مدينة افسوس سقط الامبراطور الالمانى كونراد صريع المرض بسبب اعتلال صحته ولم يتمكن من مواصلة الرحلة ،وعندما سمع مانويل وزوجته بهذا قاموا بدعوة كونراد بالحضور الى القسطنطينية حتى يأخذ فترة نقاهه ويتمكن من استعادة عافيته وكان مانويل سعيداً حينما نجح فى فصل الجيشين الغربيين ، كما كانت فرصة عندما استضاف كونراد ليقوى الاتفاقية القديمة بينه وبين كونراد ضد صقلية وهنغاريا (٤) . ويتساءل هنا وليم

(2) *Ibid.*, p . 497 .

(3) *William of tyre : op . cit ., pp . 173-174 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

Chalandon (F) : op . cit ., p . 367 .

(4) *Kinnamos : op . cit ., p . 70 .*

(5) *Berry : op . cit ., p . 498 . ; Chalandon (F) : op . cit ., pp . 367-368 .*

الصوري عن الاسباب التي حملت كونراد علي الذهاب إلي القسطنطينية إلا إذا كان ما أحسه من شجي ومرارة علي القتلى الكثيرين من جيشه الذين كانوا تحت قيادته أو ربما مرجع ذلك إلي ما لقيه من صلف الفرنسيين الذي لا يحتمل ، ومهما يكن من أمر فإن الامبراطور مانويل قد رحب به ترحيباً فاق ترحيبه في المرة الاولى ، فظل مقيماً هو ورجال دولته في القسطنطينية حتى مستهل الربيع الثاني (١).

والحقيقة أن الامبراطور كونراد تأثر تأثراً بالغاً لما حظي به من اهتمام الامبراطور والامبراطوره ، واثناء وجود الامبراطور كونراد في القسطنطينية والذي استمر حتى أول مارس سنة ١١٤٨م ثم تدبير زواج هنري دوق أوستريا شقيق كونراد من ثيودوار ابنة اندرونيقوس شقيق الامبراطور مانويل (٢).

ومما هو جدير بالذكر أن الامبراطور مانويل كومنين مع اهتمامه بالامبراطور كونراد من جهة لم ينس أن ينال الامبراطور لويس جزاءً من هذا الاهتمام ، إذ أرسل إليه أثناء وجوده على رأس جيشه في مدينة إفسوس يبلغه محذراً أن الاتراك السلاجقة قد جمعوا قوات هائلة لمحاربة الصليبيين وينصحه أن يتجنب نزالهم ، وحثه على ان يتخذ من الحصون البيزنطية مأوى له كما أوضح له أنه ليس في مقدور السلطات البيزنطية كبح جماح المواطنين البيزنطيين في آسيا الصغرى إذا ما تعرضوا للاذى من قبل الصليبيين ، ولم يرد لويس على رسائل الامبراطور مانويل ، ولم يهتم بها

(1) William of tyre : *op . cit . , p . 174 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

(2) Kinnamos : *op . cit . , p . 72 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 271*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

Chalandon (F) : *op . cit . , p . 368 .*

وسار الملك بجيشه متقدماً لأنه كان يرغب في الاحتفال بأعياد الكريسماس في وداى ديكرفيون (١).

ولقد اتخذ الجيش الفرنسى طريقه المستدير بوادى نهر المياندر ،وعند ديكرفيوم أمضى الفرنسيون عيد الميلاد ، ثم تقدمت القوات حتى وصلت الى مدينة انطاكية فى اول يناير سنة ١١٤٨م (السابع من شعبان ٥٤٢هـ) وفى هذا الموضوع وعلى ضفاف نهر المياندر نشبت معركة حامية بين الصليبيين والترك انتهت بهزيمة الترك ووقوع اعداد منهم فى الاسر واستولى الصليبيون على المعسكر التركى الذى وجدوه زاخراً بكل أنواع الاسلاب وشتى ضروب الغنائم (٢).

والغريب هنا أن المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل يذكر أن هذه المعركة كانت مع جيش الترك تحت قيادة القادة اليونانيين (البيزنطيين) متهماً بذلك البيزنطيون أنهم سبب كل الكوارث (٣).

وصل الصليبيون بعد ذلك مدينة لاوداكيا (٤) فى الثالث أو الرابع من يناير سنة ١١٤٨م فوجدوها خالية من السكان حيث هجرها سكانها إلى

(3) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 107-109 . ; Berry : op . cit . , p . 497 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 271 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(4) *William of tyre : op . cit . , p . 174-175 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

Odo of Deuil : op . cit . , p . 109 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 271-272 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

Berry : op . cit . , p . 498 .

(1) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 109 .*

(٤) لاوداكيا : لاوديكية - لانق - اللاذقية) ، تقع هذه مدينة في إقليم فريجيا الصغرى بقرب آسيا الصغرى غرب مدينة قونية ، قد سماها الأتراك ديزكي لوفرة المياه فيها ، ويعرف هذا الموضع في وقتنا الحاضر باسم اسكي حصار ، أي القلعة القديمة . انظر :

Ramsay : op . cit . , p . 52 , 88 , 134 .

التلال بكل ما معهم من مؤن خوفاً من الصليبيين من أن يقوموا بنهبها ، لذلك تعذر عليهم جمع المؤن اللازمة لهم في رحلتهم الشاقة إلى اضااليا (١). وإن كان وليم الصوري ذكر أنهم حينما بلغوا هذه المدينة تجهزوا بالمؤنه التي تكفيهم عدة أيام ثم ساروا جميعهم كتله واحدة (٢).

شقت القوات الفرنسية طريقها في آسيا الصغرى قاصده مدينة اضااليا (أنطاليا) ، فالطريق إلى اضااليا يدور حول جبال شاهقة وكانت الرحلة شاهقة نظراً لوعورة الطريق وظروف الشتاء القاسية ، ولقد روع الصليبيون والفرنسيين ما شاهدوه من جثث حملة الالمان السابقة والتي كان يقودها أوتو اف فرايزامج - متناثرة على امتداد الطريق وواصل الجيش الفرنسى مسيرته وعمل الملك لويس على تنظيم جيشه واعاد توزيع قيادته حيث تولى بنفسه قيادته مؤخرة الجيش مع حرسه وعهد بقيادة مقدمة الجيش العمه الكونت مارين *Maurienne* ومعه البارون جوفرافى راتكون *Geoffery of Rancon* (٣).

وأثناء تقدم الجيش الصليبي حدث أن خالفت بعض الفرق أوامر الملك لويس حينما أخذ الجيش الفرنسى يهبط نحو البحر حدث أن قامت فرقة جوفرى أف رانكون مخالفة أوامر الملك التي تقضى بأن يعسكر على قمة الدرب ، فهبطت الى سطح التل وانقطعت صلتها بالجيش الرئيسى .وفى

الأدريسى : المصدر السابق ، مج ٢ ، ص ٨١٢ ، لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ١٨٦

(3) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 115 . ; Berry : op . cit . , pp . 498-499 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 272 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

Chalandon (F) : op . cit . , p . 367 .

(4) *William of tyre : op . cit . , pp . 174-175 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(5) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 111-115 . ; Berry : op . cit . , p . 499 . ; Chalandon (F) : op . cit . , p . 367 .*

وسط هذه الظروف انقض الاتراك السلاجقة على القوات الصليبية وامطروهم وابلأ من السهام ، وحدث ارتباك فى الجيش الفرنسى وسقط العديد من الجيش الصليبيى بخيولهم صرعى ،وتعرض الملك لويس ورفاقه للموت ، كما قتل الترك الخيول التى لم تكن قادرة على الجرى ، حتى أن فرقة الفرنجة المكسوين بالدروع ساروا على أقدامهم بعد أن فقدوا خيولهم ، ولقد لجأ الملك لويس وحرصه إلى تسلق صخرة مرتفعة مخافة الوقوع فى الاسر ،ولقد قاوم العديد من الترك السلاجقة وكاد الملك نفسه أن يقع فى الاسر لولا حلول الظلام ، وقد أفاض المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل فى وصف المعارك التى خاضها الفرنسيون مع الترك والخسائر التى لحقت بهم وعلى رأس هذه الخسائر فرقة الحراسة الملكية والتى كان عددها أربعين فارس وكان من خيرة قوادها الكونت وارين *Warrenne* واخيه إيفارد من بريتولى *Evard of Breteuil* وماناسيس من بولزي *Manasses of Bull* وجوتير من مونتجاي *Gautier of Montjay* ⁽¹⁾.

وعلى اية حال ، قرر الملك لويس القيام بمحاكمة المسئولين الذين تسببوا فى هذه الكارثة حيث أصدر حكماً على جيوفرى *Geoffrey* بالشنق ، لعدم إطاعة الاوامر حول يوم الرحيل ،ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث لان عم الملك شارك جيوفرى فى هذا التقصير ، ويضيف المؤرخ أودو أف دويل قائلاً : " وقبل زوال حزن الناس من ظل الكارثة طلع فجر اليوم التالى بضياء وإشراق وأصبح جيش الاعداء على مرئى منا منتشراً على الجبال فى

(1) *Odo of Deuil : op . cit ., pp . 115-123 . ; William of tyre : op . cit ., pp . 175-179 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٢-٢٨٥ .
Berry : op . cit ., pp . 499-500 .

حشد كبير سعاد مما حققوه بينما كان رجالنا ينوحون ويندبون على رفائهم وممتلكاتهم المفقودة " (١).

على أننا نلاحظ أن أودو اف دويل دائماً يذكر ويكرر تحامله على البيزنطيين ، ففي تلك المعركة ذكر في إحدى عباراته " أن سهام الترك واليونانيين قد منعت أي شخص واقع في النهوض مرة أخرى " (٢).

ولقد علق المؤرخ وليم الصوري على هذه المعركة بقوله : " لقد ضاعت في هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة في خطب كان من أشد الخطوب وفي نكبة كانت من أفدح النكبات التي حاقت بالصلبيين ، وذلك أن بسالتهم التي كانت في هذه اللحظة مضرب الامثال عند الشعوب هوت إلى الحضيض ، وأصبحت سخرية في عيون الامم النجسة ، بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها " (٣).

بدأ الملك لويس في إعادة تنظيم قواته لمواصلة الزحف الى مدينة أضاليا وعهد إلى ايفرارد من باري *Everard of Barre* رئيس لفرسان المعبد (الداوية) (٤) بالمساعدة في قيادة الجيش ، حيث كان الفرسان المعبد

(2) *Odo of Deuil : op . cit ., p 123 .*

(3) *Ibid . , p . 117 .*

(4) *William of tyre : op . cit ., pp . 177 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .
(٤) الداوية : شهدت الحركة الصليبية في بلاد الشام ابتكاراً فذاً فريداً أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ويتمثل ذلك في الهيئات الدينية الحربية التي جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية في رباط واحد ومن هذه الهيئات الأستبارية والداوية وفرسان النيوتون وغيرها أما عن هيئة الداوية ، فيرجع تأسيسها إلى عام ١١١٨ م وكانت في البداية مكونة من مجموعة من الفرسان عاهدوا الله على العفة والطاعة والتشف على طريقة الرهبان وأطلقوا على أنفسهم " أتباع جنود المسيح الفقراء "

" *The poor Fellow of Jesus christ* "

وزادوا أن أقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريدة ضد المسلمين ، وبذلك أصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الأولى وهي في دور التكوين بصيغة القتال والحرب وحصل أولئك الفرسان سنة ١١١٨ م من الملك بلدوين الثاني (١١١٨-١١٣١) على مقر لهم في جناح القصر الملكي بالقرب من معبد سليمان ، وهو المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ومن ثم عرفوا بأسم فرسان المعبد *Kinghts of the Temple* أما في العربية فقد عرفوا بأسم الداوية نسبة إلى محراب داود .
أنظر : محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ، ص ٦٥-٦٦ .

خبرة في مثل هذا النوع من القتال في الشرق والغرب أكثر من أي فرسان آخرين . وكان لإفرايد قداسته واحترامه من أفراد الجيش . وبادر إفرايد بالإخاء والمساواة بين فرسان المعبد وبقية الجيش . وأدى الجميع القسم على هروبهم من ساحة القتال مهما كان الأمر واتباع أوامر الذين عينوا من قبل إفرايد (١).

وعين إفرايد قائداً عاماً هو جلبرت الذي قام بدوره بتقسيم الجيش ووضع على رأس كل خمسين فارساً ، وطلب منهم جلبرت الصمود أمام هجمات الترك وأصدر أوامره بعدم الهجوم إلا بعد صدور الأوامر ولا ينسحبوا إلا بعد أن يعطى لهم الإشارة ، وتم وضع رماء السهام في مقدمة الجيش لمهاجمة رماء السهام من الترك ، والنبلاء الذين فقدوا معداتهم ثم وضعهم في وسط الجيش (٢).

وعلى الرغم من أن الملك لويس هو سيد القوانين ، إلا أنه هو أيضاً يريد أن يكون خاضعاً - مثله في ذلك مثل أي أحد - لهذه القوانين ، وإن كان لا يستطيع أحد أن يتجرأ في فرض أي أمر عليه ، ولكن المحافظة على الجيش وعلى خط القتال في المعركة كانت فوق كل اعتبار (٣).

واصل الجيش الصليبي مسيرته وفي أثناء تقدمه كان الغز الأتراك يلقون بشعورهم التي كانوا يقتلعونها من رؤوسهم كعلامة يشيرون بها للصليبيين على أنه لن يستطيع أحد أن يطردهم من تلك المنطقة ، وقد انعكست دقة النظام الذي سار به الجيش على أدائه القتالي حتى تمكن من هزيمة الأتراك وصد غاراتهم لاربعة مرات أثناء زحفهم " لكن (الترك واليونانيين) كانوا يخططون لدمارنا في طرق متعددة " ، نقص المؤن بذبح الخيول

(1) Odo of Deuil : op . cit . , p 125 .

(2) Odo of Deuil : op . cit . , p 125 .

(3) Ibid . , p . 127 .

التي لم تكن قادرة على السير^(١) ويلقى المؤرخ أودواف دويل على جودفري أوف رانكون العيب قائلاً انه قادم الى الموت والدمار^(٢).
واصل الجيش زحفه وهو يواجه نقصاً في جميع مواد التموين ويذكر وليم الصوري أن النكبة التي كانت أدهى من ذلك كله وافدح هي أنه لم يكن معهم أدلاء يرشدونهم على المسالك ويدلونهم على الضروب ومن ثم تشردوا وهاموا على وجوههم ولم ينقذهم مما هم فيه إلا دخولهم أخيراً إلى إقليم بامفيليا^(٣) مجتازين الممرات الجبلية والأودية العميقة حتى قبض لهم النجاح أخيراً في بلوغ أضاليا^(٤).

وصل الجيش الفرنسي إلى أضاليا في العشرين من يناير سنة ١١٤٨م (السابع من شعبان سنة ٥٤٢هـ) فوجد في انتظاره لاندولف *Landolph* حاكم المدينة ، وكانت أضاليا تابعة للامبراطورية البيزنطية ، ولم تكن مدينة كبيرة تتوافر فيها المؤن ، وذلك لوقوعها في إقليم قروي فقير ، فهي تتاخم مباشرة أرض الترك ، وكانت تدفع الجزية للترك لعدم قدرتها على مجابتهم وكانت أيضاً تمارس التجارة معهم^(٥).

(4) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 127-129 . ; Berry : op . cit . , p . 500 .*

(5) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 129 .*

(٣) بامفيليا : أحد أقاليم آسيا الصغرى الواقعة على ساحل البحر المتوسط . انظر :

Ramsay : op . cit . , pp . 388-389 .

(7) *William of tyre : op . cit . , pp . 177-179 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

(1) *William of tyre : op . cit . , pp . 177-178 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

Berry : op . cit . , p . 500 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 pp . 272-273 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

ولقد عانى الجيش الفرنسى فى أضااليا فى الحصول على المؤن لارتفاع اسعارها ولجذب المنطقة ولتعرضها حديثاً لغارات الترك السلاجقة ، فضلا عن استيلاء القوات الالمانية السابقة ،والتى كانت بقيادة أوتو أف فريزانج على قدر كبير من المؤن ، ولم يسلم البيزنطيون من هذا الامر حيث اعتبر المؤرخ الفرنسى هذا دليلاً جديداً على خيانة البيزنطيين (١).

قرر الملك لويس مواصلة الزحف الى أنطاكية وتفاوض مع البيزنطيين والحاكم لاندولف حول الطريق المؤدى لأنطاكية ، فأشار عليهم البيزنطيون بأن الطريق إلى انطاكية عن طريق البر بحداء الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى هو طريق صعب وشاق ويستغرق مسيرة أربعين يوماً تتخللها أراضى جرداء ليس بها مؤن وسيطر عليها السلاجقة ، فى حين أن الرحلة عن طريق البحر تستغرق ثلاثة أيام فقط ، لذا قرر الملك لويس استكمال الرحلة عن الطريق البحرى ، ووعده البيزنطيون بتوفير السفن اللازمة على الرغم من انه ليس من السهل توفير سفن لكل هذا الجيش (٢).

قام حاكم المدينة بتدبير بعض السفن اللازمة لنقل القوات الصليبية ، وبينما كان يجرى إعداد السفن قام الاتراك بشن غارات على المعسكر الصليبيى ووجه الفرنسيون اللوم الى البيزنطيون ، وتم تجهيز السفن ولكنها كانت من القلة ما لا يجعلها تتسع لكل من الجيش ، لذا فقد استقل الملك لويس وحاشيته وفرسانه سفينة قدمها له حاكم المدينة لاندولوف ، بينما جرى نقل جزء من القوات الصليبية الاخرى مقابل أربعة

(2) Odo of Deuil : *op . cit . , pp . 129-131 .*

(3) *Ibid . , p . 131 . Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 273 .*

رنسيماان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

Berry : op . cit . , p . 501 .

ماركات عن كل فرد .ووصلت سفينة لويس الى ميناء السويدية (١) فى التاسع عشر من مارس سنة ١١٤٨ م (٢٥ من شوال سنة ٥٤٢ هـ) .
والحقيقة أن الملك لويس تخلى عن جيشه وتركه تحت رحمة السلاجقة ، وإرضاء ضميره قام بدفع مبلغ من المال قدره خمسمائة مارك لاندولف حاكم المدينة وطلب منه أن يرسل إليه عن طريق البحر من تبقى من الجيش ، وأتاب عنه بالاشراف على هذه المهمة كونت أف فلاندرز *Count of Flanders* والكونت أرسيبالد أف بوربون *Archibald of Bourbon* ، على انه لم يمض يوم واحد على رحيل الملك حتى قام الترك السلاجقة الذين علموا فى الصباح برحيل الملك بمهاجمة المدينة بمن فيها من البيزنطيين والصلبيين ،وعلى الرغم من قيام كونت فلاندرز وبوربون بتنظيم الخطوط القتالية والدفاع ، إلا أن الاتراك نجحوا فى إلحاق خسائر فادحة بالجيش الصليبي (٢).

وعندئذ قام لاندولف بتوفير سفن اخرى لينقل بقية الجيش ، ولكنها لم تكن كافية ،وابتهج كونت فلاندرز وكونت بريون ، فرحل الملك لويس ،واستقل السفن هو ونخبه من القواد والاصدقاء والفرسان تاركين البقية الباقية من الجيش والحجاج ليواجهوا مصيرهم المحتوم ، حيث رفضوا البقاء فى المعسكرات التى اعدّها لاندولف لهم ، وبعد أن تخلى عنهم قادتهم لاعتقادهم انهم سوف يتعرضوا لهجمات الترك ، لذا فقد شقوا طريقهم براً إلى

(4) *Odo of Deuil : op . cit ., pp . 135-137 . ; William of tyre : op . cit ., pp . 178-179 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

Runciman : op . cit ., vol . 2 p .272 .

رنسيمن : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ . ٤ ديورانت (ول) : قصة الحضارة ،مج ٤ ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(1) *Odo of Deuil : op . cit ., p . 139 . ; Berry : op . cit ., pp . 501-502 .*

طرسوس مفتقدين النظام والترتيب . وتعرضوا اثناء زحفهم إلى هجمات السلاجقة ، وهلك جانب كبير منهم فى حين وقع البعض ضحية الجوع والعطش والمرض ووقع البعض فى اسر السلاجقة والبعض الاخر فى خدمة اليونانيين ، ولم يصل إلى انطاكية أو طرسوس إلا أقل من نصف عددهم (١) .
أما بالنسبة للامبراطور كونراد فقد أمضى الشتاء فى القسطنطينية حيث لقى أحسن المعاملة من مانويل ، وفى ربيع ١١٤٨ هـ استعد لرحيل وأغدق عليه مانويل كثيراً من الهدايا ، ثم ابجرهه ومن معه من النبلاء الذين فى حاشية الى الشرق فى اسطول جهزه مانويل لهم ، فوصل عكا فى ابريل سنة ١١٤٨ م (٢) .

اجتمعت بقايا جيوش كل من كونراد و لويس فى فلسطين ، وبدلاً من قيامها هى وياقى الصليبيين باسترداد الرها - السبب الرئيسى فى قيام الحملة الصليبية الثانية - قام الصليبيون بهجوم فاشل على دمشق حيث نجحت القوات الاسلامية فى صددهم ونجت دمشق من الصليبيين وعاد الملكان الغربيان يجران أذيال الخيبة بعد فشلها فى حصار دمشق وكان ذلك نهاية الحرب الصليبية الثانية .
على أن فشل الحملة الصليبية قد فجر العديد من الاسئلة ، هل كان الامبراطور مانويل هو السبب الرئيسى فى فشل الحملة ؟ وهل عقد

(2) *Odo of Deuil : op . cit . , pp . 139-141 . ; Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 274 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤١ .

Berry : op . cit . , p . 503 .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٦٠ . ؛ محمود الحويري : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(3) *William of tyre : op . cit . , vol . II pp . 181-182 .*

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

اتفاق مع سلاجقة الروم هو اعلان واضح وصريح من تحريضه للترك للقيام بالهجوم والقضاء على الصليبيين ؟ هل الصليبيون مسئولون مسئولية كاملة عن إخفاء هذه الحملة الصليبية ؟ أم أن المسئولية كانت مشتركة بين الامبراطور مانويل والصليبيين ؟ وما حقيقه الدور الكبير الذى لعبه الأتراك البيزنطيون فى تحركات الجيوش الصليبية فى آسيا الصغرى ؟ والحقيقة إنها كلها أسئلة واتهامات جديدة بالفحص .

بداية نود القول إن الملك لويس أرسل إلى رئيس الدير سوجر رسالة لم تختلف عن سائر الرسائل فيما انطوت عليه من عرض واحد هو طلب المزيد والمال وقد أوعز كل ما وقع فى بلاد الاناضول من حوارث " إلى خيانة الامبراطور مانويل ، وإلى ما ارتكبه من خطأ " (١) .

كما أن المؤرخ الفرنسى أودو أف دويل الذى يعتبر المؤرخ الرسمى للحملة الصليبية الثانية نراه على طول صفحات مدونته يردد باستمرار التهمة الموجهة إلى البيزنطيين بالخيانة ، كما أننا نلاحظ عاطفة الكره للبيزنطيين فيصف القسطنطينية قائلاً : " وكانت مدينة القسطنطينية مدينة عظيمة الثروات والخيرات وفى تصرفاتها ومعاملاتها الغش والغدر ، وكانت عقيدتها فاسدة وكافرة " (٢) كما يقول : " لقد عانينا من افعال اليونانيين الشريرة " " ولقد هزمتنا بسبب خيانة وتكاسل اليونانيين " (٣) . ويتهم أيضاً البيزنطيون بأنهم قادوا الترك لقتالهم اثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، " ففى عشية ليلة الكريسما ، عندما كانت خيامنا منصوبه فى الوادى الخصيب جداً ، فإن الاتراك تحت قيادة اليونانيين قد حاولوا للمرة الاولى أن يخدعونا

(1) Runciman : op . cit . , vol . 2 p . 274 .

رنسيما : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤١ .

(2) Odo of Deuil : op . cit . , p . 87 .

(3) Ibid . , p . 99 .

لعدم انتباهنا وذلك بالهجوم على خيولنا حيث كانت ترعى فى العشب وقد قاومتهم ... " (١) . وفى احدى المعارك يذكر " أن سهام الاتراك واليونانيين قد منعت أى شخص سقط من النهوض مرة اخرى " (٢) . ويذكر أيضاً " لكن الاتراك واليونانيين كانوا يخططون لدمارنا فى طرق متعددة مختلفة " (٣) .

كما شكّا المؤرخ أودو اف دويل من ان البيزنطيين لم يقدموا مؤناً كافية على الرغم من انهم تفاضوا عنها اثماناً باهظة ، كما أنهم لم يوفروا للحملة وسائل النقل الكافية ، والواقع أنه ما من دولة فى العصور الوسطى حتى بيزنطة ذاتها المعروفة بقوة نظامها ، حازت من فائض كميات المؤن ما يكفى لبذلها لجيشين بالغى الفخامة (الالمانى والفرنسى) وقدموا دون دعوة ودون سابق إنذار ، وكلما شحت الاقوات لابد أن تنزع الاسعار إلى الارتفاع ، ومن المحقق أن عدداً كبيراً من التجار المحليين وبعض موظفى الحكومة حاولوا أن يغشوا الغزاة ، ولم يكن هذا السلوك ظاهرة نادرة الحدوث فى التجارة ولاسيما فى العصور الوسطى (٤) . وبذلك يكون من المؤكد أن المؤرخ اودو اف دويل شديد البغض للبيزنطيين .

أما بالنسبة للحاكم البيزنطى لاندولف حاكم مدينة أصاليا (أنطاليا) وما وجه اليه من نقد لعدم توفيره السفن اللازمة لنقل الجيش الفرنسى عن طريق البحر فهو برىء من تلك التهم . فلا يصح توجيه اللوم له لانه ليس فى امكانية أن يوفر ويجهز عدداً من السفن تكفى لنقل كل هذا الجيش . ولقد ذكر المؤرخون أنه ميناء صغير . وعلى الرغم من ذلك فقد قدم للملك لويس سفينة مجاناً كما وفر على قدر طاقته – وفى وسط الشتاء القارص

(4) *Odo of Deuil : op . cit . , p . 109 .*

(5) *Ibid . , p . 117 .*

(6) *Ibid . , p . 127 .*

(1) *Runciman : op . cit . , vol . 2 pp . 274-275 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤١-٤٤٢ .

الذى تقل فيه الملاحة - عدداً من السفن جزاءً من الجيش . ولو كانت السفن متوفرة بشكل كبير لما اتخذ لويس وكونراد الطريق البحرى ، أما بالنسبة لالدلاء البيزنطيين والاتهام الموجه إليهم بالخيانة فقد يقبل هذا الاتهام إذا لم نضع فى اعتبارنا التدمير والتغير الذى احدثته حروب الترك مع البيزنطيين وما قام به الترك من تدمير فى الجسور والابار لكى لا ينتفع البيزنطيون بها عند اشتباكهم معهم ، فضلاً عن انه كثيراً لم يستمع الى نصحهم .

أما بالنسبة للسكان البيزنطيين فى آسيا الصغرى إذا وجه لهم اللوم أو الاتهام بأنهم لم يتعاونوا مع الصليبيين ، فإن هذا الاتهام يكون مقبولاً فى حالة خروج الصليبيين عن التزامهم فى معاملتهم مع هؤلاء السكان ، بل إن بعض البلاد تعرضت لهجوم عنيف مع الصليبيين على الرغم من أنهم تظلم ديانة واحدة (المسيحية) . كما اعتبر الصليبيون أن السكان المحليين كانوا متواطئين مع الترك والسكان البيزنطيين فى آسيا الصغرى ولم يعيهم من يهاجمهم سواء كانوا صليبيين أو أتراك طالما أن هذا يعرضهم للخطر فاتخذوا ما رأوه مناسباً فى الحفاظ على سلامتهم دون التقيد بشرط معينة .

أما بالنسبة للامبراطور مانويل وموقفه من الحملة الصليبية الثانية فإن معظم المؤرخين المحدثين يميلون إلى أنه لم يكن مسؤولاً عن فشل الحملة الصليبية (1).

(2) Runciman : op . cit . , vol . 2 pp .274-275 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤١-٤٤٥ .

Cahen : pre-ottoman Turkey . , pp . 97-98 . ; Vasiliev : op . cit . , vol II . p . 420 .

وفيما يتعلق بالتحالف الذى عقده مانويل مع الاتراك السلاجقة فكانت الحروب بين السلاجقة والاتراك فى آسيا الصغرى وبين البيزنطيين سجال بين الطرفين ^(١) وكانت الظروف بين الفريقين تتطلب أن يحافظ كل منهما على السلام بينهما ، كما أن الامبراطور مانويل لم يدع ولم يكن راغباً فى قدوم الحملة الصليبية ، ولم تكن بموافقته لأن تجاربه جعلته لا يثق فى مساعدة الغرب . فكثيراً ما كان يحدث خلاف بين الامراء المسلمين فى آسيا الصغرى ، الامر الذى دفع سلطنة سلاجقة الروم الى عقد معاهدة السلام مع بيزنطة للتفرغ لمشكلاتها التى تواجهها ، والشىء نفسه بالنسبة لبيزنطة فكثيراً ما يحدث اضطرابات فى بعض مناطق الامبراطورية المختلفة فى أوربا والواقع أن البيزنطيين حينما طلبوا من الامبراطور أن يساندهم على المسلمين فاتهم أن بلادهم كانت تتعرض لهجوم عنيف من قبل دولة مسيحية أخرى هى صقلية ، إذ استولى ملكها روجر سنة ١١٤٧ م على جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشاً ليغير على شبه جزيرة البلقان ، وما تعرض له الامبراطور من تهديد لهجوم النورمان ، هو الذى حمله على الارتداد عن قونية فى سنة ١١٤٦ م . فإذا جرى اعتبار مانويل خائناً للعالم المسيحى باتفاقه مع السلاجقة (١١٤٧ م) فمن المحقق أن روجر ملك صقلية يفوقه فى ذلك ^(٢) لخيانته لدولة مسيحية لها ثقلها بين دول وامبراطوريات العصور الوسطى .

وعلى الرغم من ضخامة الجيش البيزنطى . فإنه لم يكن سريع التحرك إلى كل مكان ، فقد اضطر الامبراطور مانويل الى تقسيم قواته للدفاع

سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١٤٣-١٤٤، ١٥٨، ١٥٣، ١٤٥ . ؛ محمد زكى

نجيب : المرجع السابق : ص ١٥٣ . ؛ حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

^(١) انظر الفصل الثالث من الرسالة .

(2) Runciman : op . cit ., vol . 2 p . 575 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤٣-٤٤٤ .

عن الاراضى البيزنطية ضد هجمات روجر ملك صقلية من جهة وضد هجمات البولوفتسي^(١) *Polovtsian* الذين احدثوا القلق والاضطراب فى السهول الروسية وقاموا بالهجوم على شبه جزيرة البلقان فى صيف سنة ١١٤٨ م ، ولم يستطيع مانويل أن يجرد حدود قيليقية من الجند فى الوقت الذى تطلب اجتياز الصليبيين لاراضى الامبراطورية ، ضرورة زيادة عدد رجال الشرطة العسكرية ، وازاء هذا الوضع لم يكن بوسع الامبراطور مانويل ان يسحب من قوات الحدود ما يكفى لاتخاذ مواقعها على امتداد حدود الأناضول (آسيا الصغرى) لذا آثر مانويل أن يعقد هدنة تكفل لرعاياه بالاناضول ان يعيشوا بعيد عن خطر الغارات التركية . غير ان الصليبيين عرضوا هذه الهدنة للخطر ، فلم يكن زحف كونراد على دور يليوم إلا استشارة مباشرة للترك ، أما لويس فإنه على الرغم من التزامه المسير بداخل الاراضى

(١) البولوفتسي : أحد العناصر التركية التى نزلت من أواسط آسيا وأقامت فى سهوب روسيا الجنوبية بعد البجناك والغز ، ولم يظهروا إلا بعد القرن الحادى عشر الميلادى وقد عرفوا فى اللغة اليونانية بأسم *Komanoi* ، *Komanoi* ، وفى اللاتينية *comani* و *cumani* وأطلق عليها المجرىون أسم *Kun* بينما اشتهروا فى الحوليات الروسية باسم بولوفتسي *polovtsy* . أنظر :
Art . cumans , in the New Ency . Britt . , vol . III , P . 289 ,
Buss : Art . cumans , in lexicon universal ency . , vol 5 , P . 386

وجدير بالذكر أن الدكتور العرينى فى ترجمته لكتاب رنسيما : " الحروب الصليبية " يضع أمام لفظ البولوفتسي بين خاصرتين كلمة البجناك من عنده دون أن يكون لها وجود فى كتاب رنسيما وقد أخذ عنه محمد نجيب فى رسالته هذه المعلومة وقد عرف البولفتس بأنهم البجناك بين قوسين ، فى حين أن رنسيما جاء كتابه خلوا من كلمة البجناك . والحقيقية أن البجناك والبولوفتسي شعبان مختلفان ولقد سقط البجناك على يد حنا كومنين سنة ١١٢٢م وانتهوا تماماً ولم يعد لهم ذكر وتفرقوا فى أوربا ووقعوا تحت سيطرة بيزنطة . أنظر :
نجيب عاصم ومحمد عارف : عثمانلى تاريخى برنجى جلد (استانبول - ١٣٣٠ هـ) ص ٧٦ .

Runciman : op . cit . , vol . II . P . 276 .

رنسيما : الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العرينى ، ج ٢ ص ٤٤٤ ؛ محمد ذكى نجيب : علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية فى عهد أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥ م) ص ١٥٤ ؛ محمد عبد الشافى المغربى : مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين و المسلمين فى القرنين ٧،٨ . رسالة ماجستير . كلية الآداب بسوهاج غير منشورة (١٩٩١) . اشراف أ . د محمود الحويرى . ص ٤٨ - ٤٩ ، ١٠١ .

البيزنطية ، فقد صرح علناً أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء في داخل النطاق الذي تتوالى حراسته الحامية البيزنطية .⁽¹⁾

على أن المسؤولية الاساسية عما حل بالصلبيين من كوارث في آسيا الصغرى ترجع حتماً الى ما ارتكبه من حماقات ، كما أن الملكين الغربيين لم يكونا على وفاق وتعاون وكانت جيوشهما خليطاً من المحاربين والمدنيين ، وبالإضافة الى هذا فتك الجوع والمرض فتكاً ذريعاً بأفراد هذه الحملة في طرق آسيا الصغرى التي يجهلونها، وبالتالي لم يصل منهم الى الأراضى المقدسة إلا فلول أنهكها الجهد .

رابعاً الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢) :

الحقيقة أن الوضع في الحملة الصليبية الثالثة اختلف كثيراً عما عهدناه في الحملات الصليبية السابقة فقد ظهرت على الساحة شخصيات جديدة ، وتغيرت ملامح الخريطة السياسية بعض الشيء في آسيا الصغرى والشرق الاسلامى ، والعلاقات بين الاطراف في المنطقة تغيرت تغيراً جذرياً ، فقد ظهر في الشرق شخصية صلاح الدين الايوبي . فبعد وفاة نور الدين استقل صلاح الدين بمصر وتزعم حركة الجهاد وخاض صراعاً طويلاً ليقتضي على منافسيه ، ولقد تفرغ لقتال الصليبيين بعد أن قام بتوحيد القوى الاسلامية التي كانت في نظرة وسيلة لغاية اكبر وهي القضاء على الكيان الصليبي في بلاد الشام .

(1) Runciman : A history of the crusades ., vol . 2 p . 276 .

وكانت قمة انتصاره على جيوش الصليبيين في موقعة حطين الشهيرة في ٤ يوليو ١١٨٧ م (٢٤ ربيع الثاني ٥٨٢ هـ) حيث أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين ثم سقوط بيت المقدس رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ، الذى أدرك أخيراً اهماله في عدم الاستجابة للنداءات المتكررة التى اصدرها الصليبيون في الشام فى السنوات الاخيرة لتردى الأوضاع التى كانت تطالب بضرورة قيام حملة صليبية جديدة من اوروبا للقضاء على قوة صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الاسلامى بأسره^(١).

ولم يلبث كونراد دى مونتفرت أن أرسل فى أواخر صيف ١١٨٧ م جوسياس *Josias* رئيس أساقفة صور كمبعوث من قبله يحمل رسائل إلى ملوك وأمراء غرب أوربا يشرح إليهم ماوصل اليه وضع الصليبيين فى بلاد الشام من سوء ويطلب من البابوية ، وملوك الغرب أمرائه النجدة السريعة^(٢) وقد واصل جوسياس سيره فوصل إيطاليا ليشرح إلى البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧ م) فى روما موقف الصليبيين ، فمات حزناً على ضياع بيت المقدس وقد بادر خليفته البابا الجديد جريجورى الثامن يحث ملوك وحكام

(2) Kingsford (C.L) : *The Kingdom of Jerusalem . 1099-1291 . in cam . med . hist . vol . v (Cambridge 1979) . , p .310 . ; Grabois (A) : op . cit . , p . 248 . ; Ottin : Land of Emperors and Sultans , p . 210 . ; Charles (M.B) : Crusades . , vol . 1 p . 559 .*

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٦٦٢ . ؛ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية .سلسلة عالم المعرفة رقم ١٤٩ (الكويت ١٩٩٠م) ، ص ١٤٣ . ؛ زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى ، ص ١٠٤ ؛ عفاف سيد صبرة : دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، (القاهرة ١٩٨٥م) ، ص ٣٩٣ .

(1) Grousset : *Histoire des croisades . , vol . 3 p . 8 . ; Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 4 .*

رنسيمن : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢١ .

Tout (T.F) : *The Empire and the papacy . , pp . 298-299 . ; Michaud (M) : op . cit . , vol II pp . 314-315 .*

غرب أوروبا على القيام بحملة صليبية جديدة لمحاربة المسلمين واستعادة بيت المقدس من أيديهم^(١).

وقد استجاب لدعوة البابوية ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق وهم الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا الاول (١١٥٢-١١٩٠) وريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا (١١٨٩-١١٩٩ م) وفيليب أغسطس ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣ م) وممثلون عن دول أخرى فى اوروبا^(٢). وكان فردريك بربروسا أكثرهم نشاطاً وحماساً ، وقد عزم على أن يسلك الطريق البرى بدلاً من الطريق البحرى الذى اعتزم اتخاذه ملك إنجلترا وملك فرنسا^(٣). وبذلك تكون الحملة الصليبية الثالثة قد اصطبغت من بدايتها بالصبغة الفردية ويكون لآسيا الصغرى نصيب فى نشاطها .

والامبراطور فردريك هو الذى آل إليه حكم ألمانيا بعد وفاة عمه كونراد الثالث سنة ١١٥٢ م . ويعتبر فردريك الاول من أقوى الشخصيات التى تولت حكم ألمانيا منذ عهد أوتو الاول العظيم (٩٦٢-٩٧٣ م) قضى فردريك مدة حكمه الطويلة البالغة سبعة وثلاثين فى كفاح مستمر من أجل اعادة عظمة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واتخذ فردريك الاول لقب بربروسا ، وما كان لديه من لحية حمراء كثة الشعر والمعروف ان فردريك بربروسا

(2) Tout (T.F) : *op . cit .*, p . 271 . ; Brehier : *Les Crosades .* , p . 118 .
حامد زيان غانم : الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة (القاهرة ١٩٧٧م) ، ص ١٠-١١ .

(3) Vasiliev : *op . cit .*, vol II . p . 445 . ; Michaud (M) : *op . cit .*, T. 2 p . 275 . ; Painter (Sidney) : *The third crusade , Richard the Lion hearted and Philip Augustus . Setton : A History of the crusades . vol . II (pp. 45-86) p . 49 . ; Charles (M.B) : Crusades ., vol . 1 p . 559 .*

(4) Ostrogorsky : *op . cit .*, p . 360 . ; Kingsford (C.L) : *op . cit .*, vol I . p . 310 . ; Jorga : *The Byzantine Empire ., pp . 165-166 . ; Painter (Sidney) : A Hist. of The Middle Ages ., p . 281 .*

صحب عمه كونراد الثالث (١١٣٨-١١٠٢ م) ملك المانيا فى الحملة الصليبية الثانية الفاشلة . التى خرجت من غرب أوربا (١١٤٧ م)، وكان كونراد الثالث ملك ألمانيا قد اصطحب معه ابن اخيه فردريك حاكم سوابيا - الامبراطور فروديك الاول ببروسا فيما بعد - وكان آنذاك شاباً قوى البينة ، وتولى قيادة فريق النبلاء فى تلك الحملة (١).

لم يحاول فردريك ببروسا الاستعجال فى الخروج من بلاده والاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة إلا بعد أن اتخذ ترتيبات دقيقة منظمة لحمته . وكان ذلك بسبب مالاقا فى الحملة الصليبية الثانية من عوائق السفر فى البلقان وآسيا الصغرى وليأمن حملته من جانب الفشل الذى لحق بحملة عمه كونراد الثالث ، ولتأمين خط سير حملته أرسل فردريك الاول إلى حكام وأمراء الدول التى سيمر بها جيشه بذلك حتى يتخذوا من التدابير ان يكفل تأمين جيشه وامداده بالمؤن والمعدات اللازمة (٢).

ويهمنا هنا أن نوضح قبل التعرض لنشاط الحملة فى آسيا الصغرى مدى تغيير العلاقات والمصالح من خلال هذه الرسائل والسفارات المتبادلة بين الاطراف المختلفة المعنية فقد أرسل فردريك ببروسا سفارة برئاسة الكاردينال كونراد رئيس أساقفة ما ينز إلى بيلا الثالث Belle III ملك هنغاريا (المجر) للتفاوض معه حول مرور الحملة عبر أراضيها وتلقى فردريك رداً طيباً من ملك المجر (٣).

(١) حامد زيان غانم : المرجع السابق ، ص ١٢-٢٠ .

(1) Austinlanpool (M.A) : *op . cit . , vol . V p . 359 . ; Pirenne : A History of Europe from The invasions to the XVI century . , pp . 272-273 .*

(2) Brehier : *op . cit . , p . 121 . ; Jobnson (Edgar) : “The crusades of Frederick Barbarossa and Henry VI “ Setton : vol . II (pp . 87-122) . , p . 91 . ; Austinlanpool (M.A) : *op . cit . , p . 410 .**

كما ارسل فردريك رسالة إلى صلاح الدين الايوبي يخبره أن الامبراطور الالمانى سوف يقوم بحملة صليبية على الشرق وإذا لم يرد بيت المقدس وصليب الصليبوت الذى وقع فى يديه عند استرداده لبيت المقدس وإذا لم يستجيب لذلك فإنه يتحده بالحرب فى ساحة صوغن (صان الحجر فى شرق الدلتا الحالية)⁽¹⁾.

وكان رد صلاح الدين حاسماً حيث أكد بأنه سوف يستولى على حدود طرابلس وانطاكية وهى المدن التابعة للصليبيين ، كما أن مطالب الامبراطور فردريك ببروسا والتي بمقتضاها يتحقق السلام لم يرض بها صلاح الدين إلا اذا استسلمت المدن الثلاث ، بالإضافة إلى ذلك عرض صلاح الدين بأنه إذا استسلمت تلك المدن فسوف يعيد له الصليب المقدس ويطلق سراح الاسرى ، ويعيد الاديرة لاصحابها المسيحيين ولا شئ سوى ذلك وإلا تحتم نشوب الحرب⁽²⁾.

كما ارسل الامبراطور فردريك سفارة إلى السلطان السلجوقى قلع أرسلان الثانى (١١٥٦-١١٩٢ م) سلطان قونية ، وقام بها أحد قادته ويدعى جود فرى ويسنباخ *Godfrey of wiesnbach* لترتيب مرور قواته والجيش الالمانى عبر أراضيها ، فرحب قلع أرسلان بالسفارة . وتلقى الامبراطور

(3) Michaud (M) : *op . cit . , vol II p . 375 . ; Austinlanpool (M.A) : op . cit . , p . 410 . ; Jobnson : op . cit . , p . 91 . ; Brehier : op . cit . , p . 121 . ; Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 11 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٢-٣٣ .

(4) Austinlanpool (M.A) : *op . cit . , p . 410 .*

عادل عبد الحافظ عثمان : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامى ١١٥٢-١٢٥٠م (٥٤٧-٦٤٨هـ) القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٢٨-١٢٩ .
؛ رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 11 .

الالمانى إجابة مبدئية وهو لا يزال فى المانيا فى مدينة نورمبرج *Nuremberg* فى أواخر ديسمبر عام ١١٨٨ م^(١).

والحقيقة أن العلاقات بين الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا والسultan قلع أرسلان الثانى سلطان سلاجقة الروم قديمة ، حيث تعود إلى سنة ١١٦٧ م (٥٦٣ هـ) عندما دخل فى مفاوضات معه باعتباره أشد أعداء الامبراطورية البيزنطية ، وعقد عقد معه معاهدة صداقة ، وحثه على غزو أراضى الدولة البيزنطية وقتال الامبراطور مانويل ، وكان فردريك بربروسا يقصد من وراء اتفاقية مع قلع أرسلان أن يبعد الامبراطور مانويل عن التدخل فى المسائل الاوربية فى غرب اوربا عامة وبصفة خاصة فى ايطاليا ، وأن يحوله الى الاهتمام بشئون آسيا الصغرى^(٢).

والواقع أن الكراهية كانت متبادلة بين الجانبين الالمانى والبيزنطى ، فالامبراطور فردريك كان يكن الكراهية لاباطرة القسطنطينية منذ الحملة الصليبية الثانية حينما ضاق ذرعاً لقيام كونراد الثالث بالبقاء فى القسطنطينية ، وعقد معاهدة صداقة مع الامبراطور مانويل .

وفى ذلك الوقت أضحى قلع أرسلان الثانى فى وضع يجعله لا يخشى الامبراطور مانويل ، فقد نجح فى تحقيق بعض المكاسب الاقليمية . ولقى مانويل هزيمة ساحقة عند ميريوكفالون *Myrioce Phalum*^(٣)

فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ م . وما إن وصلت أنباء هزيمة الامبراطور البيزنطى أمام السلاجقة إلى الغرب الاوربى ، حتى أرسل الامبراطور الالمانى

(1) Jobnson : *op . cit . , p . 91 . ; Michaud (M) : op . cit . , vol II p . 375 . ; Brehier : op . cit . , p . 121 . ; Austinlanpool (M.A) : op . cit . , p . 410 .*

(2) Chalandon (F) : *op . cit . , pp . 598-599 . ; Vasiliev : op . cit . , vol II . pp . 425-426 .*

(٣) انظر الفصل الثالث من الرسالة .

فردريك بربروسا إلى مانويل رسالة تقطر احتقاراً مخبراً إياه بأن الأباطرة الألمان الذين ورثوا سلطانتهم من الأباطرة الرومان العظام ، ويجب عليهم أن يحكموا ليس فقط الامبراطورية الرومانية بل وايضاً " المملكة اليونانية " (١) وبذلك يكون فردريك قد أعلن نفسه وريثاً للأباطرة الرومان وهو يحلم أن تكون الدولة الرومانية المقدسة التي يحكمها هي الامبراطورية الوحيدة في العالم كله .

ومن الترتيبات التي اتخذها أيضاً فردريك بربروسا أن أرسل رسالة إلى الامبراطور البيزنطي اسحق انجليوس سنة (١١٨٥-١١٩٥) للتفاوض معه حول مرور الجيش الألمان خلال الاراضى البيزنطية ، وقد أثار وصول الرسالة إلى القسطنطينية الرعب لدى الامبراطور اسحق ، فأرسل سفارة برئاسة يوحنا دوкас رئيس القضاء وصلت إلى نور مبرج توضح هدف هذه الحملة . إذ اعتقد أن حملة فردريك المزمع القيام بها إلى الاراضى المقدسة ما هي إلا حجة للقيام بحملة عدائية ضد الدولة البيزنطية . وبعد أن أوضح الألمان سلامة نيتهم وأن هدفهم الاراضى المقدسة تم عقد معاهدة بين الألمان والبيزنطيين لتنظيم مسألة عبور الجيش الألماني داخل الاراضى البيزنطية ، و تعهد فيها الجانب البيزنطي بتوفير المؤن وتقديم المرشدين وإمداد الجيش بالسفن لنقله إلى آسيا الصغرى ، وتعهد الألمان من جانبهم بأنهم سوف يسلكون مسلكاً طيباً أثناء مرورهم بالاراضى البيزنطية (٢) .

وعلى الرغم من عقد هذه الاتفاقية بين البيزنطيين والألمان إلا أنها لم تقض على الشك الذي اعتري البيزنطيين تجاه الألمان خاصة لقيام فردريك

(4) Vasiliev : *op . cit . , vol II . p . 430 . ; Hussey : Byzantium and the crusades in setton . , vol . 2 p . 141 .*

هسي (ح . م) : العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق / د . رأفت عبد الحميد . ؛ حسنين محمد ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(1) Michaud (M) : *op . cit . , vol II pp . 91-92 . ; Ostrogorsky : op . cit . , p . 406 . Hussey : op . cit . , vol . 2 p . 147 .*

بالتفاوض مع الصرب والسلاجقة أعداء الامبراطور، لذا كان مرور الالمان فى الاراضى البيزنطية امراً فوق رغبتهم^(١).

وكيفما كان الامر ، فإن البيزنطيين كانوا يعتقدون أن الامبراطور فردريك بربروسا قدم ليضع نهاية لحكمهم أو الذى قاده إلى ذلك عداء طويل لكل شىء لاتينى . وأنتشرت تكهات العرافين حيث كان عصر النبوءات ، أذ أشار العرافون أن الامبراطور الالمانى سوف يأتى عن طريق بوابه اكسلوخيريون *Xylokerkon* لى يضع التاجين الرومانيين على رأسه^(٢).

ولقد جرت الاتصالات والرسائل الدبلوماسية والسفارات المتتالية بين صلاح الدين والامبراطور إسحق انجليوس ، وعمل الاثنان على توثيق العلاقة بينهما ، فالسلطان صلاح الدين الايوبى كان يرغب من خلال علاقته بالدولة علاقته بالدولة البيزنطية مسانده ومناصرته ضد أى فريق من الصليبيين يمر بأراضى الدولة البيزنطية ، أما إسحق فبالإضافة إلى الشك والريبة فى نوايا فردريك ، فقد رغب فى توثيق علاقته بصلاح الدين ليضمن مناصرته ، حيث إن قدوم فردريك كان من شأنه أن يقوى من هجمات سلاجقة الروم والذين تمكنوا بعد معركة ميروكيفالون من طرد البيزنطيين من مناطق هامة بآسيا الصغرى^(٣).

على أن صلاح الدين عندما تأكد من اقتراب الحملة الصليبية الثالثة ، صمم على توثيق علاقته بالامبراطور إسحق ولذلك أرسل مع السفارة

(2) *Ostrogorsky : op . cit . , p . 406 . ; Vasiliev : op . cit . , vol II . pp . 445-446 . ; Painter : op . cit . , p . 281 .*

(3) *Jorga : op . cit . , p . 166 .*

(4) *Grousset : op . cit . , vol . III . pp . 10-11 . ; Brehier : Les Croisades . , p . 122 . ; Brand (C.M) : The Byzantines and Saladin 1185-1192 opponents of third crusade in speculum XXXVII N. 2 (April 1962) pp . 171-172 . ; Michaud (M) : op . cit . , vol II p . 376 . ; Previte : The shorter Cambridge Medieval History . , vol . 1 . p . 530 . ; Austinlanpool (M.A) : op . cit . , p . 410 .*

البيزنطية الاخيرة التي زارته سفراء من جانبه ، ليتفاوضوا مع الامبراطور إسحق حول صيغة إتفاق للتصدى للهجوم الصليبي ، وأرسل صلاح الدين مع السفارة هدية ثمينة ، حيث كانت تشمل على عشرين شحنة تحتوى على صناديق كبيرة من اللبان والبلسم وعقود الجواهر وهدايا أخرى تشمل على الروائح والتوابل (١). كما أرسل مع تلك السفارة منبراً وخطيباً وجمعاً من المؤذنين لإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية هذا المسجد الذى بنى فعصر بني أمية (٢).

تحرك فردريك فى ١١ مايو ١١٨٩ بجيشه من ريغنسبورج *Regensburg* واصطحب معه ابنه فردريك دوق سوابيا وأساقفة من تاريننتس *Tarentaise* وليج *Liege* ، وودزبورج *Wurzburg* ، وباسوا *Passau* و ريخسبورج وباسل *Basle* وميزن *Meissen* ودزنابروك *Dznabruck* وتول *Toul* وتسعة وعشرين كونت من مختلف بقاع ألمانيا وأنسبرت *Ansbert* مؤرخ هذه الحملة ، ورجال من كولون وعدد كبير من اتباعه على راس أضخم جيش صليبي قاده زعيم أوربي (٣). وقد سلك الطريق البرى إلى القسطنطينية ، وبلغ تعداد الجيش الالمانى حوالى مائه ألف مقاتل ، وامتاز هذا الجيش بقدرة الامبراطور على تنظيمه والسيطرة التامة عليه (٤)، " فكان من يجري منه جنايه ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه " (١).

(1) Brand : op . cit . , p . 171 . ; Grousset : op . cit . , vol . III . p . 11 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، تحقيق د/ جمال الدين الشيال (الإسكندرية ١٩٥٧م) ، ص ٣٢٨ .

(3) Mayer : op . cit . , p . 140 . ; Painter : *The third crusade in setton* . , vol . 2 p . 49 . ; Lang (D.M) : *Armenian cradle of civilization* , p . 202 . ; Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 11 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٣ .

(4)Grousset : op . cit . , p . 10 . ; Brehier : op . cit . , p . 121 .

واصل الجيش الالمانى سيره ودخل بلاد المجر فاستقبله بيلا الثالث ملك المجر بالترحيب والموده ،وهياً له كل السبل لتيسير اجتيازه لبلاده ، وفى ٢٣ يونيه عبر فردريك نهر الدانوب عند بلغراد ، ونفذ إلى داخل الأراضى البيزنطية ، وهنا بدأت المتاعب والمنازعات تواجه الحملة (٢).

ولم تكد جيوش فردريك تصل حدود الإمبراطورية البيزنطية حتى بدأ موقف الامبراطور إسحق أنجليوس الثانى يتغير ،ولم تدخل المعاهدة السابقة التى وقعت بين فردريك وبروسا وإسحق فى نورمبرج فى خريف ١١٨٨ م السابق خير التنفيذ ، لإن الإمبراطور إسحق بدأ يرتاب فى نوايا الجيش الالمانى ،وعلى هذا تغير موقفه وأخذ يثير مختلف العراقل فى طريق الجيش الالمانى (٣).

الواقع إن اسحق كان يخشى مرور جيش فردريك بأراضيه خاصة بعد عبوره إلى آسيا الصغرى ، فمن المحتمل أن يقيم فردريك مع سلاجقة الروم تحالفاً ضد الدولة البيزنطية وضد حليفه صلاح الدين ، ولكن إسحق أمام ضخامة جيش فردريك لم يستطيع اعتراضه بطريقه مباشرة (٤). ولعدم قدرة

(١) ابن شداد : " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة - ١٩٦٤م) ص ١٢٦ . ؛ أبو شامة : " الروضتين فى أخبار الدولتين " (بيروت - بدون تاريخ) ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(6) Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 11-12 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٣-٣٤ .

Tout (T.F) : op . cit . , p . 266 . ; Vasiliev : op . cit . , vol II . p . 446 .

(٣) حامد زيان غانم : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(2) Michaud (M) : op . cit . , vol II p . 376 . ; Grousset : op . cit . , vol III . p . 12 . ; Brehier : op . cit . , p . 122 .

إسحق الثاني العسكرية على الوقوف في وجه سلاجقة الروم اشترى مسالمتهم بعقد إتفاقية معهم تعهد بمقتضاها دفع مبلغ من المال سنوياً^(١). كانت الاتصالات مستمرة بين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى والامبراطور الالمانى فردريك بربروسا ، وكانت هناك سفارة ألمانية قادمة من سلطنة سلاجقة الروم ومعها وفد رسمى سلجوقي برفقة القائد الالمانى ، وبسبب التوتر القائم بين البيزنطيين والالمان صدرت الاوامر بالقبض على هذه السفارة الالمانية وتم احتجازها بالقسطنطينية عدة أسابيع ، وسلب أعضاؤها الهدايا المرسله إلى الإمبراطور^(٢). وهذا مما دعى البعض إلى أن يرى أن ما حدث للسفارة من احتجاز ومصادرة للهدايا قد تم بناء على إلحاح من ممثلى صلاح الدين وكان لدى سفراء فردريك من خيل وأمتعه^(٣). ولم يفت هذا فى عضد الإمبراطور فردريك أو ينقص من حماسة وحماس جنوده ، فتابع زحفه داخل الأراضى البيزنطية حتى وصل إلى مدينة فيليبوبوليس واستولى عليها ، ثم واصل زحفه قاصداً مدينة أدرينوبل ليستولى عليها تمهيداً لمهاجمة القسطنطينية ، كما كتب فردريك إلى هنرى الثالث بألمانيا يطلب منه تجهيز جيش وأسطول قويين لتأديب الإمبراطور البيزنطى بعد أستئذان البابوية للقيام بحرب صليبية ضد البيزنطيين^(٤)

(3) Tout : op . cit . , p . 342 .

(4) Eracles : *L'estoire de Eracles Empereur et la conquest de la Terre d'outremer . recueit des Historiens des croisades historiens occidentaux II* (Paris 1859) p . 131 . ; Rohricht (Reinhold) : *Regestaregni Hierosolymitani ((MXCVII-MCCXCI) Oeniponti Libraria Academica Wagneriana (Oeniponti -1893) . , p . 183 . ; Jobson : op . cit . , vol II p . 110 . ; Brehier : op . cit . , p . 122 . ; Grousset : op . cit . , T.3 . pp . 11 -12 .*

(5) Brand : op . cit . , p . 173 .

(6) Eracles : op . cit . , vol . II p . 131 . ; Previte : op . cit . , vol . I p . 530 . ; Tout (T.F) : op . cit . , p . 342 . ; Vasiliev : op . cit . , vol II . p .

وعندما علم إسحق الثاني بكل هذه التطورات أصيب بخيبة أمل ، وبدأ يعيد النظر في سياسته مع الألمان ، وبعد إجراء عدة مشاورات بين الجانبين - الألمانى والبيزنطى - ثم الاتفاق على عقد معاهدة بينهما تعهد فيها الطرف البيزنطى بإمداد الجيش الألمانى بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد ، كما اتفق الجانبان على ان يمر الصليبيون دون أن يسببوا أى ضرر وأن لا يتعدوا على أية مدينة أو قرية لأن البيزنطيين سوف يوفر لهم كل ما يحتاجونه ، كما تعهد إسحق بنقل أفراد الجيش الألمانى على سفن بيزنطية إلى الشاطئ الأسيوى ، وتم إطلاق سراح السفارة الألمانية والوفد السلجوقى المصاحب لها ، وعند عبور بريروسا الأراضى البيزنطية عند مدينة أدريانوبل وصل الوفد السلجوقى إلى الامبرطور فردريك فى ١٤ فبراير ١١٩٠م (٧ محرم ٥٨٦هـ) حاملاً تأكيد السلطان قلج أرسلان بالمساعدة فى مرور قوات الحملة الألمانية عبر أراضية فى آسيا الصغرى دون عقبات (١).

كما وصلت سفارة أخرى من قبل السلاجقة من الامير قطب الدين بن قلج أرسلان وولى عهده قبل أن يتسلم مقاليد الحكم فى قونية وباعباره

447 . ; Grousset : *op . cit . , vol . 2 p . 12 .* ; Runciman : *op . cit . , vol . 3 p . 11-12 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

(1) Eracles : *op . cit . , pp . 132-133 .* ; Choniates (Nicetas) : *Historia . , p 525 .* ; Rohricht : *op . cit . , No . 686 p . 183 .* ; Grousset : *Histoire des croisades . , vol . III . p . 14 .* ; Jobnson : *op . cit . , pp . 110-111 .* ; Vasiliev : *op . cit . , vol II . pp . 445-447 .* ; Turan : *Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks , p . 244 .* ; Cahen : *Selgukides , Turcomans et allemands au temps de la troisieme croisade Turcobyzantina IX (pp . 21 -31) . , pp . 26-26 .* ; Cahen : *pre-ottoman Turkey . , p . 680 .* ; Ostrogorsky : *op . cit . , p . 407 .*

السلطان المنتظر إلى أدريا نوبل وهذا الوفد قدم نفس الوعود للإمبراطور الالمانى (١).

أما عن الوضع فى آسيا الصغرى فنود أن نشير إلى أن الحملة الصليبية الأولى والثانية حينما قدمت إلى آسيا الصغرى وجدت القوة السياسية التركية الرئيسية فيها متمثلة فى سلطنة سلاجقة الروم ، وإلى جانب هذه القوى قوة أخرى تمثلت فى بنى دانشمند وكانت مستقلة عنها رغم تبعيتها لها وكان لها شعبتان إحداهما فى سيواس والاخرى فى ملطية ، ولقد نجح السلطان قلع أرسلان فى ضم جزئى إمارة دانشمند إلى ممتلكات السلطنة السلجوقية ، حيث استولى على سيواس سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ثم استولى على ملطية فى سنة ١١٧٧ م ، ويسقوط إمارة بنى دانشمند التى عاشت ما يقرب من قرن وربع يكون ميزان القوى فى آسيا الصغرى قد تغير ، وبالتالي فإن قوة سلطنة سلاجقة الروم قد ازدادت بشكل ملحوظ (٢).

وعلى أية حال ، تحركت الحملة الالمانية بقيادة الإمبراطور فردريك من أدريانوبل إلى ميناء غاليبولى المطل على بحر مرمرة من جهة الجنوب ، وكان فى انتظار الالمان السفن والاساطيل البيزنطية المكلفة بنقل الجيش الالمانى إلى الشاطئ الأسيوى الذى عبر فى مارس سنة ١١٩٠م وانتقل

(2) *Eracles : op . cit . , pp . 132-133 . ; Rohricht : op . cit . , No . 686 p . 183 . ; Cahen : Selgukides , Turcomans , p . 27*

(٢) سبط بن الجوزى : " مرآة الزمان " (شيكاغو ١٩٠٧ م) ، ج١ ، ص١٨٤ - ٢٩٤ .
بن العديم : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٣٧-٣٣٨ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ج١ ، ص٢٣ ؛ الأفسراى : مسامرة الأخبار ومسامرة الأخبار ، ص٣٢ ؛ ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص١٨٠-١٨١-١٨٤-١٩٠ ؛ الذهبى : " سير أعلام النبلاء " (الطبعة الحادية عشر - بيروت ١٩٩٦ م) ج٢١ ، ص٢٨٨ ؛ ابن فضل الله العمرى : " مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار " أصدر بإشراف / فؤاد سزكين ٢٧ جزءاً (فرانكفورد - ١٩٨٨ م) السفر ٢٧ ص ١١٠-١٤٧-١٤٩ .

Michel le Syrien : Extrait de la chronique . , pp . 366-373-379

؛ Cahen : pre-ottoman Turkey . , p . 103 .

علي بن صالح المحيمد : الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ص ١٢٥-١٢٦ .

بأكمله إلى الشاطئ الآسيوى^(١). وعلى الرغم من أعداد السفن الكثيرة التى استخدمها فلم يستخدموا طريق البحر .
وعلى أن ما فى الأرقام^(٢) الكبيرة للسفن التى قامت بنقل الجيش الالمانى عبر البسفور والدردينيل ما يثير التساؤل لماذا يستخدم الجيش الالمانى الطريق البحرى متجنباً مخاطر الطريق البرى خاصة أن الطريق البرى وما فيه من مشقه ومخاطر ليس بغريب على الإمبراطور فردريك الذى قاسى مع عمه كونراد فى الحملة الصليبية الثانية .
كما أن الصليبيين اكتشفوا منذ حملتهم الاولى خطورة ومشقة الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، فبالإضافة إلى الظروف الطبيعية لهذا الطريق فإنه كان يقع تحت قوى معاديه للصليبيين والبيزنطيين على حد سواء متمثلة فى قوة السلاجقة والتركمان .

وفى مدينة فلادلفيا اشتبك الجيش الالمانى مع سكان المدينة بسبب امتناعهم عن تقديم المساعدات للحملة ، وأقدم الالمان على تخريب المدينة إلا أن الموقف أمكن السيطرة عليه من قبل حاكم المدينة وبعض النصحاء الذين تفاوضوا مع الإمبراطور فردريك وأوضحوا له أن المدينة من أقدم المدن المسيحية وأنها تزخر بمقدسات مسيحية كثيرة وأنها آخر المعاقل المسيحية

(1) Jobnson : *op . cit ., vol II p . 110 .* ; Michaud (M) : *op . cit ., T. 2 p . 80 .* ; Grousset : *op . cit ., T.3 . pp . 12-13 .* ; Brehier : *op . cit ., p . 123 .* ; Milton (J) & Steinberg (R) : *The cross and the cresent Byzantium ., p . 86*

مكسيموس مونروند : " تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب " مج ٢ ، ص ١١٠ ،

(٢) تشير المصادر إل أن السفن التى كانت فى إنتظار الألمان بلغت خمسمائة سفينة وعشرين شونه ويشير البعض الآخر إلى أنه كان فى إنتظاره ألف وخمسمائة سفينة وستة وعشرين مركب وذكر البعض الآخر أنه كانت خمسة عشرة ألف سفينة . أنظر :

مكسيموس : المرجع السابق - مج ٢ ، ص ١١٠ . ؛ عادل عبد الحافظ : المرجع السابق

- ص ١٥٢ ، حاشيه ٣ ، ٤ .

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

ضد الاتراك ، فأمر فردريك قواته بالتوقف عن تخريب المدينة ^(١) ، ويبدو أن هذه المدينة التي تقع على حدود البلاد التابعة للسيادة الاسلامية بآسيا الصغرى قد وقفت موقفاً معادياً من الحملة ، ورفضت تقديم المساعدات ^(٢) خشية أن يعرضها ذلك لانتقام السلاجقة فيما بعد ويسبب ما وجد من علاقات طيبة بين صلاح الدين وإسحق الثاني ، وقام الأخير بإرسال رسالة إلى صلاح الدين إثر عبور فردريك إلى آسيا الصغرى يبرر له فيها سبب السماح لفردريك بالعبور حتى يتخذ صلاح الدين من التدابير ما يكفل له الصمود في وجه فردريك ، كما أخبره بالمتاعب التي حاقت بجيش الالمان ^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحملة التزمت في سيرها بالطريق الذى يقع بين الطريق الشرقى الذى سار فيه الصليبيون سنة ١٠٩٧ م والطريق الغربى الذى اتبعه لويس السابع سنة ١١٤٨ م ^(٤) وبذلك يكون الامبراطور فردريك قد التزم الطريق الذى سبق أن سلكه الإسكندر المقدونى على وجه التقريب قبل خمسة عشر قرناً ، فعبر نهر غرانيقوس واجتاز الانجيلوكوميس حتى بلغ الطريق البيزنطى الرئيسى الممتد من مليتوبوليس إلى باليكس الحالية فسلك هذا الطريق من قلاموس إلى فيلادلفيا ^(٥) .

(3) Jobnson : *op . cit ., vol II p . 110 . ; Michaud (M) : op . cit ., T. 2 p . 81 . ; Runciman : op . cit ., vol . 3 pp . 14-15 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

^(٢) مكسيموس مونزوند : المرجع السابق ، مج ٢ ، ص ١١٠ .

^(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ،

ص ١٥٩-١٦٠ . ؛ محمد ماهر حمادة : " وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي

للعالم الإسلامي " (٤٨٩-١٢٠٦ هـ / ١٠٩٦-١٤٠٤ م) دراسة ونصوص (الطبعة

الثالثة - بيروت - ١٩٨٦ م) ، ص ٤٢-٤٣ .

^(٤) باركر (ارنست) : الحروب الصليبية ، ص ١١٣ .

(2) Runciman : *op . cit ., vol . 3 p . 14 .*

وفي مدينة فيلادلفيا اشتبك الجيش الألماني مع سكان المدينة بسبب امتناعهم عن تقديم المساعدات للحملة ، وأقدم الألمان علي تخريب المدينة ، إلا أن الموقف أمكن السيطرة عليه من قبل حاكم المدينة وبعض النصحاء الذين تفاوضوا مع الإمبراطور فردريك ، وأوضحوا له أن المدينة من أقدم المدن المسيحية وأنها تزخر بمقدسات مسيحية كثيرة وأنها آخر المعاقل المسيحية ضد الأتراك ، فأمر فردريك قواته بالتوقف عن تخريب المدينة (١) .

ويبدو أن هذه المدينة التي تقع علي حدود البلاد التابعة للسيادة الإسلامية بآسيا الصغرى ، قد وقفت موقفاً معادياً من الحملة ، ورفضت تقديم المساعدات (٢) خشية أن يعرضها ذلك لإنتقام السلاجقة فيما بعد .

واصل الجيش الالمانى زحفه فى آسيا الصغرى ووصل إلى لاوديكيا وكانت مدينة يونانية مستقلة عن حكم التركمان ويسكنها شعب يونانى ، فرحب أهالى المدينة بالامبراطور فردريك والجيش الالمانى ، وقدموا له كل ما احتاجه من المؤن والعتاد ، كما استعان قادة الحملة ببعض الادلاء اليونانيين فى معرفة أفضل الطرق والمسالك بآسيا الصغرى (٣) .

بعد ذلك تقدم الجيش الالمانى إلى داخل آسيا الصغرى وسلك الطريق الذى سبق أن سلكه الإمبراطور مانويل الأول كومنين فى طريقه إلى لقاء

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

Michaud (M) : op . cit . , T. 2 p . 378 . ; Grousset : op . cit . , T.3 . p . 13 .

مكسيموس مونروند : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(3) Jobnson : op . cit . , p . 110 . ; Michaud : op . cit . , T. 2 p . 81 . ; Runciman : op . cit . , vol . 3 pp . 14-15 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

(٢) مكسيموس مونروند : المرجع السابق ، مج ٢ ، ص ١١٠ .

(٣) حامد زيان غانم : المرجع السابق ، ص ٤١ .

سلاجقة الروم في معركة ميروكيفيا لون سنة ١١٧٦ م . وقد سلك الإمبراطور فردريك هذا الطريق لدواعي تتعلق بسلامه الحملة ، واجتاز بعد مناوشة مع الترك موضع ساحة المعركة التي مازالت عظام الضحايا ظاهرة فيها للعيان وكان الطريق شاقاً وعراً ، وأخذ الجوع والظمأ من الحملة بعد أن سار حول طرف جبل سلطان داغ ، وفقد الالمان عدداً كبيراً من رجالهم وخيولهم من هجمات وسهام الترك ثم دخلت الحملة الالمانية أراضي السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني (١).

على أننا نريد هنا أن نقف عند موقف السلاجقة من حملة الإمبراطور فردريك في آسيا الصغرى ، فمن المعروف أنه قد جرى تعاون بين السلاجقة والالمان في معركة ميروكيفيالون ، كما أن المراسلات بين الطرفين قبل عبور الحملة الالمانية الدردنيل إلى آسيا الصغرى مستمرة وقائمة والتي بمقتضاها يقوم السلاجقة بتقديم كافة التيسيرات إلى الحملة الالمانية . والحقيقة أن المؤرخين المسلمين واللاتينيين اختلفوا فيما ذكروه في موقف قلج أرسلان من الالمان ، فيشير المؤرخون اللاتينيون أنه عندما وصلت أنباء الاتفاق الالمانى البيزنطى إلى مسامع السلطان قلج أرسلان ، غضب وصمم على إعاقة مرور فردريك داخل أراضيها فجمع جيشه وقام بتحسين الطرق والمناطق التي سوف يمر فيها لمنعه من المرور (٢) . وبذلك يكون السلطان قلج أرسلان قد نوى برغم ما بذله من وعود أن لا يمنح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء (٣).

(1) Eracles : op . cit . , p . 133 . ; Grousset : op . cit . , T.3 . pp . 13-14 . ; Rice (T.T) : The Seljoukes in Asia Minor . , p . 65 . ; Jobnson : op . cit . , vol II p . 110 . ; Barger (E) : In the track of the crusaders . p . 176 . ; Turan : op . cit . , p . 244 .

(2) Eracles : op . cit . , p . 132 .

(3) Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 14 .

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

أما عن موقف المؤرخين المسلمين من قلعج أرسلان فقد أشاروا بوضوح إلى روابط الصداقة والتحالف التي جمعت بين السلطان قلعج أرسلان والإمبراطور فردريك. وقد انتقد المؤرخ ابن شداد هذا الموقف المتخاذل من السلطان قلعج أرسلان حيث ذكر أنه " عندما أرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الالمان من بلاده ، إنما يفيد بذلك أمام صلاح الدين بالشفاق لملك الالمان ، وهو فى الباطن يظهر له الوفاق ، وأن سلطان السلاجقة سرعان ما أمد الامبراطور بالمرشدين والرهائن حتى يعبر أراضيه بسلام " (١).

وكان قلعج أرسلان قد سارع بإرسال رسالة إلى صلاح الدين يخبره فيها بوصول حملة فردريك ببروسا إلى آسيا الصغرى ووعده بصددهم وعدم تمكينهم من عبور أراضيه ، فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم وافترق أولاده واستبدادهم عليه (٢) . على حين يذكر المؤرخ ابن الأثير أن أسباباً قوية دفعت السلطان قلعج أرسلان على السماح لفردريك ببروسا لعبور أراضيه كحالة الضعف التي كانت تتعرض لها البلاد بسبب المشاكل الداخلية وكما ذكر أن قلعج أرسلان يكتتب صلاح الدين بأخبارهم (٣)، بينما يرى سبط بين الجوزي أنهم "لما دخلوا بلاد قلعج أرسلان لم يكن له بهم طاقة فاحتاج إلى مسالمتهم وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم " (٤).

والحقيقية أن قلعج أرسلان كان فى وضع لا يحسد عليه ، فهو قد تعهد بالسماح للإمبراطور فردريك الأول وجيشه لعبور أراضيه فى آسيا الصغرى . وفى نفس الوقت إذا سمح لفردريك بعبور أراضيه فسوف ينقلب المسلمون فى كل مكان ضده ، وربما يصفوه بالخيانة . يضاف إلى ذلك ما

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٣ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٧ .

(٤) سبط بين الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥٨ .

كان يتعرض له من السلطان قلعج أرسلان من ضغط بسبب التحالف الذى جرى بين خصيصة صلاح الدين من ناحية والامبراطور البيزنطى أنجليوس من ناحية أخرى .

كما أن هناك تطوراً آخر حدث فى سلطنة سلاجقة الروم حيث قام السلطان قلعج أرسلان وكان طاعناً فى السن آنذاك بتقسيم ملكه على اولاده فى نهاية حياته ، ولم يدرك أن هذا سوف يجرحهم إلى النزاع فيما بينهم وإلى طمع اعدائهم فيهم بتفتيتهم ، فقد اعطى قونية وأعمالها لابنه غياث الدين كيوخسروا ، وأقسرا وسيواس لقطب الدين وتوقات لركن الدين سليمان وأنقرة لمحبي الدين ، وملطية لمعز الدين قيصر شاه ، والأبلستين لمغيث الدين ، وقيصرية لنور الدين محمود ، ونسكار وأماسيا لابن أخيه ثم ندم على ذلك وأراد انتزاع الاعمال من اولاده فخرجوا عليه (١) ، ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين وانتزع منه السلطان (٢) .

أما عن صلاح الدين فقد أخذ يتابع تقدم حملة الالمان فى قلق وأرسل " العيون والجواسيس إلى آسيا الصغرى للوقوف على أخبارهم " (٣) .

على أية حال ، تقدم الجيش الالمانى داخل أراضى قلعج أرسلان وعند سهل فيلومليوم *Philomelium* واجه الجيش الالمانى الترك الذين حاولوا وقف تقدمهم ، ولم يكن أمام الالمان إلا محاربتهم ، واشتبك الفريقان وأصيب فى المعركة فردريك دوق سوابيا والحق الترك بالجيش الالمانى خسائر كثيرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن الجيش الالمانى من التغلب

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩٢ . ؛ القلقشندى : "صبح الأعشى فى

صناعة الإنشا " (القاهرة-١٩١٣م) ج ٥ ، ص ٣٥٩

Cahen : Seljukides , Turcomans ., pp . 24-25 .

(٢) ابن العبري : "تاريخ مختصر الدول " ، ص ٢٢٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

عليهم وقاموا بتدمير المدينة وإحراقها ، كما نجح الالمان فى هزيمة السلاجقة مرة أخرى بالقرب من سينولاريوس *Cinolarios* (١).

واصل الجيش الالمانى تقدمه متجهاً إلى قونية ، وكان مع الامبراطور فردريك أدلاء اترك صحبوه من لاودكيا إلى قونيه ، وقد أسره أثناء حروبه مع الترك وجعلهم يتقدمون الجيش وهو مكبلون بالسلاسل (٢). وأثناء تقدم الجيش الالمانى قاده الأدلاء الى قفار غير مسلوكة وأراضى عديمة الماء فأصاب الجيش التعب وعانى الظمأ ، واضطر لأكل لحوم جيف الخيل التى ماتت والشرب من دمائها وغيرهم كانوا يعضون بأسنانهم بعض الأخشاب الناشفة لعلمهم يجدون فيها نوعاً من الطراوة (٣).

على أن أخطر ما واجه الجيش الالمان أثناء زحفه فى آسيا الصغرى " التركمان الأوج " الذين أشارت إليهم المصادر الإسلامية وهو القاطنون على التخوم السلجوقية - البيزنطية ، حيث ألحقوا بالجيش الالمانى خسائر ضخمة وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ، والفترة التى قطعها من الشاطيء الاسيوى الشرقى لآسيا الصغرى وحتى وصوله إلى قونيه كما سيأتى (٤). وكان

(5) *Eracles : op . cit . , p . 133 . ; Choniates (Nicetas) : Historia . , pp . 541-542 . ; Cahen : Seljukides , Turcomans . , pp . 29-30 .*

مكسيموس مونزوند : المرجع السابق ، مج ٢ ، ص ١١١ .

(1) *Michaud (M) : op . cit . , T. II pp . 381-382 .*

(٣) مكسيموس مونزوند : المرجع السابق ، مج ٢ ، ص ١١٢-١١٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٤٨ . ؛ ابن شداد : " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " ص ١٢٤-١٢٥ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٥ . ؛ عماد الدين الأصفهاني : " الفتح القسى فى الفتح القدسى " ص ٢٦٣ . ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حققه وعلق عليه / د. حسن محمد الشماع ، المجلد الرابع

التركمان قد نجحوا في عزل مدينة فيلادفيا ولاودكيا عن باقي الممتلكات البيزنطية في غرب آسيا الصغرى ولم يكن يكثرثوا بأى استقرار في المنطقة (١).

ويرى المؤرخ المحدث فريونز أن تركمان الأوج كانوا من اكبر العقبات وأعتها التي واجهت الإمبراطور فردريك بربروسا في آسيا الصغرى أثناء زحفه على رأس حملته الصليبية ومن قبله أيضاً الامبراطور مانويل كومنين الذى واجههم في معركة ميريو كيفالون سنة ١١٧٦م خلال زحفه في آسيا الصغرى ، ولقد شكوا كل من مانويل وفردريك بارباروسا إلى السلطان قلج أرسلان بأن هؤلاء التركمان لا يحترمون الاتفاقات المعقودة مع سلطنة قونية وقد أجاب السلطان بانه غير قادر على السيطرة على هؤلاء البدو التركمان (٢).

ودخل في عداة الالمان أيضاً بعض أبناء السلطان قلج أرسلان وهم أمراء مدن أنقرة ، وقيصرية وفيلومليوم دون أن يكثرثوا بعود والدهم قلج أرسلان ، وربما بسبب بزوغ قوى أخرى هي قوة الابن الأكبر قطب الدين ، فقد كان الاخير يتصرف عند قدوم الحملة الالمانية " كسلطان " الدولة السلجوقية بعد ان أجبر والده على الاعتراف به كولى عهد منذ سنة ١١٨٩م (٥٨٥ هـ) (٣).

والخامس ، (بغداد - ١٩٧٠ م) ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٤-٢١٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٣-١١٤ .

Grousset : *op . cit . , vol . 3 . p . 14 . ; Turan : op . cit . , p . 244 . ; Cahen : op . cit . , pp . 28-29 .*

زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ١٠٨ . ، عفاف سيد صبرة : المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .

(4) Cahen : *op . cit . , pp . 28-29 .*

(5) Vryonis : *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor . , pp . 128-262 , p . 267 . No . 737 .*

(٣) محمد زكي نجيب : المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ ، ٧٩ .

فقد أشارت المصادر الإسلامية إلى قطب الدين بن قلع أرسلان الذى أخذته حمية الإسلام ووقف موقفاً معادياً من الحملة الالمانية وسياسة ابيه المرضية للحملة الالمانية (١) . والحقيقة أن ما حدث من مقاومة الصليبيين فى آسيا الصغرى ربما يكون لصالح الدين دور فيه حيث كان يرغب فى القضاء على الحملة الصليبية فى آسيا الصغرى قبل وصولها إلى الشام (٢) .

واصل الجيش الالمانى تقدمه متجهاً إلى قونية ووصل إلى أسوارها فى ١٧ أو ١٨ مايو سنة ١١٩٠م وفوجيء الجيش الالمانى بجيش السلاجقة يقوده الابن الأكبر قطب الدين بن قلع أرسلان ومدعماً بمجموعات أخرى من تركمان الأمير رستم . ولم يكن أمام الإمبراطور فردريك إلا الاشتباك مع هذا الجيش ومهاجمة قونية فقسم جيشه إلى قسمين أحدهما قاده ابنه دوق سوابيا والآخر وضعه تحت قيادته ، والتقى الجيشان السلجوقي والالمانى أمام مدينة قونية . وقد تمكن الإمبراطور فردريك من هزيمة قطب الدين الذى هرب إلى داخل المدينة ، وقامت القوات الالمانية بنهب المدينة والسيطرة عليها وأحرقت أسوارها ، وهلك كثير من السلاجقة وفر آخرون (٣) وكانت مدينة قونية تتميز

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، ص ٣١٨ . ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ .

(3) Cahen : *Selgukides , Turcomans et allemands* ., pp . 28-29 .

(4) Eracles : *op . cit* ., pp . 133-134 . ; Choniates (Nicetas) : *Historia* ., pp . 541-542 . ; Smpad : *The Armenian chronicle of the constable S M Pad (1208-1276) Royal Historians , English trans. By Sirarpie Der Nersessian in Dumbarton Oaks Paper No . 13 , 1959 , p . 154 .*

ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٨ . ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٢٥ . ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٥-١٥٦ . ؛ الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٦٠-٢٦٣ . ؛ ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢١٧-٢١٨ . ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٢١٠ . ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

بالحصانة والقوة وبصعب أفتحامها^(١) وبذلك يكون الإمبرطور فردريك قد نجح في الاستيلاء على قونيه وهي المدينة التي فشل في الاستيلاء عليها بأباطرة الامبراطورية البيزنطية العظام أمثال ألكسيوس الاول كومنين وحننا الثانى ومانويل وغيرهم ، كما سنرى ذلك عند تعرضنا للنشاط البيزنطى فى آسيا الصغرى .

وكان السلطان قلعج أرسلان الذى كان قد لجأ إلى قلعة قونية ، قد حمل ابنه قطب الدين مسئولية ما حدث ، وفى محاولة منه لمعالجة الموقف عرض الصلح على الامبراطور فردريك ووعده بالخضوع لسيادته والمحافظة على الهدنة بين الطرفين وتقديم كل ما يحتاجه الجيش الالمانى ، فوافق الامبراطور فردريك على ذلك لأنه لم يكن راغباً فى البقاء فى قونيه^(٢).

وهنا نلاحظ أن المؤرخين المسلمين قد أشاروا إلى أن الألمان بعثوا إلى قلعج أرسلان بالهدايا وطلبوا فيه الهدنة فهادنهم وقالوا له : " إنا لم نصل لأخذ بلادك ، وانما خرجنا لأخذ ثأر البيت المقدس " ^(٣).

وأيا كان البادىء بطلب الصلح فقد كان الطرفان فى حاجة إلى هذا الصلح فالإمبراطور فردريك بريروسا قبل هذا الصلح لأنه لا يريد أن يدخل فى حروب جانبية من الممكن أن تثنيه عن هدفه وهو إنقاذ بيت المقدس . أما السلطان قلعج أرسلان فقد تخرج موقفه بعد دخولهم قونية وعدم مقدرته على التحكم فى اولاده .

Cahen : *op . cit . , pp . 29-30 . ; Pasdermadjan (H) : Histoire de l'Armenie . , p . 209 . ; Previte : op . cit . , p . 531 . ; Jobnson : op . cit . , pp . 112-113 . ; Jorga : op . cit . , p . 166 .*

(5) Jorga : *op . cit . , p . 166 .*

(6) Eracles : *op . cit . , pp . 542-543 . ; Choniates (Nicetas) : Historia . , p . 30 . ; Jobnson : op . cit . , p . 113 .*

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٥ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٨-٣١٩ . ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٨-٤٩ .

وكان أن أبرمت المعاهدة بين الطرفين في مايو ١١٩٠م (ربيع الثاني ٥٨٦هـ) نصت على أن يمتنع الترك من مهاجمة الألمان وتفتح الأسواق التركية أمام الجيش الألماني وعلى أن يقوم تعاون بين الطرفين ضد صلاح الدين الأيوبي لتقسيم الممتلكات الأيوبية^(١).

كما طلب الألمان من قطب الدين قلعج أرسلان أن يأمر رعيته بالكف عنه وأن يسلم إليهم جماعة من الأسرى الأتراك كرهان لحماية الجيش الألماني من أجل منع هجوم التركمان على الجيش الألماني أثناء زحفهم إلى بلاد الأرمن في قليقية . وانتهز قطب الدين هذه الفرصة للتخلص من بعض المناوئين له في الحكم والذين كان يكرههم فسلم إليهم ٢٥ أميراً ليكونوا في صحبتهم^(٢).

وعلى أية حال ، لم يمكث فردريك طويلاً في داخل أسوار مدينة قونية ولكنه أجاز لجيشه أن يخلد إلى الراحة فترة من الزمن في حدائق ميرام الواقعة بالأرياض الجنوبية للمدينة^(٣) . ثم تحرك الجيش الألماني من قونية من ٢٦ مايو ١١٩٠ في اتجاه مملكة أرمينيا الصغرى (قيليقية) وبالرغم من الاتفاق المعقود بين الجانبين السلجوقي والألماني ، وبالرغم من التسهيلات التي فتحها قلعج أرسلان للإمبراطور فردريك ، فقد تعرض الجيش الألماني لهجمات عديدة من قبل الأجناس التركية بغرض السلب والنهب الأمر الذي أغضب فردريك ببروس فقبض على الإدلاء والرهائن الذين سيرهم قلعج

(2) *Eracles : op . cit . , T.II . p . 134 . ; Choniates (Nicetas) : op . cit . , p . 543 . ; Grousset : op . cit . , vol . 3 . p . 41 . ; Cahen : op . cit . , p . 30 .*

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٩ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ص ١٥٦ . ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٢٥ . ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مج ٤ ، ص ٢١٥ .

Cahen : op . cit . , p . 30 . ; Gabriele : Arab historians of the crusade . , p . 210 .

(4) *Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 15 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٨-٣٩ .

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

أرسلان وابنه قطب الدين معه ، وقيدهم بعد ان أخذ ما معهم ووضعهم فى الأسر ، فهدد بإعدامهم فمنهم من فدى نفسه ، وخرج نظير فديه ضخمة ، ومنهم من مات فى الأسر (١).

ومما يجدر ذكره أن السلطان قلع أرسلان وابنه قطب الدين أرسلان إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد رحيل الإمبراطور فردريك بربروسا من قونية متجهاً إلى قليقية برسالة يعتذران له فيها عن عدم قدرتهما على منع فردريك من عبور بلادهما وإنهما أجبرا على ذلك لعجزهما عن صده (٢) ويدل هذا على حرص قلع أرسلان على التبريء من تهمة معاضدته للالمان ضد المسلمين . والحقيقة أن هذا يؤكد ما ذكر عن قلع أرسلان من أنه كان " ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة " (٣).

على أية حال ، وصل الجيش الالمانى إلى لارندا على حدود قيليقية فى ٣٠ مايو سنة ١١٩٠م (٤) وبمجرد وصول الجيش الالمانى من حدود قيليقية حتى بادر حاكمها ليو الثانى الأرمنى (١١٥٨-١٢١٩م) أمير أرمينيا الصغرى بالترحيب بالجيش الالمانى وأمدهم بالمؤن والزاد والعتاد اللازم وهداهم الطريق (٥).

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٨-٣١٩ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ص ١٥٦ . ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٣٤٩ . ؛ النويري : " نهاية الأرب فى فنون الأدب " ج ٨ ، ص ٣٢٤ .

(٢) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٠٣ . ؛ الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٩٨ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، مج ٤ ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

Gabriele : op . cit . , p . 211 .

(٣) ابن العبري : " تاريخ مختصر الدول " ، ص ٢٢٣ .

(٤) *Jobnson : op . cit . , p . 113 . ; Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 15 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

(٥) ابن الفرات : المصدر السابق ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٢١٦ . ؛ ابن خلدون : " العبر وديوان المبتدأ والخبر " ج ٥ ، ص ٣٧٤ . ؛ الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٩٠ . ؛ عثمان الترك : صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية ، ص ١٤٣ . ؛ سعيد عاشور : " سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى " ص ١٤٤ . ؛ إستارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية ، ص ٢٢٠ . ؛ فؤاد حسن حافظ : تاريخ الشعب الأرمنى منذ البدايه حتى اليوم ، ص ١٥٧ .

Lang : op . cit . , p . 202 . ; Gabrieli : op . cit . , p . 210 .

وبعد ذلك قاد الامبراطور فردريك الجيش الالمانى عبر دروب ومسالك جبال طوروس دون أن يصادف مقاومة نحو الساحل الجنوبى إلى سلوقية ، وهبط الجيش الالمانى الضخم إلى سهل سلوقية فى ١٠ مايو ١١٩٠م وتجهز لعبور نهر كالكادانوس *Calycadnus* السالف ، كيما يدخل المدينة وسبق الجيش فى المسير الامبراطور فى حرسه ، فنزلوا إلى حافة النهر وما حدث عندئذ ليس معروفاً وجه التأكد فقد توفى الإمبراطور فردريك الأول ببروسا غريقاً فى هذا النهر بقيليقية فى العاشر من شهر يونية سنة ١١٩٠م^(١) . ولقد كان هذا النهر عريض ومياهه تتميز بجريانها السريع^(٢) . ولقد أشار سبط بن الجوزى أن الملك فردريك بعد أن وافته المنية " سلقوه فى خل وحملوا عظامه ليدفنها فى القدس"^(٣) .

واختلفت آراء المؤرخين فى تعليل أسباب وفاة فردريك ببروسا المفاجئة ، ففسر البعض أنه أثناء عبور الجيش الالمانى النهر فى منتصف النهر فقد الامبراطور فردريك قدرته وقوته بسبب المجهود الشاق الذى بذله

(5) *Runciman : op . cit . , vol . 3 p . 15 .*

رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٩-٤٠ .
Previte : op . cit . , p . 531 . ; Kingsford (C.L) : op . cit . , p . 310 . ; Painter : The third crusade in setton . , p . 49 . ;
Austinlanpool (M.A) : op . cit . , p . 412 . ; Boase and others : op . cit . , p . 18 . ; Jorga : op . cit . , p . 166 . ; Morgan : op . cit . , p . 181 . ;
Lang : op . cit . , p . 202 . ; Gabrieli : op . cit . , p . 210 . ;
Pasdermadjan (H) : op . cit . , p . 210 . ; Maalouf : op . cit . , p . 207 . ; Rice (T.T) : The Seljoukes in Asia Minor . , p . 66 .
بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٠٤ . ؛ علية عبد السميع الجنزوري : الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، (القاهرة - ١٩٧٩ م) ، ص ٥٣-٥٤ . ؛ حسين محمد عطية : " إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٥٦ هـ) (الإسكندرية - ١٩٨٩م) . ص ٢٢٣ ، حاشية ٢١٢ . ؛ فولوفانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٢٤-١٠٧ . ؛ فؤاد حسن حافظ : المرجع السابق ، ص ١٥٧ . ، إستاريجيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(6) *Boase and others : op . cit . , p . 18 .*

(٣) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٥٨ .

فسقط وسط الماء ولم يلحقه حرسه الخاص فمات ^(١) . ويرى البعض الآخر أن قدم فرسه زلقت أثناء عبوره النهر فقفز به إلى الماء بسبب ثقل أسلحته ^(٢) . ويشير البعض الآخر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق ^(٣) وتشير بعض المصادر العربية إلى أن فردريك ببروسا أراد إنعاش نفسه بالاستحمام في مياه نهر السالف فاستحم في ماء ذلك النهر ، فأصابته برودة الماء بمرض مات على أثره بعد أيام قلائل ^(٤) . كما تشير بعض المصادر الأخرى أنه عندما عبر القوات الألمانية النهر ألنظم الموج بهم فطلب الملك موضعاً يعبر منه وحده . فدخل في مخاضة قوية فاخطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو في آخر رمق وهلك ^(٥) .

ومهما تعددت أسباب موت فردريك ببروسا فإن هذا لا يغير من حقيقة موته في هذا النهر ، والشئ الثابت هو أن فردريك توفى دون تحقيق هدفه الذي خرج من اجله وهو المشاركة في استعادة بيت المقدس من المسلمين .

وكانت وفاة الامبراطور فردريك هي بداية النهاية لهذه الحملة، فحملته قد عانت الكثير أثناء سيرها الشاق عبر آسيا الصغرى فالعديد من الجنود الألمان لقوا حتفهم وجانباً كبيراً من العتاد قد تبدد وكان الألمان ممن تنهار روحهم المعنوية إذا اختفى قائدهم لتعلقهم الشديد بعبادة القائد فقرر بعض الأمراء أن

(1) *Eracles : op . cit . , T.II . p . 137 .*

(2) *Choniates (Nicetas) : Historia . , p . 545 .*

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٩ . ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٤ .

Gabrieli : op . cit . , p . 210 .

(٤) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٢٥ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٥ . ؛ سبط بن الجوزي : " مرآة الزمان " ج ٨ ، ص ٢٥٨ .

(٥) عماد الدين الأصفهاني : المصدر السابق ، ٣٩١ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

يعودوا بأبنائهم إلي أوروبا ، واستقل أمراء آخرون من سيلوقية أو طرسوس إلى مدينة صور^(١).

ويرى المؤرخ المحدث كاهن إنه لم يكن لقلج أرسلان ولا لابنه قطب الدين دور في الحادثة التي حلت بالامبراطور فردريك في يونيه ١١٩٠م بقيليقية ولا أى دور فيما قاساه الجيش الالمانى فى قىليقية^(٢). كما يرى البعض أن موت الإمبراطور فردريك ببروسا قد رفع عن البيزنطيين عبئاً ثقيلاً^(٣).

اختلف الالمان على من يخلف الامبراطور فردريك فى قيادته الجيش ، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابى - والذى تم انتخابه بالفعل قائداً لهم - ، بينما مال بعضهم الآخر إلى تولية أخ لفردريك السوابى أكبر منه وهو هنرى السادس ، ولكن من الصعوبة بمكان تولية قيادته الحملة لأنه كان يرعى شئون الامبراطورية الرومانية المقدسة أثناء فترة غياب والده وأخوه فى الشرق^(٤).

(6) Runciman : *op . cit . , vol . 3 p . 16 .*

رتسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤١ .

Michaud (M) : op . cit . , vol II p . 384 . ; Mayer : op . cit . , pp . 138-139 . ; Grousset : op . cit . , T.3 . p . 17 . ; Boase and others : op . cit . , p . 18 .

حسين عطية : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(7) Cahen : *op . cit . , p . 30 .*

(8) Jorga : *op . cit . , p . 166 .*

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٤٩ . ؛ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥٨ . ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٤ . ؛ عماد الدين الأصفهاني : المصدر السابق ، ٣٩١ .

Painter : The third crusade in setton . , p . 49 . ; Michaud (M) : op . cit . , vol II p . 385 . ; Jobnson : op . cit . , pp . 114-115 . ; Gabriele : op . cit . , p . 210 .

ومهما يكن من أمر ، فإن ليو الثاني الارمنى ما إن أحس بضعف الجيش الالمانى وما حل به من التفكك والضعف بعد موت فردريك حتى أثر ألا " يلقى بنفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهو إفرنج وهو أرمنى فاعتصم هو عنهم فى بعض قلاعه المنيعة " (١) . ومن ناحية أخرى أرسل ليو الثاني (الكاغيكوس) إلى صلاح الدين رسالة يخبره ب وفاة فردريك ببروسا شارحاً له حالة الجيش الالمانى عقب وفاة إمبراطورهم وما أصابهم من ضعف (٢).

وحقيقة الأمر أن ليو الثاني أمير أرمنية كان يأمل فى أن يتوج ملكاً على أرمنية الصغرى حتى لا يبدو فى مكانه أقل من مكانه الأمراء الصليبيين ببلاد الشام ويبعد عنه أطماع البيزنطيين ، وعند وفاة فردريك أثر ذلك فى ليو تأثيراً عميقاً فى شعبه وتحطمت آماله فى الحال للوصول إلى التاج الملكى (٣).

وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكية حل بها وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالها ووصلت البقية الباقية إلى انطاكية فى ٢١ يونية سنة ١١٩٠ م " وكانهم قد نشبوا من القبور " (٤) ويتهم المؤرخون المسلمون على

(١) ابن شداد : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) نص رسالة الكاغيكوس إلى صلاح الدين . انظر : ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٢٤ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ . ؛ عماد الدين الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٢٦٢-٢٦٣ . ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٥٥ . ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، مج ٤ ، ص ٢١٦-٢١٩ . ؛ محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ١٨٣-١٨٦ .

Rohricht : op . cit . , No . 694 . p . 185 .

(4) Boase and others : op . cit . , p . 18 .

عثمان الترك : المرجع السابق ، ص ١٤٤-١٤٥ . ؛ إستارجيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٩ .

Gabriele : op . cit . , p . 210 . ; Painter : op . cit . , p . 49 .

جيش فردريك السوابي الزاحف على انطاكية بأنه كان " أكثرهم حملة عصى وركاب حمير ، غير عارفين بطريق ، ولا متحفظين فى مسير الناس يلتقطونهم ويتخطفونهم " (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن الانتصارات التى حققها بربروسا والصراع الذى حدث لسلطنة سلاجقة الروم من خلفاء قلع أرسلان قد أمهلت اليونانيين وحمتهم من الغزوات التركية المستمرة لأنه لم يكن هناك ما يوقف هؤلاء وطموحاتهم (٢) ، حتى ان البعض يرى للضربات المتتالية التى كالتها الفروسية الاوربية للاتراك السلاجقة خاصة وللمسلمين عامة تدين الدولة البيزنطية بطول سلامتها مدة ثلاثة قرون آخر (٣).

ونصل إلى القول إلى أنه نظراً لأن آسيا الصغرى كانت معبراً لثلاث حملات صليبية إلى بلاد الشام ، فقد بلغت سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى أهمية كبرى فى فكر السلطان صلاح الدين الايوبى ، لذا عزم علي ضمها إلى بلاده ، لأن من يمتلكها يستطيع أن يمنع أى قوات صليبية قادمة إلى بلاد الشام عبر أراضيها ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون تنفيذ هذا المشروع (٤) . ولو امتد العمر بصلاح الدين وقبض له ضم سلطنة سلاجقة الروم وأصبح فى مواجهة الدولة البيزنطية ربما تغيرت الخريطة السياسية لتلك المنطقة فى العصور الوسطى .

(١) عماد الدين الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٣٩٥ . ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج

٢ ، ص ١٥٦ . ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(1) Vryonis : *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor* . , p . 128 .

(٣) فشر (هـ . أ . ل) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، (القاهرة - ١٩٦٦م) ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٥-٩٦ . ؛ ابن كثير : " البداية والنهاية " ، ج ١٣ ، ص ٢ .

تأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام

أولاً : تأسيس إمارة الرها :

بعد الاستيلاء على مرعش انفصل بلدوين بقواته قاصداً الرها واعتمد على العناصر المسيحية التي كانت تمثل غالبية سكانها من الأرمن والذين نظروا إليه على أنه المحرر لهم من حكم السلاجقة المسلمين ، ونظراً لأن حاكمها كان مكروهاً من المسلمين والمسيحيين على السواء فقد حاول أن يتفق مع بلدوين عى اقتسام حكمها إلا أن مسيحيي الرها دبروا مؤامرة لقتله وبذلك خلصت المدينة لبدلون التي دخلها في فبراير ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ وأعلن قيام أول إمارة صليبية في الشام في مارس ١٠٩٨ م .

ثانياً : تأسيس إمارة أنطاكية

اتجهت قوات بوهيموند بعد مرعش نحو أنطاكية مستخدمة الطريق السريع Quick Road ومعه باقى أمراء الحملة الصليبية واستطاعوا الوصول للمدينة وحاصروها واستنجد حاكمها ياغى بأمراء المسلمين فى حمص ودمشق وبالخليفة العباسى ولكن استغاثاته ذهبت هباء ، وخشى من تأمر مسيحي المدينة ضده فأخرج الرجال خارج أسوارها وتحفظ على النساء والأطفال إلا أن الرجال انضموا للصليبيين وأمدوهم بالأسرار الخاصة بالتحصينات ، وظل حصار المدينة ما بين ٧ - ٩ شهور حتى ١٠٩٨ م

وحاول ياغى أن يخفف من الحصار بمهاجمة جند الصليبيين ولكنه فشل وعاد للمدينة وتحصن بها بينما دارت مفاوضات بين الفاطميين (الذين كانوا على عدااء مع السلاجقة) والصليبيين على اقتسام بلاد الشام وعملت القوى الإسلامية الأخرى بأمر التحالف المشين وحاول مساعدة أمير أنطاكية ياغى إلا أن المدينة سقطت في مايو ١٠٩٨ م ليعلن قيام الإمارة الصليبية الثانية

ثالثاً : تأسيس إمارة بيت المقدس (مملكة بيت المقدس)

لم يكن الطريق إلى بيت المقدس سهلاً لأن الساحلية محصنة وكان الصليبيون يرغبون في الوصول إلى بيت المقدس بسرعة بعد أن طال بهم الوقت منذ خروجهم من أوروبا عام ١٠٩٦م ولكن القوى السياسية في بلاد الشام من حكام المسلمين ساعدتهم على تخطي هذه الصعاب لأنهم لم يتحدوا في مواجهة الصليبيين بل آثروا السلامة ودخل معظمهم في تحالف مع الصليبيين مثل أمير حماة وحمص وطرابلس الشام ، وسكنت الحملة طريق البقاع وكان حكام المدن يطلبون الصلح وأهل المدينة يهجرونها تاركين مدنهم عامرة بالمؤمن التي يستولى عليها الصليبيون وتجمعت القوات الصليبية في حصارها لبيت المقدس الذي استمر أكثر من أربعين يوماً ولم يمنعهم عن حصارها سابق اتفاقهم مع الفاطميين (وهذا من الدروس المستفادة في عدم التفريط في حقوق المسلمين والتحالف مع أعدائها !!) وسقطت المدينة صباح الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م ووضعوا سيوفهم في رقاب من بها من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا لمساعدة الصليبيين والذين احتموا بالمسجد الأقصى وسالت الدماء أنهاراً في طرقات القدس وبلغ عدد القتلى ما بين ٦٠ ألفاً ومائة ألف

، واستولى الصليبيين على كان بالمسجد الأقصى من قناديل فضية وأموال
وبذلك تكون الحملة قد حققت أغراضها في الاستيلاء على بيت المقدس من
المسلمين واكتفى قائد الحملة جودفري بلقب حامى القبر المقدس ، وبعد أن
قتل جودفري سنة ١١٠٠م استدعى شقيقه بلدوين من إمارة الرها ليحل
محله بعد أن عين على الرها أحد أقاربه وتوج بكنيسة العذراء ببيت لحم في
٢٤ ديسمبر ١١٠٠م / صفر ٤٩٤هـ ليكون أول ملك صليبي على بيت
المقدس .

ثانياً : تأسيس إمارة طرابلس :

عهد بلدوين أول ملك على بيت المقدس إلى ريموند بفتح طرابلس
الشام فتمن من فتح طرطوس ١١٠٢م / ٤٩٥ هـ بعد مساعدة من أسطول
من البحر واتخذ منها ريموند قاعدة للاستيلاء على طرابلس التي كان أميرها
ابن عمار من بين الأمراء المسلمين الذين تعاونوا مع الصليبيين (وهذا
جزء المتآمرين مع أعداء بلادهم) واستنجد ابن عمار بأمرأ حمص
ودمشق إلا أن ريموند نجح في هزيمة هذا الحلف
وقتل منهم نحو ٧ آلاف ونجح في الاستيلاء على جبيل فأمكنه حصر
طرابلس وجبيل وقطع عنها الإمدادات التي تصلها من المدن الإسلامية
المجاورة .

وحاول حاكم طرابلس أن يفك الحصار عن مدينته وقام بهجوم
مضاد وجرح فيه ريموند وقتل سنة ١١٠٥م / ٥٠٠ هـ وخلفه في قيادة
الصليبيين ولیم جوردان الذى أحكم الحصار على طرابلس وساعدته الدولة
البيزنطية بالرجال والسلاح وظلت المدينة تقاوم ثلاث سنوات حتى استسلمت
في ١٢ يولية ١١٠٩م / ذى الحجة ٥٠٣ هـ ويسقوط طرابلس تم
للصليبيين تأسيس الإمارة الصليبية الرابعة والأخيرة بالشام .

تدريبات على الفصل الثالث



السؤال الأول : قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل

منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك

١ - سقطت مدينة نيقية في أيدي الصليبيين بعد حصار دام
(أ. ست أسابيع - ب. سبع أسابيع - ج. ثمانية أسابيع - د. تسعة أسابيع)

٢ - سقط الإمبراطور كونراد الثالث صريع المرض في مدينة
(أ. إفسوس - ب. اللاذقية - ج. قونية - د. هرقلية)

السؤال الثالث: قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر

علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة

وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة

- ١ - استولى الصليبيون على مدينة قونية في أغسطس ١٠٩٨ م.
- ٢ - اتسمت الحملة الصليبية الثالثة بالفردية
- ٣ - دوق إقليم اللورين وقت قيام الحملة الصليبية الأولى هو جودفري

الفصل الرابع الجهة الإسلامية ودورها في التصدي للصليبيين



أهداف الفصل الرابع

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على دور المسلمين في مقاومة الوجود الصليبي ومحاولة استرداد الإمارات الصليبية التي تكونت في بلاد الشام

حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين : الكفاح الشعبى ضد الصليبيين :

كانت الشعوب الإسلامية أسبق من حكوماتها فى حمل لواء الجهاد والكفاح ضد الغزو الاستعمارى الذى تخفى وراء صليب المسيح حيث أخذت شعوب المسلمين تنادى حكوماتها بضرورة النهوض لملاقاة الأعداء الغزاة المعتدين واستنقاذ أراضى المسلمين . وفى بغداد حاصرت الجماهير الخليفة العباسى وطالبته بدعوة زعماء المسلمين للتجمع والنهوض ، وقام خطباء المساجد ورجال الدين فى عواصم الإسلام بالدعوة إلى الكفاح وخرج المتطوعين (وهم الذين نسميهم اليوم الفدائيين) أفراد وجماعات يحاربون العدو ويهاجمونه حيثما استطاعوا .

وهكذا كانت الجماهير هى التى نهبت أولى الأمر إلى ضرورة النهوض لمواجهة الخطر وبرز كثير من دعاة المسلمين الذين قضوا حياتهم يخطبون فى المساجد والأسواق داعين الناس إلى الجهاد ويحدثنا المؤرخون عن ألوف المتطوعين الذين كانوا يخرجون من بيوتهم ليجاهدوا فى سبيل الله دون أجر بل دون النظر إلى مكافأة ، وكانت جماعات الفدائيين المسلمين تنقض على جيوش الصليبيين فتقتل وتأسر حتى دخل الرعب قلوب الصليبيين ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا جهود الجنود المجهولين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية ما تحقق النصر ولا استطاع القواد بجيوشهم المنظمة كسر شوكة الصليبيين والقضاء عليهم .

أشار ابن الأثير إلى بواد هذه الحركة الشعبية الإسلامية فى حوادث سنة ٤٩٢ هـ عندما ذكر ما نصه " ... وورد المستفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى أبى سعد الهروى ، فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا فى الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا

ويكوا وأبكوا ، وذكر ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد .. " (١)

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق وسرعان ما تحولت إلى حركة رأى عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأى والمفكرون وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين .

الكفاح المنظم العسكرى ضد الصليبيين

أولاً : الدور الأول بقيادة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود :

عماد الدين زنكى وجهاده فى تكوين جبهة إسلامية متحدة :

يعتبر من أبرز زعماء المسلمين الذين دعوا لقيام جهة إسلامية تتوحد فيها الجهود لقتال الصليبيين وطردهم وما أن استقر فى إمارته (الموصل ٥٢١هـ / ١١٢٧م) حتى أخذ سلطان الفرنجة الصليبيين ونفوذهم يتداعى ولم يكتف فى سياسته بالقول بل وضعها موضع التنفيذ حيث بسط أولاً نفوذه على القلاع والمدن المجاورة وأخضعها لسيطرته وضم نصيبين والخابور وحران حتى يكون آمناً فى زحفه على الشام وهادن الصليبيين فترة حتى يتمكن من فرض نفوذه على ما تبقى من الحصون والقلاع المجاورة له وكان الصليبيون يطمعون فى الاستيلاء على حلب وحين توجه إليها بجنوده وأصبح على مقربة منها راسله أهلها يستغيثون به ويعلمون طاعتهم له فضم إليه حلب وشحن قلعتها بالجند والمعدات سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨م ، وكان ضمه حلب ضربة للصليبيين لما يترتب على ذلك من قطع الصلة بين الرها من جهة وباقى الإمارات الصليبية بالشام من جهة ثانية كما استطاع ضم حماة ٥٣٣هـ / ١١٢٩م وأستولى على بعلبك وبعض الحصون شرق إمارة أنطاكية سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م .

وأدرك الصليبيون ما كان يهدف إليه عماد الدين في تكوين جهة إسلامية ضدهم فعدوا تحالفاً مع البيزنطيين على مهاجمة حلب لصرف عماد الدين عن تحقيق مشروعاته ولكن ما لبث ذلك أن انهار هذا الحلف بعد أن كشف كل فريق عدائه للآخر ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، وانتهز ذلك عماد الدين لاستئناف جهاده ضد الصليبيين وتظاهر بأنه يسير جيوشه نحو ديار بكر لفتح بعض حصونها وحين اطمأن الصليبيون بأنه غير قادر على المسير إليهم خرج أمير الرها الصليبي وعبر الفرات للشام وعلم بذلك عماد الدين الذي أسرع بجنده إلى الرها واقتحمها وظل يقاتل داخلها ٢٨ يوماً إلى أن سقطت عنوة في ديسمبر ١١٤٤م / ٥٣٩هـ وتملك قلعتها وبهذا نجح في أن يسترد أول إمارة أقامها الصليبيون في الشرق الإسلامي بعد أن بقيت في حوزتهم نحو نصف قرن .

والحقيقة أن ما قام به عماد الدين من أعمال لم يستطع جميع أمراء الصليبيين بالشام من هدمه كما أنه بدأ حركة الجهاد بشكل واقعي وكان من أبرز نتائج سقوط الرها خوف أوروبا وقادتها على انهيار الإمارات الصليبية بالشام . (٢)

نور الدين محمود ومواصلة بناء الجبهة الإسلامية :

أدرك نور الدين محمود أن تلك الجزئية التي حققها أبوه عماد الدين زكى بين شمال العراق وشمال الشام لا تكفى لتحقيق آمال المسلمين في الحرية وأن طرد الغزاة الصليبيين من الشام لا يتأتى إلا عن طريق تحقيق جبهة قوية إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل .

وكانت العقبة الكبرى في طريق الجبهة هي دمشق التي كان يطمع الصليبيون في الاستيلاء عليها والتي أصم حكامها الإنفصاليين آذانهم عن قضية الوحدة بل أنهم لم يتورعوا عن محالف الصليبيين ضد إخوانهم

المسلمين لحرصهم على مراكزهم وسلطاتهم ولكن تيار الوحدة كان أقوى من أن يستطيع حاكم إنفصالي وقفه حيث ثار أهل دمشق على حكامها الخونة وساعدوا نور الدين محمود على دخول مدينتهم من جهة الشرق حتى تمكن من امتلاكها واستقرت الأمور بيده سنة ١١٥٤ م وبذلك ازدادت الجبهة الإسلامية قوة ولم يبق خارجها سوى مصر ليستكمل نور الدين تكوين الجبهة ويحيط بالإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب .

ولم يكن الصليبيون أقل تطلعاً من نور الدين إلى امتلاك مصر كي يعزلونها عن العالم الإسلامي ولقطع طريق التجارة بينها وبين دول العالم الإسلامي ولكي يمنعوا قيام الجبهة الإسلامية المتحدة ، وفى سبيل تحقيق أهدافهم استولوا على وادى عربة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ثم سيروا حملة وصلت إلى جنوب سيناء ، ثم كرروا محاولتهم ٥١٢ هـ / ١١١٨ م فى غزو مصر بحملة من الطريق الساحلية من غزة للعريش ومنها للفرما التى تركها أهلها خوفاً من الصليبيين وأحرقوا المسجد الجامع بالمدينة وخرّبوا مساجدها ووصلوا تنيس () على بحيرة المنزلة) إلا أن بلدوين ملك بيت المقدس الذى كان على رأس الحملة مرض وانصرف عائداً وقبل وصوله العريش توفى ورمى أصحابه بأحشائه فى بحيرة البردويل (التى تسمت باسمه) وهى على بعد ٩٠ ك. م شرق بور سعيد .

وجاءت الفرصة لكل من نور الدين محمود ومملكة بيت المقدس الصليبية للتدخل فى شئون مصر وتحقيق اهدافها حيث كانت الخلافة الفاطمية تعاني آلام الموت البطئ ويتنافس على السيطرة بالحكم فيها كل من شاور وضرغام حيث استنجد الأول بنور الدين محمود والثانى بالصليبيين منذ عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م واستمر المعارك على أرض مصر بين الجيوش النورية والصليبية حتى تمكن أسد الدين شيركوه بمساعدة

المصريين من أن ينهى المعارك لصالح نور الدين محمود ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م وفشل الصليبيون الذين اضطروا للانسحاب من مصر خوفاً من هزيمة محققه على أيدي قوات نور الدين محمود وخوفاً من هجوم نور الدين على بقايا الصليبيين بالشام وأصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة لدولة نور الدين محمود وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد من الفرات للنيل وعلى رأسها رجل قوى جمع في قبضته بين القاهرة ودمشق وحلب والموصل ولم يبق أمامه سوى توجيه جهود المسلمين لطرد الصليبيين . (٣)

ثانياً : الدور الثانى بقيادة صلاح الدين الأيوبي وخلفاءه من

الأيوبيين : - صلاح الدين وقيادة حركة الجهاد الإسلامى :

تنقسم حياة الكفاح التى عاشها صلاح الدين فى سبيل تحقيق الهدف الأكبر توحيد الجبهة الإسلامية وطرد الصليبيين إلى مرحلتين :
١ - المرحلة الأولى وتشمل الفترة ما بين ١١٦٩ م إلى ١١٨٦ م :
(إقامة وتأمين الجبهة الإسلامية)

وخلال هذه المرحلة استطاع صلاح الدين الأيوبي تثبيت حكمه فى مصر ويقضى على الفتن التى ثارت ضده فى الدحل كما أجبر مملكة بيت المقدس وحليفاتها الدولة البيزنطية من رفع حصارها على دمياط بعد أن أمده نور الدين محمود بقوات ساعدته فى ديسمبر ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ .

ولم يلبث أن اتخذ من الهجوم على المدن الصليبية وسيلة للدفاع فشن هجوماً على الرملة وعسقلان وغزة فى ١١٧٠ فحطم أسوار هذه المدن وقتل عدداً كبيراً من جنودها واستولى على آيلة (إيلات) .

وقام صلاح الدين بأمر من سيده نور الدين بإسقاط الخطبة عن آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ١١٧١م وبذلك عادت للعالم الإسلامي وحدته الروحية في ظل خلافة واحدة هي الخلافة العباسية .

وبعد وفاة نور الدين محمود ١١٧٤م / ٥٦٩هـ انفرد بحكم مصر وضم دمشق ٥٧٠هـ للمحافظة على كيان الوحدة الإسلامية التي جاهد عماد الدين ونور الدين لإقامتها وواجه مؤامرات من جانب حكام حلب وحماة والموصل ووصل بهم الأمر إلى التآمر مع أعداء الإسلام (الصليبيين) ضد صلاح الدين ، وخلال ذلك استطاع الاستيلاء على حمص ١١٧٥م / ٥٧٠هـ وحاصر حلب وأمرائها الداعين للانفصال ولمواجهة تهديد الفرنجة عاد صلاح الدين إلى مصر وتخلّى عن مشروعات الوحدة وانصرف إلى تنظيم الأمور الداخلية وتشبيد القلاع والحصون وخلال ذلك لم يتوقف عن مواصلة المعارك

مع الصليبيين في جنوب الشام فكان يتبادل معهم النصر والهزيمة فقد أصابته الهزيمة أمام جيوش الصليبيين ٧٥٣هـ / ١١٧٧م ووقع بعض جنوده في الأسر إلا أنه بعد أن أعاد تنظيم قواته بمصر عاد وحقق انتصاراً كبيراً عليهم عند حمص مخاضة الأحزان (مرج عيون) بالقرب من بانياس ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ووقع في يده عدد كبير من الأسرى .

واستغل صلاح الدين نزاع البيت النورى حول السلطة واستطاع تحقيق أهدافه بعد وفاة سيف الدين غازى أمير الموصل ٥٧٦هـ وإسماعيل نور الدين أمير حلب ٥٧٧هـ وقرر الخروج لإخضاع حلب والموصل ، ودخل حلب بعد أن حاصرها ٥٧٩هـ / ١١٨٣م وفى ذى الحجة ٥٨١هـ / ١١٨٦م دخلت الموصل فى نفوذ صلاح الدين ، وهكذا حقق اكتمال تكوين الجبهة الإسلامية هدفه الأول لتحقيق حلمه الأكبر لطرد الغزاة من أرض المسلمين .

٢- المرحلة الثانية وتشمل الفترة بين ١١٨٦ إلى ١١٩٢ م

(الجهاد ضد الصليبيين)

بينما كان صلاح الدين يسعى إلى بناء القوة الإسلامية ويوحد صفوف المسلمين لمواجهة خطر الصليبيين الذين زرعوا في جسم العالم الإسلامي بؤر استعمارية زاد من آثارها السيئة تولى بعض المغامرين الأوروبيين السلطة فيها مثل حاكم الكرك أرناط الفرنسي المغامر التي كانت حماقاته ضد المسلمين سبباً رئيسياً في استنفار المسلمين للجهاد إذ تعددت حماقات هذا الحاكم بالرغم من عقد هدنة سابقة بين المسلمين والصليبيين حيث انتهك في ٥٧٧هـ / ١١٨١م الهدنة بتعرضه للقوافل التجارية القادمة من مصر إلى الشام مما أدى إلى توتر العلاقات بين الفريقين ودفعته حماقاته إلى محاولة مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة مرتين الأولى ١١٨١ م وفشل وكرر محاولته الثانية ١١٨٣م / ٥٧٩ هـ حيث حمل سفناً مفككة على ظهور الجمال وقام بتركيبها على ساحل البحر وملاها بالمقاتلين ثم أرسل إلى آيلة سفينة لمنع أهلها من الورد للمياه وأبحر بباقي السفن إلى عيذا بحيث قطع طريق التجارة وخرب ونهب وقتل وأسرى ثم واصل الإبحار إلى ساحل الحجاز وكان ذلك مفاجئاً لأهل البحر الأحمر الذين لم يعهدوا في البحر محارباً إفرنجياً ، وبلغ آنحطاطه الخلقى أن تناول على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم مما دفع صلاح الدين إلى أن يقسم على قتله بيده أن هو ظفر به وخرج الأسطول المصري من السويس بقيادة حسام الدين لؤلؤ فانقض على السفينة الرأسية عند آيلة (إيلات) وقتل بحارتها ثم أبحر إلى عيذاب وأدرك السفن الصليبية وهي في طريقها للحجاز وهي على مسافة يوم من سواحل الحجاز ، وطارد الصليبيين حتى أوقع بأسطولهم وفك أسرى التجار المسلمين وقبض على الصليبيين أسرى وذبح بعضهم في منى ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تحدثهم أنفسهم

بالعدوان على مقدسات المسلمين ، كما أرسل بعضاً من الأسرى في الأمصار الإسلامية لضرب أعناقهم بها .

وأدرك الصليبيون أن الحرب أصبحت وشيكة بينهم وبين صلاح الدين نتيجة لاعتداءات أرناط وأمثاله والذين لم يحترموا الاتفاقيات أو حرمان المسلمين ، كما أن صلاح الدين عزم على أن يتخذ الخطوة الحاسمة لمواجهةهم وتوجيه ضربة قاسية بعد أن تفرغ هو تماماً للحرب وأعد عدته ونظم جيوشه . (٤)

موقعة حطين

(٤ يوليو ١١٨٧ م / ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ)

أخذ صلاح الدين يوجه كل جهوده لحشد كل القوى الإسلامية ، بغية القيام بهجوم شامل ضد الصليبيين ولعل ما حدث سنة ١١٨٦ م من إجراء حركة تنظيم داخلية في دولته بين أفراد أسرته له صلة بذلك ، من ذلك أنه نقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب وأحل محله في مصر المظفر تقى الدين عمر - ابن أخى صلاح الدين - والأفضل على ابن صلاح الدين ، ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من أطماع ابن أخيه فأحل محله ابنه الثانى العزيز عثمان ، وتقرر استدعاء تقى الدين عمر إلى دمشق .

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يعمل فيه على تدعيم جبهته ويستعد للمعارك الفاصلة بينه وبين الصليبيين إذ بمملكة بيت المقدس الصليبية ينتابها الضعف فى أواخر أيام ملكها المريض بلدوين الرابع ، والمعروف أنه عندما تولى بلدوين الرابع العرض كان طفلاً صغيراً أبرص ، ومن ثم قام بالوصاية عليه ريموند الثالث كونت طرابلس ، ولما بلغ الملك

بلدوين سن الرشد في سنة ١١٧٧م تخلى ريمون عن الوصاية ، فير أن ما كان يعانيه الملك من داء البرص جعل حالته الصحية تزداد سوءاً ويات من المحقق أنه لن يعيش طويلاً لذلك انعقدت آمال المملكة على ضرورة زواج الأميرة سبيللا - أخت بلدوين الرابع - حتى تضمن ولاية الحكم ، وجرى زواج سبيللا من وليم دي مونتفرات أحد المغامرين الصليبيين الوافدين ، وارتضاه الجميع وريثاً للعرش . غير أن الآمال التي انعقدت على مونتفرات لم تلبث أن تبددت بعد أن مات في يونيو سنة ١١٧٩م متأثراً بمرض الملاريا بعد أن أنجب منها ابناً يعتبر وريثاً للملكة ، وتزوجت سبيللا للمرة الثانية سنة ١١٨٠م من جاي لوزجنان ، وهم مغامر فرنسي نال إعجاب سبيللا نظراً لما كان عليه من وسامة ، والواقع أن جاي لوزجنان لم يكن إلا صبياً ضعيفاً أحرق نبيلاً صغير الشأن لا يصلح لتولى شئون المملكة .

وفي عام ١١٨٣م اشتد المرض على بلدوين الرابع حتى لم يعد بوسعه أن يستخدم ذراعيه وساقيه وكاد بصره أن يتلاشى ويات من الواضح أنه لم يعد قادراً على إدارة مهام الحكم ، وتحت ضغط أمه عهد بالوصاية على العرش غلاى جاي لوزجنان الذي صارت له السلطة التامة على المملكة ، غير أن بلدوين الرابع أدرك سنة ١١٨٥م ضرورة اقضاء جاي لوزجنان عن الوصاية لعدم صلاحيته من جهة ولوقوعه تحت تأثير بارونات المملكة الذين أجمعوا على نقص كفايته من جهة أخرى ، وبعد أن قام بلدوين الرابع بأبعاد جاي ، أرسل إلى ابن خالته ريموند الثالث كونت طرابلس يدعوه لتولى إدارة المملكة والوصايا على العرش ، وأوصى بلدوين أن يخلفه على العرش ابن أخته الصغير من وليم دي مونتفرات الذي عرف باسم بلدوين الخامس ، وكان أن أدرك ريموند مدى حاجة الصليبيين عندئذ إلى فترة من الهدوء ، يدعمون فيها نفوذهم ويصفون

خلافاتهم الداخلية لذلك بادر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ - ١١٨٩ م) .

أما الصليبيون فبعد أن أراح الموت في مارس ١١٨٥ م الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه المزمن لم تلبث أن تفاقمت مشاكلهم ذلك أن الملك بلدوين الخامس الصغير توفي في عكا بعد بضعة أشهر من إعلانه ملكاً ، وكانت وفاته فاتحة لباب النزاع بين أمراء المملكة وباروناتها حول من يفوز بعرض المملكة حتى انقسم الصليبيون إلى معسكرين كبيرين أحدهما يؤيد جاي لوزجان والآخر يؤيد ريموند الثالث كونت طرابلس ونجح جاي في استمالة البارونات وأرناط صاحب الكرك وهرقل بطريك بيت المقدس وجرى تتويجه ملكاً ، فأنتهى بذلك وصاية ريموند ولم يجد ريموند طريقة لرد اعتباره إلا بالتقرب من صلاح الدين ، وقد أقسم أيضاً أنه لن يبذل مطلقاً الولاء للملك الجديد .

وعلى الرغم من انقسام الصليبيين على أنفسهم فإن ما عقده من هدنة مع صلاح الدين كان كافياً لرأب صدعهم والإبقاء على وحدة مملكة بيت المقدس ولكن أرناط صاحب الكرك الذي عرف بالعدو والخيانة لم يلبث أن ارتكب حماقة طائشة ترتب عليها نقض الهدنة ، ففي أوائل سنة ١١٨٧م تعرض لقافلة قادة من مصر في طريقها إلى دمشق أثناء اجتيازها الشوبك في حراسة " جماعة سالحة من الأجناد " ، ويبدو أن ما كانت تحمله القافلة من سلع ثمينة ونفائس جعله يغدر بهم بعد أن نزلوا عنده بالأمان فقتل العساكر وحمل التجار إلى قلعته الكرك أسرى ، ولما علم صلاح الدين بخبر القافلة أرسل إليه يطلب إطلاق سراح الأسرى ، ورد ما استولى عليه ولكنه رفض بل لقد بلغ من جرأة أرناط أن رد على رسل صلاح الدين قائلاً : " قولوا لمحمد يخلصكم " ، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد أرسل صلاح الدين إلى الملك جاي لوزجان يفيد بهما حدث وحاول جاي أن يلزم أرناط

بتسليم الأسرى والمنهويات ولكن أرناط أعرض عن طلب الملك ، ولما أصر أرناط على عصيانه نذر صلاح الدين دمه وأعطى الله عهداً أن ظفر به أن يستبيح دمه وهكذا انقضت الهدنة بين مملكة بين المقدس الصليبية وصلاح الدين .

أدى نقض الهدنة من جانب الصليبيين إلى أن صارت الحرب أمراً لا مفر منه فاختر صلاح الدين أن يظل في دمشق وكتب إلى جميع البلاد يدعوهم إلى الجهاد وتعبئة القوات اللازمة وخرج من دمشق في ١٤ مارس ١١٨٧م وتوجه إلى بصرى لاستقبال قوافل الحجاج خشية غدر أرناط وكان في الحجاج أخت صلاح الدين فلما وصل الحجاج اشترك بعساكره في إغارة على أراضي الكرك والشوبك ثم عادوا إلى دمشق ، أما عساكر دمشق وحلب والجزية والموصل وديار بكر فاحتشدوا في رأس الماء - إلى الشمال الغربي من حوران - وأغاروا على طبرية ووقع الصدام بينهم وبين الصليبيين عند صفورية في مايو ١١٨٧م انتهى بأن لقي عدد كبير من الصليبيين مصرعه ولما علم صلاح الدين بما أحرزه المسلمون من انتصار توجه إلى عشترا في حوران وبلغت عدة جيشه حوالي عشرين ألف جندي منهم فريق من ذوى الأسلحة الخفيفة وفريق مزود بأسلحة ثقيلة وأخذ في تعيين مراكز الأمراء وطلب ألا يترك كل جيش مكانه ولا يتزحج جندي عن موضعه وقال : " إذا دخلنا أرض العدو فهذا هو ترتيب جنودنا وهذه هي مواضع قواتنا " وفي يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١١٧٨ خرج صلاح الدين إلى فلسطين وبعد أن أقام خمسة أيام في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ارتحل ونزل غرب البحيرة على سفح الجبل مستهدفاً من وراء ذلك أن يترك الصليبيون مواقعهم عند صفورية والزحف إليه في اتجاهه غير أن الصليبيين ظلوا في مواقعهم عند صفورية والزحف إليه في اتجاهه ، غير أن الصليبيين ظلوا في مواقعهم لم يتحركوا منها ، ثم قام صلاح الدين بمهاجمة طبرية بعد أن ترك جانباً من

الجيش لقاء العدو ولم يلبث أن استولى على المدينة فى ٢ يوليو ١١٨٧م وإن لم يستطع الاستيلاء على قلعتها .

ثارت نائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية وعقد زعمائهم مجلساً للحرب فى عكا لبحث الموقف فمنهم من رأى - ومن بينهم ريموند الثالث كونت طرابلس - ان تقوم خطتهم الحربية على التزام الدفاع المطلق عند فورية لأن الجيش الذى يهاجم فى حرارة الصيف اللافحة لن يكون الموقف فى صالحه ولن يكون بوسع صلاح الدين الانتظار طويلاً بقواته الضخمة وسوف ينسحب بعد فترة وجيزة ، غير أن بعض الزعماء - ومن بينهم أرناط - رأوا ضرورة الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين فى طبرية ، واتهموا ريموند بالمبالغة فى التخوف من المسلمين وأنه " يريدهم ويميل إليهم " .

وقد نجح أصحاب الرأى الأخير فى إقناع جاي لوزجنان ملك بيت المقدس الضعيف بالزحف على طبرية وهكذا بدأ الجيش الصليبي زحفه فى أوائل يوليو ١١٨٧م فى ظروف بالغة السوء فى فروح الصليبيين المعنوية هابطة وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار خطة السير إلى طبرية بالإضافة إلى حرارة الجو القاسية فى شهر يوليو وصعوبة الطريق الذى بلغ طوله سنة عشر ميلاً .

أما صلاح الدين فإنه لما علم بتحرك الصليبيين غمرته السعادة ، إذا أنه لم يقصد بمحاصرة طبرية والهجوم عليها إلا أن يفارق الصليبيون مكانهم ، وإذ اطمأن لنجاح خطته اتخذ معسكره بموضع قريب من ماء بحيرة طبرية ، وكان اليوم شديد الحرارة وأنهك العطش الصليبيين الذين لم يكن بوسعهم بلوغ الماء لأن المسلمين حالوا دون ذلك . وعندما أدرك الصليبيون التل الذى يعلوا حطين مباشرة وجدوا قمتين لذلك التل بلغ ارتفاع الواحدة منها ٣١٦ متراً ، مما جعل العرب يطلقون عليها قرون حطين ثم ينحدر

التل رأسياً وفي أسفله تقع قرية حطين ثم بحيرة طبرية بمائها الدافق ، ولما تعذر مسيرة الجيش الصليبي بسبب شدة الإنهاك أمر جاى رجاله بقضاء الليل فوق التل وعند ذلك لم يقف المسلمون ساكنون بل أشعلوا فى الأعشاب والأشواك التى تكسو التل وكانت الريح على الفرنجة (الصليبيين) فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والدخان وحر القتالى .

وعندما أتى صباح يوم يوليو ١١٨٧ (٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ) وجد الصليبيون أنفسهم محاطين بالمسلم إحاطة الدائرة بقطرها ، ولم يلبث الجيشان أن التحما فى معركة حامية بالسهل الواقع جنوب قرون حطين ولقى عدد كبير من الصليبيين مصرعه على الفور بينما وقع آخرون فى الأسر وبدأت قواتهم فى الانهيار بعد أن أضعفها الظمأ الشديد ، وحاول الصليبيون الارتداد إلى أعلى التل ولكنهم تمزقوا شر تمزيق ، وبذلك وقعت الكارثة الأليمة التى تعتبر بداية النهاية للوجود الصليبي ببلاد الشام .

وجرى حمل الأسرى إلى خيمة صلاح الدين وكان من بينهم الملك جاى لوزجنان ، وأرناط صاحب الكرك ، وجيرارد دى ريفورت مقدم الداوية ، وغيرهم من كبار الشخصيات الصليبية فاستقبلهم صلاح الدين فى مخيمه استقبالاً حسناً وأجلس الملك إلى جانبه وأخذ يذكر أرناط بأفعاله التى أضرت المسلمين وقال له : كم تخلف وتحنت وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الترجمان عنه أن يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك ، وكان الملك يلهث من شدة الظمأ ، وأحس بالرعب وعندئذ أمر صلاح الدين بتقديم إناء ماء مثلوج للملك جاى فشرب منه وأعطى ما تبقى أرناط فشرب وهنا غضب السلطان ووجه كلامه للملك قائلاً : لم تأخذ فى سقيه من إننا فلا يوجب ذلك له من أمناً . ويفسر المؤرخون هذا التصرف من ناحية صلاح الدين أنه : كان من جميل عادة العرب وكريم

أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بقوله ذلك وكان أن التفت صلاح الدين لأرناط وقال له : ها أنا انتصر لمحمد معك " ثم عرض عليه أن يعتنق الدين الإسلامي فلنم يفعل وعندئذ استل صلاح الدين سيفه وضربه به فأطاح برأسه وأخرجت جثته فلما رأى الملك جأى ذلك ارتاع وظن أن دوره آت عن قريب ولكن صلاح الدين هدا من روعه وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فقد تجاوز الحد وتجراً على الأنبياء .

استرداد بيت المقدس :

كان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين إلى بيت المقدس لسهولة الاستيلاء عليه ولكنه آثر أن يتجه أولاً إلى الموانى الساحلية بفلسطين ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتي إليهم من غرب أوربا فضلاً عن أن استيلائه على موانى فلسطين يعمل على سهولة اتصاله البحرى بمصر .

ولما كانت عكا أقرب الموانى إلى صلاح الدين فإنه توجه إليها مباشرة ولم تلبث المدينة أن استسلمت له فى ٨ يوليو ١١٨٧م بمجرد وصوله إلى أسوارها وأعطى صلاح الدين لأهلها الأمان وخيرهم بين الإقامة والرحيل فاخترأوا الرحيل وقام بإطلاق سراح من كان بها من الأسرى المسلمين ، ومن عكا أرسل صلاح الدين جيوشه إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وغيرها من البلاد المجاورة فاستولوا عليها ، كذلك استولى صلاح الدين على نابلس وصيدا وبيروت وتسلم جبيل مقابل إطلاق سراح صاحبها الذى وقع فى الأسر يوم حطين ، ثم اجتمع صلاح الدين بأخيه العادل الذى أتى على رأس قواته من مصر وتقرر مناولة عسقلان فلم تلبث أن استسلمت فى سبتمبر ١١٨٧م مقابل إطلاق سراح الملك جأى لوزجنان

ومقدم الداوية وهنا نلاحظ أن المدن الساحلية جنوب طرابلس وقعت في أيدي صلاح الدين فيما عدا صور ، ذلك لأن صلاح الدين عندما كان يعطى الأمان لأهل كل مدينة يفتحها يفضلون الرحيل إلى صور حيث اجتمع كل أفرنجي بقى فى الساحل ، ومن الواضح أن لجوء الصليبيين إلى صور كان خطأ عرض صلاح الدين للنقاد إذ استحال عليه الاستيلاء عليها من ناحية فضلاً عن أن الصليبيين قاموا بتحسينها واتخذوها قاعدة أساسية لهم من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين صعوبة الاستيلاء على صور توجه بيت المقدس ، وهناك وجد أهل المدينة من الصليبيين قد عزموا الدفاع عن مدينتهم فقاموا بتحسينها وحشدوا قواتهم بها وبوصول صلاح الدين على رأس جيوشه فى سبتمبر سنة ١١٨٧م رأى أن يبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية ولما ابتدأ الهجوم فى ٢٠ سبتمبر أدرك الصليبيون عجزهم عن مقاومة صلاح الدين فاستقر رأيهم على طلب الأمان غير أن صلاح الدين رفض أول الأمر وعزم على أن ينتقم لما ارتكبه الصليبيون منذ قرون من القتل والتدمير ثم لم يلبث أن قبل منحهم الأمان والسماح لهم بالخروج سالمين مقابل عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة ودينارين للطفل وجرى تسليم المدينة فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م .

ويتضح جلياً إنسانية صلاح الدين فى الأسلوب الذى عامل به الأسرى عقب سقوط بيت المقدس فى أيدي المسلمين فلم تتعرض دار من الدور فى المدينة للنهب ولم يحل مكروه بأحد من الأشخاص ودهش المسلمون حينما رأوا البطريك هرقل يودى عشرة دنانير مقدار الفدية المطلوبة منه ويغادر المدينة بقامة منحنية لثقل ما يحمله من الذهب وقد كان من الجائز أن ينجو من استرقاق ألوف عديدة من الصليبيين لو أن الاستبارية والداوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء ، ثم أعلن صلاح الدين أنه

سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز ويذل للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته وما فعله صلاح الدين يناقض تماماً ما قام به الصليبيون الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى فعلى أيديهم بلغ عدد الضحايا نحو سبعين ألف مسلم .^(٥)

هوامش الفصل الرابع

الجهة الإسلامية

ودورها فى التصدى للصليبيين

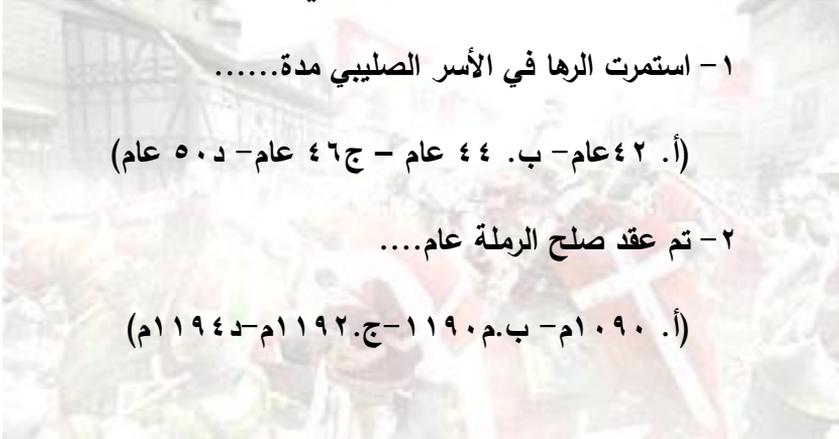
- (١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٩ .
وعن عماد الدين زكى .. انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ١ ، ص ٤٣٩-٤٥٦
- (٢) محمود الحويرى : بناء الجهة الإسلامية ، ص ١٤٩
- (٣) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧١
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٩
وعن نور الدين محمود أنظر : حسين مؤنس : نور الدين محمود، (القاهرة ١٩٥٩) محمد مؤنس عوض : فى الصراع الإسلامى الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ، (القاهرة : ١٩٨)
- (٤) انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ١٩٢ ، أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٢٥
- (٥) انظر محمود الحويرى : الحروب الصليبية فى الشام ومصر بعد توحيد الجهة الإسلامية على أيدي صلاح الدين ، ص ١ - ١١
سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ١٦٢ - ٢٠٨ . سعيد عمران : الحروب الصليبية ،

تدريبات على الفصل الرابع



السؤال الأول : قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل

منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك .



السؤال الثالث: قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر

علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة

وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة

- ١- نمك القائد نور الدين محمود من استرداد إمارة الرها من الصليبيين.
- ٢- نجح صلاح الدين الأيوبي في استرداد بيت المقدس عام ١١٨٧م

الفصل الخامس الحملة الصليبية من الرابعة إلى السابعة



أهداف الفصل الخامس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على أحداث الغزو اللاتيني على القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، والحملة الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة ومعرفة قادة وأسباب وأحداث ونتائج كل حملة .

الحملة الصليبية الرابعة (سنة ١٢٠٢ – ١٢٠٤ م)

لم يرضى البابا ودعاة الحرب عن نتائج الحملة الثالثة وعز عليهم أن تظل بيت المقدس في أيدي المسلمين فتم أعداد الحملة الصليبية الرابعة بسرعة وضعت خطتها على أن تتجه ضد مصر مباشرة ولكن انحراف الحركة الصليبية عن أهدافها وتغلب المصالح التجارية على الصالح الديني جعلت البنادق يحولون وجه هذه الحملة ضد القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية المسيحية - ولذا فإن المؤرخين الغربيين يصفون هذه الحملة بالخسة والدناءة لأن المحاربين انحرفوا عن أهداف الحملة فلم يحاربوا المسلمين بل احتلوا القسطنطينية ونهبوا واقتسموا المدينة فيما بينهم بعد أن اعتدوا على كنائسها وأهلها . (١)

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ – ٢١٢١ م) :

لم يرضى البابا انوسنت الثالث عن تلك النهاية التي آلت إليها الحملة الصليبية الرابعة ودعا في سنة ١١١٦م إلى حملة صليبية جديدة قادها جان دي برين Gean de Brinne وهدفها الشواطئ المصرية ١٢١٨م ووصلت إلى دمياط التي كانت تعتبر باباً لمصر وأرع العادل من شمال الشام إلى مصر لمواجهة هذه الحملة ولكنه توفي في الطريق بالقرب من دمشق ووع عبء الدفاع على ابنه الكامل واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط رغم جهلهم بطبيعة البلاد في نوفمبر سنة ١٢١٩م بعد حصارها تسعة أشهر أبدت فيها المدينة وأهلها بسالة نادرة وأظهر الكامل روح المسالمة إذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس وإرجاع المملكة

الصليبية لمعظم مساحتها الأولى مقابل الجلاء عن دمياط والشواطئ المصرية ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض لاعتقادهم في سهولة الاستيلاء على مصر ولم يزحف الصليبيون على القاهرة مباشرة بل أضعوا شهوراً عديدة في دمياط قبلاً تحركهم في أغسطس ١٢٢١م إلى القاهرة وكان الفيضان على أشده فضلاً عن حرارة الجو واخترقوا الدلتا حيث تمتد شبكة من القوات فاستغل السلطان الكامل هذه الفرصة وأمر بقطع السدود وفتحت الترغ المليئة بمياه الفيضان من كل ناحية مما اضطرروا إلى طلب الصلح والإسراع سنة ١٢٢١م بالعودة إلى بلادهم تلاحقهم خيبة الأمل ومرارة الفشل بعد أن أخطأوا في عدم قبول اقتراحوا الكامل واتخاذهم طريق خطأ للوصول للقاهرة ولم يسلكوا الطريق الذي سبق أن سلكه الفاتحين من قبل .^(٢)

الحملة الصليبية السادسة ١٢١٨ – ١٢٢٩ :

كان الإمبراطور فردريك قد وعد البابا بالقيام بحملة صليبية ولكنه ظل ينتحل الأعذار حتى ١٢١٨م حين قام بحملته تحت ضغط من البابا وبعد أن وصل عكا ونتيجة لقلّة عدد ما معه من الفرسان والجند فإن أرسل السلطان الكامل يفاوضه في شأن بيت المقدس (وكان كل من فردريك والكامل ويميلان للسلم) ونجحت مفاوضاتهما وعقدا اتفاقية يافا ١٢١٩م التي حددت هدنة لمدة عشر سنوات وبمقتضاها :

- ١- أن تعود بيت المقدس للصليبيين بالإضافة إلى بيت لحم والناصرية وصيدا مقابل أن يظل المسجد الأقصى والصخرة المشرفة وقرى القدس للمسلمين .

٢- يتعهد فردريك بعدم إرسال نجدة للإمارات الصليبية في شمال الشام

مثل طرابلس وأنطاكية .

٣- أن يطلق الفريقان أسرى كل منهما .

ولم يرض المسلمون عن هذا الاتفاق الذي جعلهم يتخلون عن بيت المقدس واعتبروها خسارة كما لم يرض عنه الصليبيون الذين حرموا من إرسال النجدة مكن أوروبا وهذا أضعاف لهم ولا يغنيهم حكمهم لبيت المقدس وحولهم المسلمون لابد أن يتولوا عليه يوماً ما . (٣)

الحملة الصليبية السابعة على مصر

الأيوبيون والصليبيون بعد وفاة الكامل :

ترتب على وفاة السلطان الكامل الأيوبي سنة ١٢٣٨م / ٦٣٥هـ انقسام البيت الأيوبي على نفسه من ناحية وفتح باب المنازعات والحروب الأهلية بين ولديه من ناحية أخرى فبعد أن صار العادل الثاني - ابن الكامل - سلطاناً على مصر لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره منصرفاً إلى حياة

والفجور ، وفي تلك أثناء كان الابن الأكبر للكامل وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب من أم جارية سودانية كان وقتذاك بشمال الشام لم يعترف هو الآخر بسلطنة أخيه الأصغر منه فعزم على إقصائه واستخلاص مصر لنفسه .

وفي النزاع الذي نشب بين الأخوين استعان كل منهما بأنصار من البيت الأيوبي نفسه ، وفضلاً عن ذلك استعان كل منهما بجموع الخوارزمية الذين تفرقوا في آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلطانهم جلال الدين الخوارزمي على يد المغول ، وفي تلك الأثناء كان الأمراء الأيوبيون قد

ضاقوا ذراعاً بانتشغال العادل الثانى باللهو عن مصالح الدولة فقبضوا عليه فى نهاية مايو ١٢٤٠م وعزلوه ، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب الذى دخل مصر فى ١٩ يونيو ١٢٤٠م ليصبح سلطاناً عليها . (١٢٤٠ - ١٢٤٩م) .

وفى وسط الاضطرابات والفوضى التى عمت الدولة الأيوبية عقب وفاة السلطان الكامل دعت البابوية لحملة صليبية جديدة استجاب لها جماعة من أمراء فرنسا على رأسهم ثيبوت الرابع (تيبالد) كونت شا مبنى وفى أول سبتمبر ١٢٣٩م وصلت حملة ثيبوت الرابع إلى عكا ، ولاشك أنه كان بوسع هذه الحملة أن تستغل المنازعات القائمة بين الأيوبيين وتتخذها مجالاً للمساومة تحصل به على امتيازات سخية من جميع أطراف النزاع ، ولكن ثيبوت رفض الأساليب الدبلوماسية التى اتبعها الإمبراطور فردريك الثانى وأصر على القتال .

انتهى ثيبوت الرابع إلى مهاجمة عسقلان وغزة ابتداءً ، ثم التوجه إلى دمشق للاستيلاء عليها بعد تأمين الطريق الجنوبى غير أنه فى الوقت الذى خرجت فيه حملة ثيبوت من عكا فى ٢ نوفمبر ١٢٣٩م قاصدة الحدود المصرية ، وصل جيش ضخ من مصر استطاع تطويق الصليبيين قرب غزة وأنزل بهم هزيمة ساحقة فى ١٣ نوفمبر من نفس العام ، وأسفرت الهزيمة عن وقوع الكثير من الصليبيين فى الأسر وإرسالهم إلى القاهرة فى حين انسحب الصليبيون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠م ولم تلبث الحملة الفرنسية أن بارحت عكا عائدة إلى الغرب الأوروبى فى سبتمبر سنة ١٢٤٠م .

ولم يكد يمضى على رحيل ثيبوت الرابع بضعة أيام حتى وصلت إلى عكا حملة صليبية أخرى فى ١١ أكتوبر بقيادة ريتشارد كورنوال شقيق هنرى الثالث ملك إنجلترا ويبدو أن تلك الحملة كانت صغيرة إذ لم تقم بعمل حربى

جدير بالاعتبار فكل ما قامت به هو تحصين عسقلان لتقوية استحكاماتها في مارس ١٢٤١م وبذلك يأمن الصليبيون في الشام أى هجوم من جانب مصر وبعد أن تم ريتشارد تحصين عسقلان أجاب الصالح أيوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع وأخيراً أبحر ريتشارد كورنوال من عكا إلى أوروبا في أوائل مايو سنة ١٢٤١م .

وحدث في سنة ١٢٤٤م أن عبر الخوارزمية نهر الفرات إلى بلاد الشام في جموع هائلة بلغت عشرة آلاف مقاتل واندفع الخوارزمية في سريهم حتى بلغوا دمشق التي كانت من القوة ما جعلتهم عاجزين عن الاستيلاء عليها وبعد أن نشروا الخراب في البلاد التي مروا بها هبطوا على طبرية فاستولوا عليها ، ثم اتجهوا إلى نابلس ومنها قصدوا بيت المقدس وعندئذ أدرك الصليبيون في بيت المقدس ما يحيط بهم من خطر فاستجدوا بالقوى الصليبية الموجودة بالشام وملك قبرس هنرى الأول ، فضلاً عن حلفائهم الأيوبيين في حمص ودمشق والأردن ولكن أحداً من هذه الأطراف لم يلبي النداء إذ كان الصليبيون في الشام وقبرص في شغل شاغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم في حين لم يجسر ملكا حمص ودمشق - وهم حلفاء الصليبيين - على الوقوف إلى جانب الصليبيين لحماية مصالح الصليبيين في بيت المقدس ، الأمر الذى يعرضهما لنقمة العالم الإسلامى ، وانتهى الأمر بأقام الخوارزمية باقتحام مدينة بيت المقدس في ١١ يوليو ١٢٤٤م / ٦٤٣هـ واستطاعوا الاستيلاء عليها ، ولم يظهروا شيئاً من الرأفة بالمدينة فاعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من المشاهد والآثار المسيحية في بيت المقدس ، وفى أغسطس غادر حوالى ستة آلاف من الصليبيين مدينة بيت المقدس بعد أن توسط في خروجهم الناصر داود صاحب الكرك ، غير أن الخوارزمية بعد خروجهم أبدبروا لهم خدعة حربية وقتلوا منهم أكثر من ألفين منهم أكثر من ألفين ، فى حين تعرضت البقية للمطاردة طوال

طريقهم إلى يافا بحيث لم يصل منهم سوى ثلثمائة فقط وهكذا خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الصليبيين إلى المسلمين ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد سبعة قرون عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى .

حملة لويس التاسع إلى مصر :

كان لويس التاسع ملك فرنسا بما عرف عنه من تقوى وورع وتواضع يتطلع منذ زمن بعيد لزيارة الأراضى المقدسة لتطمئن روحه بالمكان الذى عاش فيه المسيح عليه السلام وكان مسرحاً نضاله ضد اليهود وشاءت الظروف أن تلعب دوراً فى تحقيق ما يصبوا إليه لويس التاسع ، ذلك أنه فى ديسمبر ١٢٤٤م ، وقع فريسة لحمى الملاريا فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إلى الشرق إذا شفى من مرضه ولم يكد يسترد صحته حتى شرع فى إعداد الحملة .

والواقع أن الموقف الصليبي ببلاد الشام كان يتطلب وقتذاك خروج حملة صليبية من الغرب الأوروبى فقد أصيب الصليبيون بضرب قاسمة على يد السلطان الصالح أيوب فى غزة ، فضلاً عن استرداد المسلمين بيت المقدسة للمرة الثانية سنة ١٢٤٤م على أيدي الخوارزمية الذين اعتدوا على بعض الأماكن المسيحية فيها ، وكان أن أبحر من عكا أوقف بيروت فى ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤ إلى الغرب الأوروبى ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام ويطلب منهم المعونة العاجلة حتى لا يتعرض الكيان الصليبي كله للفناء ولكن الأحوال فى أوروبا حالت آنذاك دون تكاتف بلدان أن الغرب الأوروبى بسبب الصراع بين البابوية والإمبراطورية ، ولم يستجيب للدعوة إلا لويس التاسع الذى عرف بالقديس لورعه وتقواه وهكذا اتخذت الحملة الصليبية السابعة طابعاً فرنساً بحتاً

والمشتركون فيها غالبيتهم من الفرنسيين مما جعلها بعيدة عن الطابع الدولي

وفى الوقت الذى أخذ فيه لوي السابع يواصل استعداداته أتى إلى الصالح أيوب رسول موفد من قبل فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى هيئة تاجر وأخبره سراً أن الملك الفرنسى عازم على السير إلى أرض مصر وأخذها ، وكان السلطان وقتئذ مريضاً فى دمشق فحمل إلى مصر فى محفة ونزل باشموم طنح على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من دمياط لمراقبة الموقف وأخذ فى الاستعداد بالأقوات والمؤن والأسلحة وأدوات

القتال .

ومهما يكن من أمر فقد أبحر ملك فرنسا على راس حملته التى درج المؤرخ على تسميتها بالحملة السابعة ووصل إلى ميناء ليماسول عاصمة قبرص فى ١٧ سبتمبر ١٢٤٨م مصطحباً معه الملكة وأخويه ثم لحق به عدد كبير من الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا فى الحملات الصليبية السابقة ومن بين هؤلاء حتجو انجيل مؤرخ حملته وفى قبرص أحس الصليبيون وكأنهم فى بلدهم بفضل رعاية هنرى الأول ملك قرص وحسن ضيافته واستقباله لهم ، وفضلاً عن ذلك ساعدت السلطات القبرصة لويس التاسع فى الحصول على كميات ضخمة من التموين لقواته وبذلك أتاحت الأشهر الطويلة التى قضاها لويس التاسع فى قبرص (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩) فرصة طيبة للصليبيين استجموا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من مؤن بالإضافة إلى المساعدات البشرية التى حصل عليها لويس التاسع من ملك قبرص وغيره من زعماء الصليبيين الذين وفدوا من عكا .

ولما جرت مناقشة خطة الحملة فى قبرص اتفق الجميع على أن تكون مصر هى الهدف الرئيس الذى يقصده الصليبيون لما توافر بها من ثروة فضلاً عن أهميتها الاستراتيجية ، وفى خلال المدة التى قضاها لويس

التاسع في قبرص استقبل الرسل والسفارات من الملوك والأمراء المجاورين . ومن بين السفارات التي وفت عليه سفارة من المغول تحمل إليه استعداد إيلخانان المغول للمساهمة مع الصليبيين في تخليص بيت المقدس من المسلمين ، والحق أن الغرض الأساسي من تلك السفارة هو عقد تحالف عسكري مشترك بين الصليبيين والمغول ضد اليوبيين في الشام من ناحية ، والخلافة العباسية من ناحية أخرى إذ كان المغول وقتذاك يفكرون في اجتياح العراق وبيغداد وهو الأمر الذي قام به هولاء بعد سنوات قليلة سنة ١٢٥٨م ، فأرادوا أن يحولوا دون أية مساعدة يقدمها الأيوبيون في مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين ، مما يجدر ذكره أن الملك الفرنسي امتلاً غبطة بهذا الاتصال الذي لم يكن يتوقعه فعامل السفارة معاملة طيبة تظهر بوضوح في حضورهما القداس معه وبادر بإرسال سفارة من ثلاثة من الرهبان الدوميكان لنشر الديانة المسيحية بين المغول .

وفي مايو ١٢٤٩م كان لويس التاسع قد جمع قواته وسفنه في ليماسول استعداداً للإبحار إلى مصر في الوقت الذي كانت الدولة الأيوبية في مصر والشام لا تزال تعاني الكثير من المتاعب بسبب المنازعات بين أمراء البيت الأيوبي ، وقد أراد فرسان منظمة الداوية استغلال تلك الظروف التي أحاطت بالبيت الأيوبي في مصر والشام وقتئذ للحصول على مكاسب في بيت المقدس ، ولكن لويس التاسع عارض ذلك معارضة شديدة خلال وجوده في قبرص وحذر الداوية من القيام بأى اتصال مع المسلمين بالشام وربما رأى لويس أن الطريق السليم للحصول على بيت المقدس هو البدء بغزو مصر ، وأنه لا فائدة من أن يقوم الصليبيون في الشام بالاستيلاء على بيت المقدس ثم اخرج الجيوش الأيوبية من مصر لهدم البناء الصليبي بالشام .

وأخيراً وصل لويس التاسع على رأس حملته أمام دمياط في ٤ يونيو ١٢٤٩م على أنه لم يشأ مهاجمة مصر قبل أن يرسل كتاباً إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضمه عبارات التهديد واستعرض القوة بهدف التأثير في الروح المعنوية للمسلمين وقد جاء في الكتاب قوله : " وقد عرفتكم وحذرتكم من عساكر حضرت في طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسيايف القضاء ... " ولكن السلطان لم يخشى تهديد لويس بل رد عليه بكتاب شديد اللهجة من إنشاء البهاء زهير يقول فيه : " ولو رأيت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظمة حروينا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخربينا ديار الأواخر منكم والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك .

ونظراً لأن السلطان الصالح أيوب كان مريضاً ولم يعد بوسعه أن يتولى قيادة الجيش وإدارة دفة الحرب فقد أمره وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صديق الإمبراطور فردريك الثاني أن يتولى قيادة الجيش والوقف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول إلى البر وفي نفس الوقت أمر بنى كنانة المشهورين بالشجاعة والفروسية بالبقاء في دمياط للدفاع عنها إلى جانب الحامية العسكرية الموجودة بها .

بدأت عملية إنزال الجيوش الصليبية في ٥ يونيو ١٢٤٩م وعلى الرغم من نشوب معركة حامية على شاطئ البحر لمنع الصليبيين من النزول إلا أن القوات التي تصدت لهم بقيادة الأمير فخر الدين أجبرت على الارتداد ولما أمسى الليل انسحب فخر الدين ورجاله إلى الضفة الشرقية للنيل حيث توجد مدينة دمياط بعد أن اجتاز لها جسرا من المراكب ولا ريب أن التراجع بهذه الصورة نشر الرعب والفرع في قلوب أهال دمياط ، وخرجوا

على وجوههم في الليل لا يلتفتون إلى شئ وتركوا المدينة خالية من الناس ولحقوا بالعسكر في أشمون وهم عرايا جياح حيارى عن معهم من النساء والأولاد ، كما أن بنى كنانة الذين اعتمد الصالح أيوب على فروسياتهم وشجاعتهم تركوا دمياط مثلما فعل الجيش والحامية وأهل دمياط ، وفاتهم عند الفرار أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل ، وفى الصباح اكتشف لويس أن دمياط خالية من سكانها فدخلها فى سهولة فى ٦ يونيو ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ ، ويروى المقرئى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب المدينة مفتحة ولا أحد يدافع عنها ظنوا أن ذلك مكية ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوها من غير مانع ولا مدافع ، واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة الأموال والأمتعة صفوا بغير كلفة ، والواقع أن استيلاء الصليبيين فى سهولة ويسر على دمياط أثار دهشة المؤرخين المسلمين المعاصرين الأمر الذى جعلهم يتهمون الأمير فخر الدين بالتفريط فى دمياط لأنه لو ثبت بها لامتنعت على الصليبيين كما حدث قبل ذلك بثلاثين سنة من حملة حنا دى برين ، هذا ويعتقد المقرئى بين الحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنا دى برين التى استولى على دمياط بعد جهد طويل شاق ، وبين الحملة الصليبية السابعة التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة ويسر فيقول : " وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل دخائر وعدد منها فى هذه النوبة ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة وعندما فنى أهلها بالبواء والجوع وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئاً " .

على أن الصليبيين لم يكن بإمكانهم مواصلة الزحف وقتئذ لأن وقت فيضان النيل صار على الأبواب ولا بد أنهم أخذوا العبرة من الأسباب التى أدت إلى فشل حملة حنا دى برين من قبل ، وعلاوة على ذلك فإن لويس

كان ينتظر قدوم إمدادات من فرنسا ، ومن الواضح أن ركود الجند في دمياط أدى إلى تداعى روحهم المعنوية وأخذت المؤن فى النفاذ وتفشى المرض بين الجنود وعلى أية حال فإن موقف الصليبيين أعطى الصالح نجم الدين أيوب فسحة من الوقت لتجهيز نفسه وإقامة خط دفاعه الجديد ، وكان الصالح أيوب قد وجه اللوم والنقد إلى أمير بحر الدين الذى لم يثبت أمام الفرنسيين عند نزولهم إلى البر قائلاً : " أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدي الفرنج " ، أما أمراء بنى كنانة فقد عاقبهم الصالح أيوب عقاباً قاسياً لفرارهم من دمياط وإهمالهم الدفاع عنها ، فأكمر بشنقهم وكانوا زيادة عن خمسين أمير ، وهنا نلاحظ أنه على الرغم من شدة مرض السلطان بحيث لم يقو على النهوض من الفراش فقد انتقل بالجيش إلى المنصورة لىبتولى تنظيم شئون الدفاع فأخذ فى تحصين المدينة وتجديد الأبنية ولم يلبث أن أتى الناس من كل صوب وحذب وشرعوا فى الإغارة على الصليبيين ومناوشتهم حتى أسروا الكثير منهم .

وأخيراً جاءت الإمدادات التى انتظرها لويس التاسع برفقة أخيه روبرت دى أرتوا فى أواخر أكتوبر ١٢٤٩ م ، فتأهب للزحف على القاهرة لظعن مص فى قلبها لاسيما بعد أن هبط النيل ولم يكد لويس يشرع فى المسير على رأس جيشه جنوباً حتى توفى الصالح نجم الدين أيوب فى المنصورة فى ٢٣ نوفمبر من نفس العام بعد أن يئس الأطباء من شفائه ، ولاشك أن وفاة السلطان جاءت فى وقت عصيب أشد ما تكون الحاجة إليه فعلى الرغم من روح التآمر التى سيطرت على تصرفاته وشدة بطشه وميله للعزلة وتعاضمه على أصحابه إلا أنه كان سلطاناً كفناً جدد شباب الدولة الأيوبية حتى قال عنه المؤرخ أبى المحاسن : " وفى الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب " .

لما مات الصالح أيوب أخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته خوفاً من الصليبيين من ناحية ، وخشية أن يؤثر ذلك في معنويات الجند من ناحية أخرى ولم يعلم بخبر وفاته إلا اثنان من المقربين إليها وهما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذي أسندت إليه قيادة الجيش ، والطواشي جمال الدين محسن الذي كان أقرب الناس إلى السلطان وليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته ، وكان الأوامر والتعليمات تخرج بخط خادم يقال له سهيل لا يشك من رآه أنه خط السلطان ولم تلبث

شجر الدر أن أرسلت إلى ولده الوحيد توران شاه وكان يقيم بعيداً في إقليم الجزيرة حيث ينوب في الحكم عن أبيه تستدعيه على عجل لتولى مهام الحكم ، وقد فعلت شجر الدر ذلك على الرغم من أن توران شاه لم يكن ولدها ، فضلاً عما عرف عنه من صفات لا تؤهله للحكم وليس من الصحيح أن شجر الدر قامت بهذا العمل على استعدادها التام للتضحية في سبيل مصر والحفاظ على وحدة الدولة الأيوبية أمام الصليبيين لاسيما أن المماليك الذين أكثر منهم الصالح أيوب على مقربة من الأحداث .

على الرغم من اتخاذ كافة الاحتياطات لإخفاء خبر وفاة السلطان الصالح أيوب إلا أن الأنباء لم تلبث أن تسربت إلى المعسكر الصليبي ، ذلك رأى لويس سرعة التحرك فسار بجيشه من دمياط في ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوباً حتى وصل إلى نقطة تفر بحر أشمون (البحر الصغير) من فرع دمياط ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصور ولم يلبث الصليبيون أن عبروا البحر الصغير بعد أن دلهم أهل بلدة سلمون وغالبيتهم من غير المسلمين على مخاضة في هذا البحر إلى المنصورة دون أن يعثر الجيش الإسلامي مقابل قدر من المال وما أن شن الصليبيون هجوماً على المعسكر الإسلامي الذي يقع على مسافة ميلين خارج المنصور حتى ساد الفوضى والاضطراب في

صفوف المسلمين وقتل في هذا الهجوم الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبي مما أنزل خسارة فادحة بالجيش الأيوبي في تلك الظروف إذ تفرق المسلمون يميناً وشمالاً وكانت أن تكون الهزيمة الكلية .

على أن روبرت دي أرتو اخي لويس التاسع ارتكب عندئذ حماقة كبرى إذ لم يشأ أن ينتظر عبور بقية الجيش الصليبي ومعهم لويس نفسه طبقاً للخطة الموضوعة وإنما بادر باقتحام المنصور دون أن يستمع إلى أوامر الملك بعدم الإقدام على تلك الخطوة ، وفي تلك الأثناء استطاع المماليك البحرية أن يعيدوا النظام إلى الجند بعد موت الأمير فخر الدين وتولى القيادة بيبرس البندقدارى الصالحى ، فأقام الجند فى مراكز منيعة داخل المدينة ثم ترك الصليبيين يتدفقون على المدينة وإذ شق الصليبيون طريقهم إلى المدينة وبلغوا أسوار قلعتها حتى خرج عليهم المماليك من الشوارع الجانبية ولما يتيسر لخيول الصليبيين أن تستدير فى الحيز الضيق ، وقعت على الفور فى فوضى واضطراب ، وأمعن المماليك فى قتالهم وأخذ الأهالى يرمونهم من نوافذ المنازل وأسطحها بالحجارة وكل ما تصل إليه أيديهم من الأمتعة المنزلية ، فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان بلغوا ضفاف النيل راجلين ولم يلبثوا أن غرقوا فى مياهه ، أما الداوية فلقوا مصرعهم وهم يقاتلون فى الشوارع ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا خمسة من مجموعهم الذى يبلغ مائتى وتسعين فارساً وهكذا انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمة نكراء وفرار فلولهم .

كان لويس التاسع خارج المدينة عندما سمع بخبر الكارثة التى حلت بجنده فلم ينعأ ، واستطاع أن يعيد النظام إلى صفوف جيشه بعد أن تناقص عدده وانتشر المرض بين أفرادة ونفذت المؤن والأقنوت ثم انفذ الملك لويس المهندسين لبناء جسر على البحر الصغير كى تعبره قواته فى حالة قيام المماليك بهجوم ضده ، وقد حدث ما توقعه الملك إذ لم يلبث

المماليك أن أتوا مسرعين من مدينة المنصورة شنوا هجوماً عاماً على المعسكر الصليبي واشترك معهم مشاة المسلمين فضلاً عن جميع العريان ، وفى تلك المرة قاد الملك المعركة بنفسه وأظهر شجاعة كبيرة ولبث فى العركة حتى اضطر المماليك إلى التراجع نحو المنصورة .

وعلى الرغم من شجاعة لويس وثباته إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بعد أن قلت المؤن وانتشرت الأمراض والأوبئة فى معسكرهم وفقدوا الكثير من فرسانهم فى معركة المنصورة وكان ذلك فى الوقت الذى وصل معظم توران شاه إلى المعسكر الإسلامى فى المنصورة فى ٢٨ فبراير ١٢٥٠م بعد أن نودى به سلطاناً فى دمشق ، ويبدو أن وصوله أثار حركة من النشاط والحماس فى صفوف القوات إذ أمر ببناء عدة سفن حملت أجزاءها على ظهور الجمال ثم أنزلت فى الماء شمالى موضع الصليبيين ولم تلبث هذه السفن أن قامت باعتراض طريق السفن الآتية بالمؤن والإمدادات من دمياط إلى معسكر الصليبيين مما أدى إلى ازدياد وضعهم سوء وحرماً وكان مكل ما يخشاه لويس التاسع عندئذ أن يتعرض لكارثة حربية .

ووسط تلك الظروف التى أحاطت بملك فرنسا استقر رأيه فى مستهل أبريل ١٢٥٠م على أن يرتد بقواته إلى داخل دمياط ويبدو أنه أدرك أن الارتداد لا يتم فى سهولة فالسفن الإسلامية تعمل على عرقلة خطوط المواصلات بسيطرتها على فروع النيل فضلاً عن خطر المجاعة التى تعرض لها الجيش الصليبي من جراء فرض الحصار عليه لذلك اضطر إلى الاتصال بتوران شاه طالباً عقد هدنة على أساس التخلي عن دمياط مقابل إعادة بيت المقدس للصليبيين ، ومن الواضح أن لويس أراد بهذا العرض أن يسترد بيت المقدس فى الوقت الذى يشعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط ثم ليضمن لنفسه ولجيشه انسحاباً آمناً سليماً من مصر دون أن يتعرض لمطاردة المسلمين وأذاهم ولذلك لم يلق عرض الملك لويس سوى الرفض القاطع

وأذاهم ، ومن الطبيعي أن المسلمين كانوا على حق فر رفضهم فوضع المسلمين بعد معركة المنصورة يختلف تماماً عن وضعهم قبلها .

ولما فشل لويس التاسع في الحصول على حل سلمى يرضى كرامته بدأ الارتداد إلى دمياط في ٥ أبريل ١٢٥٠م واتخذ الجنود طريقهم براً بحذاء الضفة الشرقية في حين حمل المضر والجرجى منهم بطريق النهر . والواقع أن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف في الحرب وإنما كانت عملية " هروب إلى دمياط " كما أسماها المؤرخ ابن واصل ولم يتركهم المماليك يتراجعون في سهولة وإنما لجأوا إلى مطارتهم وحدث أن نسى المهندسون الصليبيون تدمير الجسر الذي أقاموه على البحر الصغير فعبر عليه المطاردون المسلمون واستطاعوا إنزال خسائر فادحة بهم ولم يلبث الجيش الصليبي أن التجأ إلى قرية ميت الخوالى شمال شرمساح (مركز فارسكور) فأحاط المسلمون بهم وضيقوا عليهم الخناق بهجماتهم في الوقت الذي خر لويس التاسع مريضاً حتى أنه لم يستطع الاحتفاظ بتوازنه على حصانه إلا بصعوبة بالغة ، وبات من الواضح أن الجيش الصليبي المرهق لم يعد لديه القدرة على مقاومة الجيش الإسلامي وأحس لويس التاسع أن النهاية قد اقتربت ولم يكن بوسعه إلا أن يسلم مرغماً بالهزيمة ، وانتهى الأمر بأن ألقى الجيش الصليبي بسلاحه وجرى تطويقه في فارسكور ووقوعه في الأسر وكان من جملة الأسرى الملك نفسه الذي سبق إلى المنصورة حيث سجن في دار القاضي إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء وعهد إلى الطواشى صبيح بحفظه والعناية به وبراحته ، ويروى أن توراشاه أكرم لويس التاسع في أسره فخصص له من يقوم بخدمته كما رتب له كل ما يحتاج إليه من مأكلاً ومشرباً .

وبقى لويس في الأسر إلى أن تقرر أن يفتدى نفسه بتسليم دمياط ودفع مبلغ مقداره خمسمائة ألف دينا ولما تم الاتفاق استرد

المسلمون دمياط في ٣٠ أبريل ١٢٥٠م على أن هذا النصر كلف توران شاه حياته ذلك أنه حاول الاستئثار بالنفوذ والسلطان وأعرض عن ممالك أبيه الذين كان لهم الفضل في إحراز النصر على الصليبيين ، كما كان لهم الفضل في حفظ الملك له خلال تغيبه في حصن كيفا قبل مجيئه إلى مصر ، ونسى توران شاه ما فعلته زوجة أبيه شجر الدر من أجله ، وأخذ يهددها بويطالبها بمال أبيه ، فخافت شجر ، الأمر الذي دفعها إلى تحريض ممالك أبيه عليه ، ووصل به الأمر أن جعل الوظائف الكبرى في الدولة للأمرأء الذين صحبوه من إقليم الجزيرة . أما عن شخصية توران شاه فقد اتسمت بالحماسة والضعف والميل إلى اللهو والعبث ، بدليل أنه كان إذ سكر جمع الشموع وضرب رؤوسها بالسف حتى تنقطع ويقول : هكذا أفعال بالبحرية - أى ممالك أبيه - ويسمى كل واحد منهم باسمه ، ولهذا اتفق الجميع على التخلص منه .

وحانت للممالك البحرية فرصة التخلي من توران شاه حينما أقام في ٢ مايو ١٢٥٠م سماطاً بفارسكور احتفالاً بانتصاره على الصليبيين فلم يكد يمد السماط حتى أقبل عليه بييرس البندقارى وضربه بالسيف فأطاح أصابع يده فأسرع توران شاه إلى الالتجاء إلى أحد الأبراج الخشبية غير أن المماليك أشعلوا النيران في البرج حتى اضطره إلى الخروج فرمى نفسه في النيل طالباً للنجاة وأخذ المماليك في مطارته بالنشاب وسبحوا خلفه وأدركوه فقطع بالسيوف ومات حريقاً غريقاً قتيلاً وصاح في المماليك " ما أريد ملكاً ، دعونى أرجع إلى الحصن (كيفا) يا مسلمين .. ما فيكم من يطنعنى ويجيرنى " ولكن أحداً لم يتقدم لنجدته وتركت جثته ملقاه في العراء على شاطئ النهر ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخلفية وبمقتل توران شاه انتهت الدولة الأيوبية في مصر بعد أن حمت البلاد إحدى وثمانية سنة .

وهنا نلاحظ أن لويس التاسع قد غادر دمياط في ٨ مايو ١٢٥٠م بعد إطلاق سراحه ليصل عكا في ١٣ مايو حيث استقبل استقبال البطل المنقذ وظل يراقب تطور أحداث الصراع بين الأيوبيين والمماليك حتى انتهى الموقف بانتصار المماليك وقيام دولتهم في حكم مصر ، بادر إلى مغادرة الشام عائداً إلى وطنه في ٢٤ أبريل ١٢٥٤م بعد أن تحالف مع الإسماعيلية (الباطنية) من ناحية والمغول من ناحية أخرى حتى يتحقق بفضل هذا التحالف نوع من التوازن بين المسلمين والصليبيين .^(٤)

هوامش الفصل الخامس

الحملة الصليبية من الرابعة إلى السابعة

- (٦) عن الحملة الصليبية الرابعة انظر :
اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، (جدة : ١٩٧٨)
ميشيل بالار : الحملات الصليبية والرشق اللاتيني ، ترجمة : بشير السباعي ، ص ١٩٧ - ٢٠٠ .
ارنست باركر ك الحروب الصليبية ، ص ٩٤ - ١٠٤ .
(٧) عن الحملة الصليبية الخامسة انظر :
محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، (الإسكندرية ، ١٩٧٨)
ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١٠٥ - ١١٠ .

ميشيل بالار : الحملات الصليبية والرشق اللاتيني ، ص ٢٢٠

٢٢٥ -

(٨) عن الحملة الصليبية السادسة انظر :

محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ -

١٢٩١ م ، ص ٢٧٧ - ٣٠٣ .

ميشيل بالار : الحملات الصليبية ، ص ٢٢٦ - ٢٣١ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١١١ - ١١٩

(٩) محمود الحويرى : الحروب الصليبية فى الشام ومصر بعد

توحيد الجبهة الإسلامية على أيدي صلاح الدين الأيوبي ، ص

٥٠ - ٥٦ .

انظر : جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف

النيل ، (القاهرة : ١٩٦٠)

محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٠٥ -

٣١٨ .

ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ - ١٣٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص

٨٣١ - ٨٥٥ .

تدريبات على الفصل الخامس



السؤال الأول : قم بقراءة العبارات الآتية وبدائل إجابات كل

منها جيداً ثم ظلل الإجابة الصحيحة فقط في ورقة إجابتك .

١- نجحت الحملة الصليبية الرابعة في الاستيلاء علي القسطنطينية عام....
(أ. ١٢٠٠ - ب. ١٢٠٢ - ج. ١٢٠٤ - د. ١٢٠٥)

٢- اشترك ليوبولد دوق النمسا في الحملة الصليبية.....
(أ. الرابعة- ب. الخامسة - ج- السادسة د- السابعة)

السؤال الثالث: قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر

علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة

وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة

٣- غادر لويس السابع مصر عام ١٢٥٠م.

٤- استرد الصليبيون بيت المقدس مرة أخرى عام ١٢٢٩م.

الفصل السادس
الجوانب الحضارية
بين المسلمين والصليبيين



أهداف الفصل السادس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :
١- التأثيرات الحضارية للمسلمين علي المجتمع الصليبي في مخلف المجالات
والتأثيرات الصليبية في بلاد الشام

الجوانب الحضارية بين المسلمين والصليبيين

يتصور كثيرون الحركة الصليبية فى سلسلة حروب دموية متصلة الحلقات وقف فيها المسلمون الصليبيون وجهاً لوجه دون أن يعرفوا جميعاً لغة للتفاهم عدا لغة السيوف والحرب ، والواقع أن هذه الصورة القامة للحركة الصليبية لا تعبر إلا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة ، وهى لذلك أبعد ما تكون عن الحقيقة والتاريخ فالحقيقة الثابتة التى لا يصح أن نغفل عنها عند دراسة الحركة الصليبية هى أن هذه الحركة - مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها - كانت قبل كل شئ مجالاً واسعاً ألتقى فيه الشرق العربى الإسلامى بالغرب الأوروبى المسيحى ، وأن هذا اللقاء لم يكن لقاء حربياً فى ساحة الوغى فحسب بل كان أيضاً لقاء حضارياً على أوسع نطاق .

ويعجب من يتعمق قليلاً فى مصادر الحروب الصليبية - العربية وغير العربية - عندما يلمس مدى قوة الروابط الاجتماعية التى كانت تنشأ بين المسلمين والصليبيين بالشام بين حين وآخر ، وكيف أن هذه الروابط بلغت أحياناً حد الصداقة والألفة ، من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه كان للملك فولك - ملك مملكة بيت المقدس الصليبية - فارس محتشم من الفرنجة وصل إلى الشام للحج ثم للعودة إلى بلاده ، ولكن ذلك الفارس ساقته الصدفة إلى الاتصال بأسامة فأنس به وصار ملازمى يدعونى " أخى " وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى : يا أخى أنا سائر إلى بلادى وأريدك أن تنفذ معى ابنك - وكان أبنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة - إلى بلادى يبصر الفرسان ويتعلم الفروسية . ولكن أسامة اعتذر لصديقه الصليبي عن تلبية طلبه وودعه وداع الأحاب .

بل لقد كان يحدث في أوقات القتال حرصاً أن يسأم المسلمون والصليبيون جميعاً طول القتال ويتبادلون الفكاهة والظرف إلى أن تنتهي فترة الاستجمام وعندئذ يعودون إلى القتال من جديد ، من ذلك ما رواه المؤرخ أبو شامة من أنه عندما طال القتال بين المسلمين والصليبيين أمام عكا سنة ١١٩٠ (أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين " المسلمين والصليبيين " كانتا تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وسئموا يوماً فقالوا لى : كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع صبيان : صبى منا وصبى منكم فأخرج صبيان من البلد " المسلمين " إلى صبيين من الفرنج ، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذ أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه .

وهكذا لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية مستمرة - كما يبدو من اسمها - وإنما تخلخلتها علاقات إنسانية عديدة .^(١)

وعلى عصر الحروب الصليبية كان الطب واحد من العلوم التي تبغ فيها المسلمون ، يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين ، وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب في ذلك الوقت شأنهم في ذلك شأن الأوروبيين في الغرب الأوروبي وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين في العصور الوسطى حتى اعتبروا المرض نوعاً من الجزاء أو العقاب الإلهي لا يصح للإنسان أن عالج أو يبرأ منه ، فإذا حدث أن انتابت أحدهم حمى هرع إلى أقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظراً حدوث معجزة تشفيه ، والثابت أن السادة اللاتين في القرن الثاني عشر فضلوا الأطباء المسلمين أو اليهود على أطباء الغرب الأوروبي ، وما أورده أسامة ابن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنجة للطل

تدل على جهلهم بأبسط المبادئ الطبية ، فقد قال : ومن عجيب طبهم (الفرنج) أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل لاه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أُرِع ما داويت المرضى فقال احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجه ، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم احضروا لى فارسا قوياً وفأساً قاطعاً فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها فضربه وأنا أراه ضربه واحدة ما انقطعت ، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها ، فقلت لهم بقى لكم حاجة ؟ قالوا : لا ، فجننت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه . وفى ذلك المجال يروى أسامة أيضاً قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلاً : ومن عجب طبهم ما حدثنا به كليام دبون **William of Bures** صاحب طبرية وكان مقدماً فيهم واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية وأنا معه فحدثنا فى الطريق قال : وكان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجننا إلى قسر كبير من قسوسنا قلنا : تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم ، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى ، فلما رآه قال : أعطونى شمعاً ، فأحضرنا له قليل شمع فإينه وعمله مثل عقد الأصبع وعمل كل واحدة فى جانب أنفه فمات الفارس فقلنا

له : قد مات الفارس ، قال : نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح .

ولم يحاول الأطباء الصليبيون محاولة أطباء جنوب إيطاليا في الاستفادة والتعلم شيئاً من الطب المحلى وطريقة التداوى المنظم التي استردت بعض جذورها من الشرق الإسلامى ، على الرغم من أن ستيفن الأنطاكى قام سنة ١٢٢٧م بترجمة كتاب " كامل الصناعة الطبية من العربية إلى اللاتينية الذى ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤م) ، وكان الإفرنج يضيفون إلى اسمه " القديس " ولم يعرف كتاباً غير هذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية على أيام الحروب الصليبية ، وبطبيعة الحال لم يكن الفرنجة باحثاً أو رجال فكر مما أدى إلى أن تصير كمية الترجمة من العربية إلى اللاتينية فى فلسطين وسوريا بالغة الضالة بشكل يبعث على الدهشة . هذا بالإضافة إلى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية إلى اللاتينية أصبح شبه جزيرة أيبيريا حيث ازدهرت حضارة العرب وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون ، ومن ثم اتجه كثير من أعلام النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر إلى أسبانيا يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية . (٢)

على أن الخلق العربى الكريم لم يظهر فى تصرفات حكام المسلمين - مثل صلاح الدين - فحسب بل ظهر أيضاً فى تصرفات عامة الناس حتى اعترف كتاب الصليبيين أنفسهم بأن أجمل ما فى العرب أخلاقهم الأصلية التى يتحلى بها العرب وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية تشهد على مدى تقدير العرب للمعروف واعترافهم بالجميل وحرصهم على رد الحسنة بأحسن منها ، ذلك أنه إذا كان الصليبيون قد تظاهروا بأن حركتهم التوسعية الكبرى فى أواخر القرن الحادى عشر إنما استهدفت استرداد بيت المقدس من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى الأراضى المقدسة فإن

سياستهم التي اتبعوها عادة استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ سرعان ما كشفت النقاب عن أطماعهم الاستعمارية التوسعية في الوطن العربي ، فلم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية حتى شرع سنة ١١٠١ في الإغارة على البلاد المجاورة . ويروى المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الملك بلدوين الأول هاجم في ربيع سنة ١١٠١ قبيلة عربية كانت تعبر الأردن فقتل معظم رجالها وأسر النساء والأطفال واستولى على قدر ضخم من الغنائم وكانت من جملة الأسرى زوجة أحد شيخ القبيلة وهي حامل على وشك الوضع فلما علم الملك بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادماتها وجمالان وقدر من الزاد ولم تلبث المرأة أو وضعت مولودها في الطريق وعادت إلى زوجها لتروى له ما حدث لها .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتاحت الفرصة لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبي ذلك أن توسع بلدوين الأول في جنوب فلسطين واستيلائه على أرسوف وقيسارية حرك الدولة الفاطمية من سباتها العميق فلجأ الوزير الأفضل الفاطمي إلى إرسال حملتين إلى الشام سنة ١١٠١ و١١٠٢ لرد عادية الصليبيين ، وإذا كان الملك بلدوين قد تمكن من إحراز انتصار سريع على الحملة الفاطمية الأولى فإن الفاطميين استطاعوا أن يوقعوا بالملك الصليبي في الحملة الأخيرة فانتهزوا فرصة ابتعاده عن بقية قواته وباغتوه فيما بين يازور والرملة وكان أن قتل معظم من كان مع الملك بلدوين من الصليبيين واضطر الملك نفسه إلى الفرار إلى الرملة والاحتماء بها في ١٧ مايو سنة ١١٠٢ .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ففضى الملك بلدوين ليلته فيها وهو يحسب حساباً لوصول القوات الإسلامية بين لحظة وأخرى ، وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره المحتوم إذا بشيخ العرب الذي كان بلدوين قد أكرم زوجته الشابة في

العام السابق يظهر فجأة أمام الملك الصليبي ليرد له الجميل ذلك أن الشيخ العربي لم يكذب بما حدث للملك الصليبي حتى تذكر معرفته وأدرك أن الملك بدخوله الرملة قد وقع في المصيدة ، فصمم على مساعدته اعترافاً بفضلته وكان أن فتح الملك بلدوين عينيه في ظلام الليل ليجد أمامه الشيخ العربي يقول له " إن مثلك لا ينبغي أن يضام سأساعدك على الفرار لكي تحصل على فرصة أخرى تدافع بها عن نفسك بشرط أن تقاتل المسلمين كما يقاتل الشرفاء لا أن تعتدى على المسلمين كما يفعل اللصوص ! " . وما هي إلا لحظة حتى ساعد الشيخ العربي الملك الصليبي في خلع ملابسه وألبسه ملابس عربية تنكر فيها بلدوين وبذلك أمكنه الخروج إلى يافا والنجاة من الأسر ! (٣)

وبسبب الحروب الصليبية بلغ المسلمون شأواً بعيداً في التسامح فالصليبيون - كقاعدة - عليهم الجهل فاعتقدوا في الخزعبلات وصوروا المسلمين في نظرهم كوثنيين ولهم العذر في ذلك فقد لقتوهم في الغرب الأوروبي أن المسلمين يعبدون محمداً (صلى الله عليه وسلم) ولكن مائتي عام من الاتصال اليومي مع المسلمين والاحتكاك بحضارتهم أوجدت تغييراً ملحوظاً في أفكار الأوروبيين إذ وجدوا المسلمين أصحاب ديانة سماوية في منأى عن الوثنية وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ليس بمعبود بل في حقيقة الأمر من البشر وأم كثيراً من تعاليم الإسلام مشابهة لتعاليم المسيحية واتضح لهم أن المسلمين يؤمنون بعبسى (عليه السلام) كنبى ولمسوا في الإسلام عقيدة بسيطة وسهلة بعيدة كل البعد عن التعصب مفعمة بالتسامح لاسيما مع المسيحيين ، ومن أبرز الفئات التي كانت مستعدة لقبول الصورة المنقحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم زعماء اللاهوت الذين كانوا يرغبون في إمداد أبناء عقيدتهم بأوضى سلاح ينازلون به العدو الذى كان تأثيره في الفلسفة في العصور

الوسطى Scholastic قد أخذ ينتشر انتشاراً ذريعاً ، ففي عام ١٢٧٣ م كتب وليم الطرابلسي رسالة عن حالى العرب ومحمد النبي صلى الله عليه وسلم وشريعتهم وعقيدتهم والصورة التى صور بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإن كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية فإن بها من العناصر الخرافية والمطاعن ، قد أنزل إلى الحد الأدنى الذى لا غنى عنه لمدافع عن المسيحية فى العصور الوسطى فيقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل (عليه السلام) نقل الإرادة الإلهية *Voluntatem Divinam* إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتاباً .

ويبدو أن محاورات دينية بين المسلمين والصليبيين كانت تحدث أحياناً فقد تحدث ابن شداد فى حوادث عام ١١٨٩ م / ٥٨٥ هـ عن رينالد سيد صيدا والشقيف أرنون أنه كان من دهاة الصليبيين تردد كثيراً فى خدمة السلطان صلاح الدين وقال عنه : " وكان يناظرنا فى دينه وناظره فى بطلانه ، وكان حسن المحاوره متأديباً فى كلامه " ، ونكرر القول أن الصليبيين الأوائل عندما أتوا إلى الشام وضعوا فى أذهانهم أنهم أرفع قدراً من المسلمين الذين ألصقوا بهم تهمة الوثنية وعبروا عنهم بكلمة " الكفار " التى فاضت بها المصادر المعاصرة وكثيراً ما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أنهم عندما فرضوا الحصار على حلب عام ١١٢٤م / ٥١٨ هـ عموا إلى قبور المسلمين فنبشوها وأخرجوا بعض الجثث التى لم تنقطع أوصالها وسلبوا الأكفان وربطوا فى أرجلهم الحبار وسحبوها مقابل المسلمين وجعل البعض منهم يقول " هذا نبيكم محمد " ، وآخر يقول " هذا عليكم " كما أخذ البعض مصحفاً ونادى على أحد المسلمين قائلاً " يا مسلم أبصر كتابكم " ، فنقبه وشده بخيطين وعملاه ثفراً (السير الذى فى مؤخرة السرج) لبرذونه ، وظل البرذون يروث عليه ، والفرنجى يضحك عجباً وزهوا

. ولكن الصليبيين لم يلبثوا أن أدركوا أن المسلمين أهل كتاب وحضارة تفوق حضارتهم ولن ثم تبدلت مفاهيمهم نحو المسلمين وزال التعصب الديني البغيض وحل محله الاختلاط زمن السلم ، والواقع أن اتصال الفرنجة مع شعوب الشرق أصحاب الديانات العريقة المختلفة فتح أعين الغربيين على حقيقة أنه من الممكن أن توجد شعوب ذكية و مثقفة وحضارة متفوقة على حضارة أوروبا الإقطاعية وبذلك تكون الحركة الصليبية قد خلقت حالة فكرية جيدة ووجد عشرات الألوف من الصليبيين في المسلمين الهدوء والجاذبية بعد أن كانوا في حالات عديدة الكفار المحتقرين المكروهين الشريرين أبناء الشيطان . ولم يترك الإسلام في نفوس البعض انطباعاً قوياً فقط بل هداية أيضاً ، إذا ظهرت شكوى من " مرتدين " مسيحيين تخلوا عن المسيحية وآثروا اعتناق الإسلام حتى أن أحد رجال الدين وهو مبشر ديني من الفرنسيين أرسل إلى أفريقية عاد مسلماً .^(٤)

وفي تصوري : أن الحضارة الإسلامية كان في مقدورها العطاء حتى ذلك العصر على الأقل دليل التأثير الذي أحدثته في الصليبيين وكذلك الغرب الأوروبي بالتالي وبالإضافة إلى كافة العناصر السابقة يجدر بنا ذكر التأثير الإسلامي في مجال الفن الحربي والفروسية ، ويلاحظ أن الصليبيين استفادوا من المسلمين في عدة جوانب مثل استعمال القوس القاذف ، وكذلك الدروع التي يلبسها الفرسان والخيول ثم هناك الوسائد القطنية التي وتضع تحت الدروع وأيضاً استخدام الحمام الزاجل من أجل حمل المعلومات الحربية ثم أيضاً انتشار علامات النسب التي وضعت على الأسلحة ويضاف إلى ذلك كله أمر اتخاذ الصليبيين أمر تنعيل الجياد بالحديد من المسلمين وغيرها من العناصر التي عكست حجم تأثير المسلمين فيهم .

ولا نغفل إلى جانب ذلك أن الغرب الأوروبي أخذ عن الشرق خلال عصر الحروب الصليبية جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها

على هيئة زاوية قائمة Bententrance مثلما نجد في أبواب القاهرة وكذلك في القلاع الإسلامية في بلاد الشام التي شيدت هناك في القرن الحادي عشر الميلاد / الخامس الهجرى ، ثم أن الصليبيين نقلوا إلى الغرب الأوروبي إنشاء السقاطات Machicolation وهي عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أسفلها ويتم استخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقدوفات الحجرية على المهاجمين إذا أمكنهم تجنب السهام وتهديد السور عن طريق الاقتراب منه ولذلك فإنها بنيت عادة فوق الأبواب وأحياناً في أماكن أخرى من السور على نحو يعوق المهاجم عن تسلق السور أو إحداث ثلثة به وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات تعبير مشربيات لبروها غير أن الأولى كانت لها وظيفة حربية بينما الثانية وظيفتها مدنية . (٥)

ومن الظواهر التي استرعت نظر العرب المعاصرين أن أولئك الصليبيين الوافدين من غرب أوروبا ليست لديهم غيرة جنسية وأن الرجال منهم لا يغار على امرأته ولا يحرص على ألا ينفرد بها سواه ، وكان من الطبيعي أن يدهش العرب لهذه الظاهرة وهم المعروفون بغيرتهم ونخوتهم وحرصهم دائماً على مبادئ الشرف وقواعد الأخلاق فأسامة بن منقذ يعيب على الصليبيين عموماً أن ليس عندهم شئ من النخوة والغيرة ، ويدلل على ذلك بأن الرجل منهم يكون ماشياً هو وامرأته عندما يلقيه رجل آخر فيأخذ المرأة " ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فرغها من الحديث فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ! " .

ويروى أسامة قصة طريفة يستدل بها على عدم غيرة الفرنج فيقول : إن أحدهم دخل بيته فوجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له " أى شئ أدخلك عند امرأتى ؟ " قال : " كنت تعبان ودخلت أستريح ! " ، قال " " والمرأة نائمة معك ؟ " ، قال : " الفراش لها ، فهل كنت أقد أمنعها من

فراشها ؟ " فرد الزوج قائلاً " وحق دينة إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت !! " ، ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلاً : " فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ! " .^(٦)

ومن الملاحظات الخاصة بالنساء فى سجلات الحروب الصليبية تتعلق بالإغراءات الجنسية التى قدمنها للرجال وخضوع الرجال لهن بصفة متكررة وأصبحت نزعة الصليبيين للممارسة الجنسية لازمة غالباً ما تتكرر فى الكتابات السردية وجعل المؤرخون من الممارسات الجنسية لرجال الجيش سبباً فى جميع النكسات التى منى بها الجيش الصليبي ، فعندما هزم المجريون صليبي " جوتشاك " Gohschalk الشعبين ذكر " ألبرت " Albert of Aachen أن السبب فى ذلك كان انغماس الصليبيين فى الزنا ، كما أعلن فولتشر Fultcher of Chartres أن كمين " قلع أرسلان " Qilij Araslan للجيش الصليبي فى دوريلايون Dorylaeum نتج عن فسوق الصليبيين ولم يكن سجلهم عند أنطاكية Antioch بأفضل حالاً حيث انطلقوا بشهوة عارمة لا تعرف أى معنى للاعتدال واندفعوا حال وصولهم إلى الجنس أكثر وأكثر وإلى الزنا ، وأشكال من الفحش لا اسم لها ، وعندما ضرب الحصار حول المدينة وبدأت الإمدادات فى التناقص عدل الصليبيون من أسلوب حياتهم فكوفئوا بالاستيلاء على المدينة وبمجرد استتباب الأمر بدأوا من جديد علاقاتهم مع نساءهم الفاجرات فكانت النتيجة الحتمية ، كما يذكر المؤرخون عن اقتناع كاف وصول جيش " كربوغا Kerbigha ليحاصر الصليبيين داخل أنطاكية ، ومرة أخرى قوم الصليبيون سلوكهم وعندما فعلوا ذلك نصرهم الرب على كربوغا ، هذا الأسلوب ظل قائماً حتى بعد انتهاء الحرب الصليبية الأولى واستمر الإسراف الجنسي وفسوق المستعمرين اللاتين يتخذ كمبرر للانتكاسات العسكرية التى واجهوها .^(٧)

وفى معركة الحرية والدفاع عن الوطن التي دارت على أرض العرب ضد الغزو الصليبي قامت المرأة العربية بدورها كاملاً وهو دور البطولة والشجاعة والفداء الذي سجله لها التاريخ في جميع العصور .

من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه عندما هاجم الباطنية - الذين كانوا أحياناً أشد خطراً على المسلمين من الصليبيين أنفسهم - حصن شيزر ارتدت أم ليث الدولة يحيى زردية وخوذة ، وتسلحت بسيف وترس وشاركت فى القتال وأخذت تستحث الشبان على الصبر فى القتال ، بل إن والدة أسامة بن منقذ زودت ابنتها الكبرى بالسلاح وأمرتها بالخروج للقتال وبذلك أظهرت نخوة " أشد من نخوات الرجال " على حد تعبير أسامة نفسه .

ولم يقتصر أمر القتال على الشابات المسلمات فحسب بل يروى أسامة أن عجوزاً من جواري جده يقال لها فنون أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وأبليت فيه كذلك يروى أسامة بن منقذ كيف أن امرأة عربية من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين واحداً بعد آخر وكلمت أسرت واحد حبسته فى بيتها حتى اكتملوا ثلاثة وعندئذ استعدت جيرانها ليتسلموهم . (٨)

وأبرز مثل للتسامح الدينى بين المسلمين والصليبيين نراه فى تصرفات الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٨-١٢٥٠م) فلم يشأ الدخول فى حرب ضد المسلمين ببلاد الشام ، ولا نستبعد حدوث ذلك من الإمبراطور الذى حرص على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكة صقلية ولا عجب فى ذلك فقد كان " محباً للحكمة والمنطق والطب مائلاً إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية وغالب أهلها مسلمون ، وقد أجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية وبذلك أصبح بلاطه مركزاً لحركة علمية واسعة واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين ، فضلاً عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعايته بترجمة كتب الفلسفة العربية ، وتصرفاته فى بلاد الشام كانت خير دليل على شعوره

تجاه الإسلام والمسلمين فقد حرص خلال وجود في بيت المقدس على زيارة المشاهد الإسلامية وعند دخوله ساح الحرم الشريف في مارس عام ١٢٢٩ م شاهد رجلاً من رجل الدين المسيحي بيده الإنجيل يهيم بدخول المسجد الأقصى للتسول من الحجاج فغضب الإمبراطور وبادر إلى طرده في قسوة وأصدر أوامره ألا يجتاز أي قسيس مسيحي عتبة الحرم الشريف دون إذن من المسلمين سوف يكون جزاؤه الموت . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة رأى العبارة التي نقشها صلاح الدين في الفسيفساء حول القبة وهي : " وقد ظهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين " ، فسأل مبتسماً " ومن هم المشركون " كذلك عندما لاحظ الإمبراطور وجود أسياخ على النوافذ أخبره بأنها لم تثبت إلا لترد العصافير ، فقال : " قد أتى الله إليكم بالخنازير " مستخدماً بذلك اللفظ الدارج الذي يطلقه المسلمون على المسيحيين ، وكان بحاشيته جماعة من المسلمين منهم معلمه الذي كان يقرأ له المنطق والفلسفة وهو عربي من صقلية لأنه لمت دخل وقت الظهر وأذن المؤذن سارع جميع من معه من المسلمين بأداء الصلاة ، ولما أطل الإمبراطور البقاء في القدس وحل موعد صلاة الفجر لم يسمع صوت المؤذن ولما استفسر عن السبب قيل له أن السلطان الكامل الأيوبي أصدر أوامره إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس - مرافق الإمبراطور خلال الزيارة - بعدم إقامة الآذان طيلة وجود الإمبراطور بالمدينة ، " إعظاماً للملك واحتراماً له " فرد عليه الإمبراطور مستاءً أخطأت فيما فعلت ، والله أنه كان أكبر فرضى في في المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل ومن الممكن إضافة سبب آخر دفع فردريك الثاني إلى التقرب من المسلمين والإسلام هو كرهه للبابوية والكنيسة الغربية تلك الكنيسة التي ناصبت آباءه وأسلافه العداء والتي كرست جهودها لسحق الإمبراطورية في الغرب ، وقد ظهر هذا الشعور واضحاً خلال وجوده في الشام عندما ناقش مسألة الخلافة

مع القاضي شمس الدين وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين فأوضح له شمس الدين أن الخلافة العباسية تنحدر أصلاً من العباس عمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها لازالت فى عقبه وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا النظام رائع ويفوق - إلى حد بعيد - نظم أولئك الحمقى المسيحيين فالمسيحيون يختارون البابا زعيمهم الروحي الذى لا تربطه أدنى صلة بالمسيح وهنا تحدث الإمبراطور عن النزاع بينه وبين البابا وأحقيته فى السيادة على الباب إذ أنه كان متحرراً من روح الحماس الدينى المتطرف السائد فى عصره من جهة ومتيناً عادت المسلمين من جهة أخرى ولهذا عنفه الباب ولامه . (٩)

وثمة مشروع زواج كان سيعمل على تنويع علاقات التآلف والمودة بين المسلمين والصبيين ذلك المشروع هو زواج الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبي أخى صلاح الدين بالأميرة الإنجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد ، فى الوقت الذى فتح فيه ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين أناب الأخير أخاه الملك العادل فى مفاوضة ريتشارد وقد تعثرت تلك المفاوضات بسبب تمسك ريتشارد على إرجاع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قبل موقعه حطين ، وليس أبلغ من إجابة صلاح الدين على ذلك بقوله " القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فى تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ولم يقنط ريتشارد من تمسك صلاح الدين وصلابة راية رغم أن فكرة تحقيق السلام بالطرق الدبلوماسية جديدة على العصور الوسطى والجديد دائماً يتطلب الصدر والحكمة ومعالجة الموضوع من زوايا أخرى وبطريقة جديدة ويكون عمل العاطفة فيها أقوى من العقل فأعذ ريتشارد رسوله إلى الملك العادل يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر عام ١١٩١ م (٢٩ رمضان ٥٨٧ هـ) يقترح عليه زواجه من أخت ريتشارد أرمل وليم الثانى

ملك صقلية على شرط أن يكون القدس وما مع المسلمين للعادل وعكا وما مع الصليبيين لجوانا ، وأيضاً على شرط أن يحكم العادل البلاد وتقيم زوجته جوانا فى القدس وبصحبته القسس والرهبان فقط وأن يرضى العادل قادة الصليبيين الشرقيين وهيئتى الداوية والاستبترية ببعض القرى ، ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيباً كبيراً ، ورأى فى ذلك عين الصواب ، وشاور أخاه السلطان صلاح الدين فوافقه وقبل الفكرة ورحب بها ، ولم تلبث أن ظهرت العقبة الكأداء فى سبيل تنفيذ هذا المشروع ولكنها لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد قلب الأسد وإنما أتت من جانب الأميرة جوانا التى أبت أن تمكن مسلماً من غشيانها ، كذلك طلب ريتشارد من الملك العادل أن يعلن اعتناقه للديانة المسيحية ، ويروى أبو شامة أن بعض الفرنجة خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل وعنفوها وقالوا لها ما معناه " هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة وقطع على النصرانية وقطيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة " ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرى النظر عن الموضوع ، ويرى لين بول أنه ليس ثمة شك فى أن مشروع زواج العادل من جوانا يرجع إلى عامل الصداقة الحميمة المتبادلة بين ريتشارد والعادل ، وليس أدل على الصداقة المتبادلة بين العادل وريتشارد أنهما كانا يجتمعان ويتجاريان حديث الصلح وفى إحدى المرات طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك . وعلى أية حال فإن فكرة زواج العادل من الأميرة الإنجليزية فكرة طريقة وجديرة بالذكر فهى توضح مدى تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين وتدل أيضاً على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام من جهة وروح التسامح التى أخذت تسود فى بعض تصرفات الفريقين من جهة أخرى . (١٠)

أما في الجانب الاجتماعي فإن تأثير الصليبيين كان عظيماً بما شاهده من نواحي الحضارة العربية من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية التي شاهدوا نماذج طيبة منها في بلاد الشام مثل معرة النعمان والمعروف أن وظيفة الحمام في مجتمع العصور الوسطى العربي لم تقتصر على الاستحمام بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من الجسد ، وهي العملية التي قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانة بالنسبة للنساء ولم يلبث أن أدى إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية إلى تردهم عليها طلباً لنظافة الجسد بل إن بعضهم كان لا يجد غضاضة في أن يحضر زوجته للحلاق العربي في الحمام ويطلب منه تحفيها .

وبعد .. فإن الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب ، لقد كانت بالنسبة للوطن العربي تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات .. تجربة أثبتت للعرب جميعاً في المشرق والمغرب أن وحدتهم هي الملاذ الذي يلودون به وقت الخطر والعاصم الذي يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين .

وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبي مغامرة فاشلة كلفته كثيراً من التضحيات في الأرواح والأموال التي ذهبت عبثاً لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى لا يمكن أن تنجح في أرض عربية عرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم .

وأخيراً فإن الحركة الصليبية كانت بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب لقاء مكن الغرب الأوروبي من النهوض من سباته الطويل والأخذ بأسباب حضارة زاهرة تعرف عليها في أرض العرب . (١١)

هوامش الفصل السادس الجوانب الحضارية بين المسلمين والصليبيين

١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، (القاهرة : ١٩٦٤) ص
وعن القضية انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ،
ج ٢ ، ص ١٤٣

١١) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ،
(القاهرة : ١٩٧٩) ، ص ٢٣٠ - ٢٣١
وانظراً أيضاً :

سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ، ص ١٤٦
رنسيمان (ستيفن) : الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
ص ٨١٩
فليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ .
سعيد عاشور : النهضات الأوروبية ، ص ١٨٠

١٢) سعيد عاشور : أواء جديدة ، ص ٨٨ - ٩١
محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩
١٣) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٣١ - ٢٣٢

وانظر أيضاً :

جروينباوم (جوستاف) : حضارة الإسلام ، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، (القاهرة
١٩٥٦) ، ص ٧١
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

- ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : د. جمال الشيال ،
(القاهرة : ١٩٦٤) ، ص ٩٨ .
- ١٤) محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية ، (القاهرة : ٢٠٠٠)
وانظر أيضاً :
- عبد المعطى الجلانى : التأثيرات الإسلامية فى عمارة العرب فى العصور
الوسطى ، مجلة عاديات حلب ، جامعة حلب ، (١٩٧٥) ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .
- ١٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .
سعيد عاشور : أضواء جديدة ، ص ٩٦ - ٩٧ .
محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- ١٦) حسن عبد الوهاب حسين : مقارن وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب
الصليبية ، (الإسكندرية ، ١٩٩٧) ، ص ١٧٤ .
- ١٧) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٢٤ .
سعيد عاشور : أضواء جديدة ، ص ٧٨ - ٩٧ .
- ١٨) محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
وانظر أيضاً :
- سعيد عاشور : النهضات الأوروبية ، ص ٢٣ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٥ - ٦٥٦ .
المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .
- ١٩) محمود الحويرى : العادل الأيوبي ، (القاهرة :
١٩٧٩) ، ص ٤٠ - ٤٣ .
- محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

تدريبات على الفصل السادس



السؤال الأول : اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن:

الطب كمظهر من مظاهر الاتصال الحضاري بين المسلمين والصليبيين

السؤال الثالث: قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر

علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة

وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة

١- ترجم ستيفن الانطاكي كتاب كامل الصناعة الطبية عام ١٢٢٧م.

٢- تأثر الصليبيون بالعمارة الإسلامية.